محمد بن علي بن أبي طالب
(المعروف بابن الحَنَفية)
حياته وموقفه من الأحداث السياسية في عصره

دكتور/ طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عُبيَّة
مدرس بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

مقدمة:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلَّم. أما بعد:

فقد كان لعلى بن أبي طالب ﷺ أولادٌ كثيرون من زوجات شتى. وكان من أشهر أولاده ثلاثة، اثنان لهما صحبةٌ وقرابةٌ من النبى محمد ﷺ، هما السِّبْطان: الحسن والحسين رضى الله عنهما، وأُمُّهما هى فاطمة رضى الله عنها، ابنة رسول الله ﷺ. وثالثهم محمد ابن على بن أبي طالب، المشهور بابن الحنَفية، وأُمُّه هى «خَوْلَة بنت جعفر بن قيس... الحَنفية»، ينتهى نسبها إلى «بنى حَنيفة».

وقد نال كلٌّ من الحسن والحسين عناية كبيرة من المؤرخين والأخباريين القدامى، والباحثين والدارسين المحْدَثين، لقربهما من بيت النبوة، ولمنزلتهما فى الدين، ولرفعة مكانتهما وقَدْرهما عند المسلمين، إضافة إلى وقوع حوادث كبرى لصيقة الصلة بهما، كان من أهمها تنازلُ الحسن بن علىّ ﷺ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ، فاجتمعت الأمة على كلمة سواء فى عام الجماعة (٤١هـ/ ٦٦١م) بعد فتنة وفُرْقة دامت خمس سنوات على إثر مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ (فى ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م). ومن هذه الحوادث امتناع الحسين بن علي ﷺ عن البيعة ليزيد بن

معاوية، ثم خروجه عليه لخلعه من الولاية (سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م)، وانتهى أمره بمقتله شهيداً في كَرْبلاء، في العاشر من شهر المحرم من السنة نفسها، وتولد عن ذلك حوادث أخرى، كثورة التوابين في الكوفة (سنة ٦٤- ٦٥هـ/ ٦٨٣-٦٨٤م) للأخذ بثأر الحسين، وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي وسيطرته على العراق (سنة ٦٦-٦٧هـ/ ٦٨٥- ٦٨٦م)، وظهرتْ إثْر ذلك فرَقٌ شيعية كثيرة ، مثل «الكَيْسانية»، و« البيَّانية »، و«المغيرية »، و« الرِّزامية »، وغيرها من الفرَق التي أصبح لها معتقداتٌ وآراءٌ مخصوصة.

وهذه الحوادث التي ارتبطت بالحسن والحسين رضي الله عنهما كانت محل اهتمام المؤرخين الأقدمين، على اختلاف ميولهم وانتماءاتهم، وموضع دراسة وفحص على يد الدارسين المُحدثين، على تباين مشاربهم ومدارسهم. ومن هنا نالَ الأَخَوَان الحسنُ والحسينُ وما ارتبط بهما من أحداث حظّا وافراً من الدراسة والبحث. أما أخوهما محمد ابن الحنفية فلم يكن له ما لهما من القَدْر والمنزلة، ولم يكن مثلَهما صحابيًا، فهو من طبقة كبار التابعين، وولد في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. وقد لاحظنا أنه – وإن كان له من العلم والفقه والدين القسْط الوفير، وورد ذكره في ثنايا أحداث تاريخية كثيرة، وكان له مشاركة فيها، ورؤيةٌ وموقفٌ واضحٌ منها - لم ينَلْ عنايةَ الدارسين للوقوف على آرائه ومواقفه من أحداث عصره .

وتعود أهمية معرفة مواقف ابن الحنفية وآرائه في الأحداث السياسية التي عاصرها إلى قوة تأثيره في مَجْرَياتها، لعلمه وفقهه من ناحية، ولمكانته ومنزلته من البيت العلوي من ناحية أخرى، إضافةً إلى قوة شخصيته وهيبته في النفوس، وصلابته في المواقف. ومن هنا كان أهل المدينة حريصين على أن يخرج معهم في ثورتهم على يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م)، لعزله من الخلافة. كما أن عبد الله بن الزبير – حين أعلن الخلافة لنفسه – كان شديد الحرص على أن يسلّم له ابن الحنفية، ويبايعه. وسارعَ عبد الملك ابن مروان هو الآخر - بعد أن تغلَّب على ابن الزبير- إلى الحصول على بيعة ابن الحنفية، ليكتسب الشرعية. ولما ثار المختار بن أبي عُبيد الثقفي في الكوفة ادَّعى أنه

يدعو باسمه، وأنه مبعوثٌ من قبَله للثأر من قتلة الحسين، ووصفه بـ «المهدى بن الوصىّ».

يُضاف إلى ذلك معاصرتُه لأحداث فتنة مقتل عثمان بن عفان ﷺ، ووجودُه بجوار أبيه علىﷺ فى حروبه؛ «الجمل» و« صفِّين » و« النهروان »، إلى أن قُتل شهيدًا بسيوف «الخوارج»، فى السابع عشر من رمضان (عام٤٠هـ/ ٦٦٠م). وكان لابن الحنفية موقف واضح من تنازل أخيه الحسن عن الخلافة لمعاوية، ومن خروج أخيه الحسين بالثورة على يزيد بن معاوية .

وعند دراسة هذه المواقف كلها لابن الحنفية وتحليلها – مع مقارنتها بمواقف بعض كبار مُعاصريه – يتجمَّع لدينا معالم « منهج سياسى » له، يستمدُّ ملامحه من رؤيته الخاصة للأحداث، ربما تُلْقى ضوءًا جديدًا على فهمها.

ولكى تكتمل الصورة عن حياة ابن الحنفية رأينا تسجيل سيرته الذاتية بدءًا من مولده، وانتهاءً بوفاته، مع تحرير التاريخ الدقيق للمولد والوفاة. وما بين هذا وذاك يأتى الحديث عن نشأته، وزواجه وأسرته، وصفته وهيئته، وعلمه وفقهه، وملامح شخصيته، ومنزلته ومكانته.

وقد اخترنا لهذه الدراسة عنوان:

محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية

(حياته، وموقفه من الأحداث السياسية في عصره)

ويقع فى مبحثين اثنين :

المبحث الأول: حياة محمد ابن الحنفية من مولده إلى وفاته.

المبحث الثاني: موقف محمد ابن الحنفية من الأحداث السياسية فى عصره.

ثم يعقبهما خاتمة وخلاصة لأهم النتائج التى توصَّل إليها البحث.

ولم نجد – فى حدود علمنا واطلاعنا – مَنْ أفرد هذا الموضوعَ بالدراسة والتحليل. وغاية ما كُتب عن ابن الحنفية هو ما جاء عنه من تراجم فى المصادر القديمة، وأخبار متناثرة في كتب الحوليات، وتكتفي كلُّها بجمع الروايات وسردها. وأما الدراسات

التاريخية الحديثة التى اهتمت بالأحداث التى عاصرها ابن الحنفية فى العهدين الراشدي والأموي فلم تُعْنَ كثيرًا بالوقوف عند دور ابن الحنفية في مجرياتها.

هذا، ونؤكد هنا على أنه ليس من شرطنا فى هذه الدراسة الخوض فى تفاصيل الأحداث التى لها صلةٌ بمحمد ابن الحنفية، إلا إذا اقتضت الضرورةُ والحاجة إلى ذلك، لبيان ما يحتاجه الحدثُ التاريخى من إيضاح وتفسير لموقف ابن الحنفية منه.

وصلَّى الله على النبىّ محمد وآله وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

المبحث الأول
حياة محمد ابن الحنفية وسيرته الذاتية

اسمه ونسبه، وشهرته:

محمد بن على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَى، القرشيّ الهاشميّ[1]. وكُنيته «أبو القاسم»، وهو بها أشهر. ويُكنّى أيضا بأبي عبد الله[2]. وتشير بعض الروايات إلى أن على بن أبي طالب ﷺ هو الذى سماه «محمداً»، وكنَّاه «أبا القاسم» [3]، على اسم رسول الله ﷺ وكنيته[4]. وعُرف بمحمد (الأكبر) [5]، لتمييزه عن أخ له من أبناء على اسمه محمد (الأصغر)[6].

وقد اشتهر محمد بن على بن أبي طالب بابن الحَنَفيَّة، نسبة إلى أمّه، وكانت من «بنى حَنيفة»، تمييزاً له عن أخَوَيْه «الحسن» و «الحسين» رضي الله عنهما ابني علي بن أبي

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٩٣)، المزّي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤)، ابن أبي شيبة: المصنف (٥/ ٢٦٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٤،٣٢٥)، المزّي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٤،١١٠)، تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠).

(٣) روي ابن سعد: الطبقات (٧/ ٩٣)، والترمذي: السنن (٥/ ١٣٧) رقم (٢٣٤٨)، وأبو داود: السنن (رقم ٤٩٦٧) من طريق منذر الثوري، عن محمد ابن الحنفية، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: « يا رسول الله، أرأيتَ إن ولد لي بعدك اسميه محمداً (وفي لفظ: اسمِّيه باسمك) وأُكنِّيه بكنيتك؟» قال: «نعم». قال: وكانت رخصةً من رسول الله ﷺ لعليّ . وراجع ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٢٨-٣٢٩).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٥).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧/ ٩٣)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ١٥٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٠).

(٦) ذكر مصعب الزبيري محمداً (الأصغر) في عداد أبناء علي بن أبي طالب، وأشار إلي أنه من (أم ولد)، ولم يذكر اسمها (نسب قريش، ص٤٤). بينما ذكر الطبري (تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٥٤) أن (محمداً الأصغر) أُمُّه أسماء بنت عُميس، كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب، فلما قُتل في (مؤتة) تزوجها أبو بكر، فلما توفي تزوجها علي، فولدتْ له يحي ومحمداً (الأصغر).

طالب ﷺ، وأُمُّهما فاطمة ابنة رسول الله ﷺ. واسم أمِّه – بإجماع المصادر– «خَوْلَة بنت جعفر بن قيس بن مَسْلَمة بن عُبيد بن ثَعْلبة بن يَرْبُوع بن ثعلبة بن الدُّؤَل بن حنيفة بن لُجَيْم بن صَعْب بن على بن بكر بن وائل» [(١)]. وقد غلب عليها وصف «الحَنَفية» [(٢)]، لأنها كانت – كما فى أكثر الروايات – أَمَةً، (أى جارية من الرقيق)، سوداءَ، سنديةً لبنى حنيفة[(٣)]، الذين يقطنون «اليمامة» فى البحرين، ولم تكن منهم. وحين حاربهم خالد بن الوليد بسبب الرِّدَّة وقعتْ فى السَّبْى الذى جئ به إلى المدينة بعد وقعة « عَقْرباء » ، فلما قسَّم أبو بكر الصديقﷺ الغنائم أعطاها لعلى بن أبي طالب ﷺ، فصارت له ملْكَ يمين، فأولدها محمداً، واشتهر بنسبته إلى أمِّه «خولة» الحَنَفية[(٤)].

ويقال: إن «خَوْلة » كانت من «بنى حنيفة»، أى من أنفسهم، ولم تكن جارية لهم. لكنَّ الصحيح – وهو الذى ذكرته أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها – أنها كانت أَمَةً لبنى حنيفة، وعلّلتْ ذلك بأن خالد بن الوليد حينما غزاهم «صالحهم على الرقيق، ولم يُصالحهم على أنفسهم»[(٥)]. والمراد بهذه العبارة أنه لم يَسْتَرِقَّ أحداً منهم، وإنما جعل رقيقَهم من الغنائم.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧ / ٩٣)، مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٤١)، المقدسي: البدء والتاريخ (١/ ٢٨١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٣)، المزي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٦٩). ومن الملاحظ أن أكثر المترجمين لابن الحنفية يقفون في سرد نسب أمه عند « حنيفة » ، أو « حنيفة بن لجيم » . أما ابن سعد وابن عساكر فقد أكملا النسب إلي « بكر بن وائل » .

(٢) السمعاني: الأنساب (١/ ٣٠).

(٣) روي ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٩٣)، وابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٣)، ونقله الذهبي في: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: « رأيت أم محمد ابن الحنفية، سنديةً سوداء، وكانت أمةً لبني حنيفة، ولم تكن منهم » .

(٤) ابن سعد: الطبقات (٧ / ٩٣)، المقدسي: البدء والتاريخ (١/ ٢٨١)، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٨/ ٢٦)، (٨/ ٢٦)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٤،٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦)، المزي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٤٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٦٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠)، تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٩٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٦٩)، الذهبي تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٤).

ويروى البلاذرى فى (أنساب الأشراف) روايتين؛ الأولى: رواية المدائنى، وهى أن رسول الله ﷺ بعث علياً إلى اليمن، فأصاب «خولة» فى بنى زبيد، وقد ارتدّوا مع عمرو ابن معدى كرب، وصارت فى سهمه. والرواية الثانية:رواية هشام الكلبى، وهى أن بنى«أسد بن خُزَيْمة» أغاروا على «بنى حنيفة» فى اليمامة، فسَبُوا «خَوْلة بنت جعفر»، ثم قدموا بها المدينة فى أول خلافة أبي بكر، فباعوها لعلى بن أبي طالب. ولما علم قومها بذلك قدموا المدينة وأخبروا علياً بموضعها منهم، فأعتقها ومهرها وتزوجها، فولدت له محمداً ابنه. وقد اختار البلاذرى هذا القول، وقال: « وهذا أثبت من خبر المدائنى»[1]

تاريخ مولده:

اختلفت الأقوال والروايات فى تحديد تاريخ مولد محمد ابن الحنفية. وتعود كلها إلى قولين اثنين:

الأول: أنه ولد فى خلافة أبي بكر الصديق ﷺ [2]. وقيل: ولد فى العام الذى توفى فيه أبو بكر[3]. وكانت وفاة أبي بكر ﷺ لثمانى ليال بقين من جمادى الآخرة (سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م) [4]. وبحسب هذا القول يكون مولد ابن الحَنَفية ما بين سنتى (١١هـ-١٣هـ).

الثانى: كان مولده فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ [5](١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٣م). وحول هذا التحديد وردت عدة روايات مختلفة ومتعارضة، وهى:

١- رواية ابن عساكر عن أبي سليمان قال: «وفى هذه السنة – يعنى سنة ست عشرة (١٦هـ/ ٦٣٧م) - ولد محمد ابن الحنفية» [6].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (٢/ ٤٢٢).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٥٦،٣٢٦،٣٢٣)، المزي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٥٢). الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١١).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣ / ١٨٥).

(٥) المزي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٥٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٥ / ٣٢٥).

(٦) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤/ ٣٢٦).

٢- وروي ابن عساكر عن يحى بن سعيد القطان، قال: قلت لابن المسيَّب : ابن كم كنتَ في خلافة عمر؟ قال: «ولدتُ لسنتين بقيتا من خلافته»، فذكرتُ ذلك لمحمد ابن الحنفية فقال: «ذاك مولدي» [١]. وهذا يعنى أن مولده في حدود (سنة ٢١هـ/ ٦٤١م).

٣- وقيل: لثلاث سنوات بقين من خلافة عمر[٢]. أي في حدود (سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م).

والأَوْلَى من هذه الأقوال والروايات بالقبول والاختيار هو أن ابن الحنفية ولد في حدود (سنة١٦هـ) أو (١٥هـ)، وأدرك من خلافة عمر سبع أو ست سنوات. ولعل قول الذهبى عنه: «ولد في صدر خلافة عمر، ورآه»[٣] يؤكد ما نقول. ودليلُنا على صحة هذا الاختيار أن أكثر العلماء والمؤرخين في تحديد تاريخ وفاة ابن الحنفية يحدِّدونه – كما سيأتي – في مطلع شهر المحرم (سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م) أو (٨١هـ/ ٧٠٠م) [٤]. وإذا كان عُمره حينئذ لم يتجاوز خمسة وستين عاماً (كما يقول هو عن نفسه، و باتفاق المؤرخين)[٥] فإن مولده يكون في حدود ما ذكرناه .

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٦) الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٤). وراجع ابن خلكان : وفيات الأعيان (٤/ ١٧١).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٤)، ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل (٨/ ١٢٦).

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ٦٨).

(٤) سيأتي الحديث عن وفاة ابن الحنفية وتحديد الراجح في تاريخ الوفاة (راجعه ص ٤٣).

(٥) راجع ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١١٦)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢١)، (٤٢ / ٥٧١). ورواية ورواية ابن عساكر بإسناده عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت ابن الحنفية يقول سنة الجحاف حين دخلت إحدي وثمانون: « هذه لي خمس وستون سنة، قد جاوزتُ سنَّ أبي ». قال: وكم كانت سنُّه يوم قُتل؟ قال « ثلاث وستون سنة ». وسنة الجُحاف هي السنة التي وقع فيها سيلٌ بمكة فغرقت بيوتها، فسمي ذلك العام « عام الجُحاف »، لأن ذلك السيل جَحَف كل شئ مرَّ به (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٢٥، ابن الأثير: الكامل ٤/ ١٩٢).

أما على القول بأن وفاته كانت سنة (٧٢ أو ٧٣هـ =٦٩١/ ٦٩٢م)[١] فإن مولده يكون – حسْبَ هذا التحديد - بذلك في العام السابع من الهجرة، أي في حياة النبى ﷺ. وهذا بعيدٌ، ولم يقُلْ به أحد من المؤرخين؛ فليس ابن الحنفية معدوداً في الصحابة، وإنما هو من كبار طبقة التابعين. وكذلك إذا قلنا: إن وفاته – كما جاء في بعض الأقوال – (سنة ٩٢ أو ٩٣ هـ=٧١/ ٧١١م)[٢] فإن مولده بذلك يكون في العام السابع والعشرين، أي في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وبعد وفاة عمر بن الخطاب ﷺ (في ذي الحجة ٢٣هـ/ ٦٤٣م) بأربع سنوات. وهذا أيضاً مردودٌ، فمن المؤكد أن ابن الحنفية أدرك خلافة عمر، وحدَّث عن نفسه – حَسْب رواية سابقة – أنه وُلد في العام الذي ولد فيه سعيد بن المسيَّب (أحد كبار التابعين)، لسنتين بقيتا من خلافة عمر[٣]. وقال عن نفسه - فيما يرويه عنه تلميذه منذر الثوري المؤدِّب-: « دخل عمر بن الخطاب وأنا عند أختى أم كلثوم بنت على (زوج عمر)، فضمَّنى، وقال: « ألْطفيه بالحلْواء»[٤]. ويذكر ابن عساكر أن ابن الحنفية دخل على عمر وهو غلام [٥]، أي في سن الصّبا، ولم يكن عُمُره آنذاك يسمح بالرواية عنه. وهذا يؤكد ما ذكره ابن عساكر أيضاً أن ابن الحنفية لم يرو عن عمر شيئاً[٦].

وخلاصة القول في تاريخ مولد ابن الحَنَفية – حسب الأدلة التى سقناها، وبعد الجمع بين الأقوال والروايات المختلفة – أنه وُلِد في حدود سنة (١٦هـ) أو (١٥هـ).

---

(١) المزي: تهذيب الكمال (٣٥/ ٣٢٦). ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٢٣، ٣٥٩).

(٢) المزي: تهذيب الكمال (٣٥/ ٣٢٦).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٥)، (٥٤/ ٣١٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١١).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٥)، تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠).

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٥)، (٥٤/ ٣١٨). ويطلق لفظ « الغلام » علي الصبي من حين أن يُولد إلي إلي أن يشب (المعجم الوسيط: غلم).

(٦) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤/ ٣٥٨).

زوجاته وأولاده:

تزوج محمد ابن الحنفية أربع نسوة حرائر، اثنتان منهن من نسل « عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف »، والثالثة من نسل « المطَّلب بن عبد مناف » :

١- جمال (ويُقال: جُمان) ابنة قيس بن مَخْرمة بن المطلب بن عبد مناف بن قصيّ. وأنجبت له ابنه « الحسن »[١]. وكان للحسن أخوان لأُمّه، هما: «الصَّلْت» و«أم الفضل» ابنا سعيد بن الحارث بن الصِّمَّة بن عَمرو بن عَتيك الأنصاري، من بني النجار[٢].

٢- مُسْرعة (ويقال: بُسْرة ، أو بشيرة) [٣] ابنة عبَّاد بن شيبان بن جابر بن أُهَيْب... ينتهي نسبها إلى «قيس بن عَيْلان بن مُضَر». وأنجبت له ابنَه « إبراهيم »[٤] وكان له أخ لأُمِّه يُدعى « سليمان بن عطية بن دبية »[٥].

٣- أم عبد الرحمن، واسمها «بَرَّة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ». وأنجب منها أولاده : « القاسم »، و به كُنّي أبوه محمد. و « عبد الرحمن » و « أمَّ أبيها »[٦]. و « أُم القاسم» و« رقية » و« حُبابة »[٧].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤)، مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٥)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٥)، خليفة بن خياط: الطبقات (ص٢٣٩)، المزي: تهذيب الكمال (٢٦ / ٣١٦).

(٢) مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٥)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٤- ٤٦٥).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٥) المقريزي: المقفَّي الكبير (٦/ ٢٩٨)..

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤).

(٥) مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٦).

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤).

(٧) مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٥)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٤- ٤٦٥).

٤- أم جعفر (ويقال لها: أم عَون) بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم. روتْ الحديثَ عن جدَّتها الصحابية « أسماء بنت عُمَيْس »[١]. وأولادُه منها هم: « جعفر الأصغر » و « عَوْن » و « عبد الله الأصغر »[٢].

وكان لابن الحنفية (أم ولد) لا يُعرف اسمها، أنجب منها « عبد الله » و« رُقيَّة »[٣]. رُقيَّة »[٣]. وله (أم ولد) أخرى تُدْعى « نائلة ». وأولاده منها: « عبد الله »، وهو أبو هاشم. و« حمزة » و«علي» و« جعفر الأكبر »[٤] و« رجاء »[٥]. وقد ذكر ابن عبد البر الأندلسي في (التمهيد) أن جعفر قُتل في معركة الحرَّة[٦]، وهي التي خرج فيها أهل المدينة على الخليفة الأموي يزيد بن معاوية لعزله سنة (٦٣هـ/ ٦٨٢م)، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّي، فانتصر عليهم، واستباح جيشُه المدينة ثلاثة أيام[٧].

فأولاده – إذاً – هم: (الحسن – إبراهيم - القاسم - عبد الرحمن - جعفر الأكبر - جعفر الأصغر- عَوْن - حمزة - عليّ - عبد الله الأصغر - عبد الله (من أم ولد) – عبد الله أبو هاشم - رُقيَّة (أمُّها هاشمية) - رقية (أمُّها أم ولد) - حُبابة - أمّ أبيها - أُمّ القاسم - رجاء).

وقد حظى أولاد محمد ابن الحنفية الذكور بمكانة اجتماعية متميزة، ومنزلة علمية بارزة، وكان لبعضهم مشاركة في الحياة العامة، وأدْلَوْا بآرائهم في بعض القضايا

---

(١) كانت أسماء بنت عُميس زوجة لجعفر بن أبي طالب، واستشهد في سرية مؤتة (سنة ٧هـ). وتزوجها أبو بكر الصديق، ومات عنها، فتزوجها علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين(راجع ابن حجر:الإصابة ٧ / ٤٩٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤)، المسعودي: مروج الذهب (٣/ ١٣٩)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٥)، المزي: تهذيب الكمال (٣٥ / ٣٣٥، ٣٧٣)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١ / ٢٢٠).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٧ / ٩٤).

(٤) ابن سعد: المصدر السابق (٧/ ٩٤)، مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٥)، المزي: تهذيب الكمال (١٦ / ٨٥). المسعودي: مروج الذهب (٣ / ١٣٩)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٤).

(٥) المزي: تهذيب الكمال (١٦/ ٨٥).

(٦) ابن عبد البر: التمهيد (١٠/ ٩٣).

(٧) راجع عن هذه الحادثة: تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٢- ٤٩٥).

الفكرية والأحداث السياسية. ومن المفيد أن نتوقف عند اثنين فقط منهم، وهما: الحسن، وعبد الله (أبو هاشم):

(١) الحسن بن محمد ابن الحنفية، أبو محمد. تابعيٌّ جليل، سكن المدينة النبوية[١]. وصفه المؤرخون بأنه « كان أسود، شديد السواد، كثير العلم، إماماً، فاضلاً، شجاعاً، ناسكاً، مُحدِّثاً، ثقة، من علماء أهل البيت »[٢]. وقال عنه ابن كثير: « كان المقدَّم على إخوته، عالماً فقيهاً، عارفاً بالاختلاف والفقه »[٣]. وقال ابن حبَّان: « كان من أفاضل أهل البيت، ومن أعلم الناس بالاختلاف »[٤]. وقد فضَّله العلماءُ على أخيه عبد الله (أبي هاشم) « في العلم والفضل والهيئة »[٥]. وفي المفاضلة بينهما يقول تلميذه الزُّهري: « كان الحسنُ أوثقَهما في أنفسنا »[٦]. وقال الذهبي: « كان أَجَلَّ الأَخَوَيْن وأفضَلَهما »[٧].

تلقَّى الحسن بن محمد ابن الحنفية العلمَ عن جماعة من الصحابة وروى عنهم، مثل عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبي هُريرة، وأبي سعيد الخدري، وسَلَمة بن الأَكْوَع،وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم. كما أنه روى عن أبيه محمد ابن الحنفية[٨]. وقد تتلمذ عليه جمعٌ كبير، أبرزُهم عطاء بن السائب الثقفي (ت١٣٦هـ/ ٧٥٣م)،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١/ ٢٢٧)..

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ (١/ ٢٨٢)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٤)، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب (ص٥٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٣٠).

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (٥ / ١٨٥).

(٤) المزي: تهذيب الكمال (٦ / ٣١٩)، ابن حجر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٢٢)، المزي: تهذيب الكمال (٦ / ٣١٦).الذهبي: تاريخ الإسلام (٣ / ١٢٤). / ١٢٤).

(٦) المزي: تهذيب الكمال (١٦ / ٨٧)، (٦ / ٣١٦)، ابن حجر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠).

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٣٠).

(٨) البخاري: التاريخ الكبير (٢/ ٢٩٧)، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٨/ ٢٦).ابن حجر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠).

وعمرو بن دينار، أبو محمد الأثرم مفتى مكة (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م)، ومحمد بن مسلم ابن شهاب الزُّهرى، أحد أكابر الحفاظ والفقهاء (ت ١٢٤هـ/ ٧٤٢م)[١].

ولم يكن الحسن من المكثرين من رواية الحديث النبوى. ولا تذكر له المصادر سوى ثلاثة أحاديث، عن أبيه، عن جدّه علىّ بن أبى طالب، أحدُها فى تحريم زواج المتعة، ولحوم الحُمُر الأهلية[٢]. ورُويت عنه بعض الأقوال فى الفقه والمواعظ والرقائق[٣]. كما كما رويت عنه أخبار تاريخية قليلة، من أهمها: قصة موت عمِّه الحسن بن على بن أبى طالب، وامتناع بنى أمية من دفنه بجوار جدِّه النبى محمد ﷺ[٤]. وقصة بيعة أبيه محمد ابن الحنفية لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير[٥]. وله مرويات عديدة فى السيرة النبوية، فنقل إلينا - عن أبيه، عن جدِّه علىّ - جانباً من حياة النبى ﷺ فى فترة شبابه الأولى. وقصة وقوع سُهَيْل بن عَمرو فى الأَسْر فى غزوة بدر. والكتاب الذى أرسله رسول الله ﷺ إلى مجوس هَجَر[٦]. وقصة رَجْم ماعز الأسلمى التى يرويها عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه[٧].

---

(١) البخاري: التاريخ الكبير (٢/ ٣٠٥)، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٣/ ٣٥)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧٣)، (٧/ ٣٠٣)، المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٣١٩،٣١٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٠).

(٢) مالك: الموطأ (٢/ ٥٤٢)، البخاري: الصحيح، كتاب المغازي، باب « غزوة خيبر » (رقم٤٢١٦)، أبو عوانة: المستخرج (٥/ ٣٨) رقم (٣٣٠٥)، الطحاوي: شرح معاني الآثار (٣/ ٢٥) رقم (٣٩٨٦)، أبو نعيم : حلية الأولياء (١/ ٤٧٣)، ابن عبد البر: التمهيد (١/ ٩٤-٩٨).

(٣) اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٢٩٠)، المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٣٢٠).

(٤) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٤٣) .

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبري (٥/ ١١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٧-١٢٨). وراجع أخباراً رواها الحسن في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (عبد الرزاق الصنعاني: المصنف ٣/ ١٣٢، المزي: تهذيب الكمال ٧/ ٤٦٩).

(٦) البيهقي: السنن الكبرى (٩/ ٢٨٤) رقم (١٨٩٥٣)، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير (١/ ٦٥)، الصالحي: سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد (١٠/ ٩٧).

(٧) ابن أبي شيبة: المصنَّف (٥/ ٥٤٠).

وكان للحسن معرفة بأحوال الرجال جَرْحاً وتوثيقاً [1]. وأدرجه أبو إسحق الشيرازى فى عداد الفقهاء، فترجم له فى كتابه (طبقات الفقهاء)[2].

وعقيدة الحسن بن محمد ابن الحنفية هى عقيدة أهل السنة والجماعة، واستدل اللالكائى بأقواله فى (شرح أصول اعتقاد أهل السنة)، ومنها التحذير من مجالسة «القَدَرية» [3]، وروى عنه قولَه: « لا تجالسوا أهل القَدَر »[4].

وكان الحسن – مثل أبيه محمد، وجدِّه علىّ بن أبي طالب – يتبرأ من الشيعة الغلاة (السبئية) الذين يرفضون خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وينتقصونهما، ويُصرِّحون بسبِّهما وبُغضهما، وينكرون أحقيتَهما فى الخلافة [5]. يروى الدارقطنى فى (فضائل الصحابة) بإسناده عن الحسن بن محمد ابن الحنفية قال – موجهاً حديثه إلى أهل الكوفة حيث يكثر فيها التشيع –: « يا أهل الكوفة، اتقوا الله، ولا تقولوا فى أبي بكر وعمر ما ليسا له بأهل. إن أبا بكر الصديق كان مع رسول الله ﷺ فى الغار ثاني اثنين، وإنَّ عمر أعزَّ الله به الدين »[6]. وكان يقول: « من خلع أبا بكر وعمر فقد خلع

---

(١) كقوله في سليمان بن يسار الهلالي (ت١١٠هـ/ ٧٢٨م): « كان سليمان بن يسار أفهم من سعيد بن المسيّب » (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧ / ١٧٣) .

(٢) الشيرازي: طبقات الفقهاء (ص٦٣).

(٣) القدرية: مصطلح أُطلق على الذين يُنفون عن الله تعالى علمَه السابق بالقَدَر، فزعموا أنه سبحانه لا يعلم شيئاً من أعمال العباد قبل حدوثها، وإنما يعلمها بعد وقوعها. وجعلوا العباد هُم الخالقين لأفعالهم، ولا دخل لإرادة الله وقدرته في وجودها. ومن أقوالهم في ذلك: (لا قَدَر، والأمرُ أُنُف). وأول من قال بهذا هو (معبد الجهني) في أواخر القرن الأول الهجري. وقد أنكر عليهم الصحابة وأئمة التابعين، وتبرؤا من هذا الاعتقاد الفاسد (مسلم ابن الحجاج: الصحيح ١/ ٣٦، البيهقي: السنن الكبري ١٠/ ٢٠٣، ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ١٤٥).

(٤) اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣ / ٥٣٥).

(٥) راجع عن هؤلاء الشيعة الذين عرفوا بالرافضة : أبو الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة (ص٢٢٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٩/ ٤٦٤، ٤٦٨)، المزي: تهذيب الكمال (١٠/ ٩٧)، الذهبي: ميزان الاعتدال (١ / ٥-٦).

(٦) الدار قطني: فضائل الصحابة (١ / ٥٣) ، ونقل عنه المزي: تهذيب الكمال (٦ / ٣١٩).

السُّنَّة »[1]. ولعل المراد أن الطعن فيهما طعن فى السنة النبوية، حيث وصَّى النبىُّ ﷺ باتباع سُنَّته، وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعده[2].

ولم يكن للحسن بن محمد مشاركة فى الأحداث السياسية التى عاصرها، سوى ما رُوى أنه نزل الكوفة بعد قَتْل المختار بن أبى عبيد الثقفى (سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م)، ثم مضى إلى « نَصيبين »[3] وبها جماعة من « الخَشَبية » - وهم من أتباع المختار[4] – فرأَسوه فرأَسوه عليهم، فسار إليهم « مسلم بن الأسير» من الموصل (وهو من أتباع عبد الله بن الزبير)، فقاتلهم وهزمهم، وأسر الحسنَ، وبعث به إلى ابن الزبير، فسجنه بمكة، ثم استطاع أن يهربَ من السجن ليلاً، وانضم إلى أبيه محمد فى منى[5]. ويروى الفاكهى عن عَمْرو بن دينار، عن الحسن بن محمد ابن الحنفية قال:« أخذنى ابن الزبير فحبسنى فى دار النَّدوة، فى سجن عارم[6]، فانفلَتُّ منه، فلم أزَلْ أتخَطَّى الجبالَ (أى جبال مكة) حتى سقَطْتُ علي أبي بِمِنَى »[7].

---

(١) ابن حبان: الثقات (٤/ ١٢٢)، المزي: تهذيب الكمال (٦ / ٣١٩).

(٢) كما في حديث العرباض بن سارية، الذي رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٣٦) رقم (١٧١٨٢ ، ١٧١٨٥) .

(٣) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة، تقع شرقي دجلة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام. بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام (ياقوت: معجم البلدان ٤ / ٢٣١)

(٤) قال البلاذري في (أنساب الأشراف ٣/ ٤٧٦): « سُمُّوا (الخشبية) لأن الذين وجههم المختار إلي مكة لنصرة محمد ابن الحنفية أخذوا بأيديهم الخشب الذي كان عبد الله بن الزبير جمعه ليحرق به ابن الحنفية وأصحابه. ويقال : بل كرهوا دخول الحرم بسيوف مشهورة ومعهم الخُشُب، ولم يسُلُّوا سيوفَهم من أغمادها ». وقال السمعاني في (الأنساب ٢/ ٣٦٨): « هم طائفة من الشيعة الرافضة ».

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ١٢٥، ٢٤٥) وراجع ابن عبد البر: التمهيد (١٠/ ٩٢).

(٦) يقع سجن عارم خلف دار الندوة بمكة (الفاكهي: أخبار مكة ٥/ ٣٩٨). وقال عنه المسعودي في (مروج الذهب ٣ / ٩٢): « وهو حبسٌ مُوحِش مظلمٌ ».

(٧) الفاكهي: أخبار مكة (٥/ ٣٩٩). وراجع المسعودي: مروج الذهب (٣ / ٩٢).

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد وفاة الحسن بن محمد ابن الحنفية. والراجح لدينا أنه توفي سنة مائة (١٠٠هـ/ ٧١٨م) أو في التى قبلها[١].

(٢) عبد الله بن محمد ابن الحنفية، أبو هاشم، القُرشى، الهاشمى المدنى. سكن المدينة. « كان عالماً أديباً »[٢]. ذكره ابن حبَّان فى كتاب (الثقات)[٣]. ووصفه ابن سعد سعد بأنه « ثقة، صاحب علم ورواية ». لكنه كان قليلَ الرواية للحديث[٤]. وأكثرُ مَن مَن روى عنهم أبوه محمد، وروى هو عن صهر له صحابي من الأنصار[٥]. ومن الرواة الرواة عنه: ابنُه عيسى، والإمام الزُّهْرى، وعمرو بن دينار، ومحمد بن على بن عبد الله بن عباس، وغيرهم[٦].

وقد رُويت عنه أحاديث قليلة، أشهرُها حديث تحريم زواج المتعة ولحوم الحُمُر الأهلية (عن أبيه محمد، عن جده عليّ ﷺ)[٧]. وحديثٌ في إخبار النبي ﷺ عن بني

---

(١) خليفة بن خياط: الطبقات (ص ٢٣٩)، التاريخ (ص٣٢٥)، ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٢٢)، مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٥)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ٩٨، ١٢٥- ١٢٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٠).

(٢) ابن عبد البر: التمهيد (١٠ / ٩٠).

(٣) ابن حيان : الثقات (٧/ ٢)، الترجمة رقم (٨٧٤٩).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٢٢)، المزي: تهذيب الكمال (١٦/ ٨٥).

(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٥/ ١٢)، أحمد بن حنبل: المسند (٥/ ٣٧١)، الطبراني: المعجم الكبير (٦/ ٢٧٧) أبو عوانة: المستخرج (٥/ ٣٨)، الطيالسي: المسند (١/ ١٧)، المزِّي: تهذيب الكمال (١٦/ ٨٥)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٢٩).

(٦) أبو عوانة: المستخرج (٥/ ٣٨)، الواقدي: المغازي (١/ ٤٥٧)، ابن عبد البر القرطبي: التمهيد (١٠/ ٩٠)، الطحاوي: شرح معاني الآثار (٣/ ٢٥)، الطبراني: المعجم الكبير (٦/ ٢٧٧)، المزي: تهذيب الكمال (٢/ ٩)، (١٦ / ٨٥-٨٦))، (٢٦ / ١٥٣)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ١٥٥، ٢١٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٩).

(٧) مالك: الموطأ (٢/ ٥٤٢)، أحمد بن حنبل: المسند (٥/ ٣٧١) رقم(٢٣٢٠٢)، الطيالسي: المسند (١ / ١٧)، رقم رقم (١١١)، أبو داود : السنن (عون المعبود ١٣/ ٢٢٦) رقم (٤٩٧٦)، أبو عوانة: المستخرج (٥/ ٣٨)، رقم (٣٣٠٥)، (٣٣٠٦)، الطبراني: المعجم الكبير (٦/ ٢٧٧)، الطحاوي: شرح معاني الآثار (٣/ ٢٥)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٥ / ١٢)، ابن عبد البر: التمهيد (١٠ / ٩٣-٩٦).

العباس أنهم يتولَّون الخلافة. لكنه حديث موضوع كما قال السيوطى فى (تاريخ الخلفاء)[1].

ومن الأخبار القليلة التى تُروى عن حياة عبد الله أبي هاشم: أن خصومةً وقعت بينه وبين ابن عمِّه زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب حول صدقات علىّ بن أبي طالب بالمدينة، فوفد زيد إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، ليرفع إليه هذه الخصومة[2].

ولا نعرف لأبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية مشاركة فى الحياة السياسية سوى ما قيل عنه إن « الشيعة كانت تنتحله ويتولَّونه »[3]. وأنه « إمام الشيعة »[4]، و« و« كان يتبع السَّبئية »[5] (أتباع عبد الله بن سبأ)، و« كان يضع أحاديثهم »[6]. وكلُّ ذلك ليس بصحيح كما سنبين فى موضع آخَر من هذه الدراسة[7]. وقد توفى أبو هاشم عبد الله سنة (٩٨هـ/ ٧١٦م). وقيل: (سنة ٩٩هـ/ ٧١٧ م) فى الحميمة [8].

صفته وهيئته:

لم تُشر المصادر إلى معلومات مفصَّلة عن أوصاف محمد ابن الحنفية الجسَدية، إلا ما انفرد به المقدسي في (البدء والتاريخ) بأنه «كان أسودَ، شديد السَّوَاد»[9]. ولدينا

---

(١) أورده السيوطي في تاريخ الخلفاء (١/ ٥) بلفظ: « إن الله فتح هذا الأمر بي، ويختمه بولدك ». وراجع: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (٣/ ٣٥٠)، ولفظ الحديث عنده - وليس في إسناده أبو هاشم - أن النبي ﷺ قال للعباس: « بكم يُفتح هذا الأمر، وبكم يُختم ».

(٢) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣١).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٢٢)، المزي: تهذيب الكمال (١٦/ ٨٥)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ١٥٥). (٣/ ١٥٥).

(٤) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب (ص٥٩).

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٩).

(٦) الذهبي: المصدر السابق (٤/ ١٣٠)، تاريخ الإسلام (٣/ ١٥٥).

(٧) راجع عن ذلك (ص ١٣٨).

(٨) خليفة بن خياط: التاريخ (ص٣٢٠)، المزي: تهذيب الكمال (١٦/ ١٨٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٨٨)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ١٥٥).

(٩) المقدسي: البدء والتاريخ (١/ ٢٨٢).

معلومات قليلة عن بعض أحواله في الملبس والزينة. كان – كما وصفه عبد الواحد بن أيمن المخزومي المكي (وهو من علماء الحديث الثقات) [1] – « مَكْحُول العينين، مَصبوغ اللحية، بحُمْرة، عليه قَلَنْسُوة وعمامةٌ سوداء »[2]. وكان يُرْخي عمامته شبراً أو أو دونه[3]. ويختضب بالوَسْمة[4]، ويقول عنها: « هي خضَّابنا أهل البيت »[5]. وربما وربما خضَّب رأسَه ولحيته بالحنَّاء والكَتَم[6]. وكان يتختَّم بيمينه (كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد)[7]. ورآه رشد بن كريب: « يتختَّم في يساره »[8] .

ومن الملابس التي كان يرتديها: « مطْرَفٌ أصفر »[9]. ورآه تلميذه منذر الثوري يرتدي حَبَرَةً[10] محلَّلة الأزْرار. وكان له بُرْنُس قَزّ[11] .

وكان محمد ابن الحنفية يتمتع بقوة بدنية كبيرة، ووُصف بأنه « من الشجعان المشهورين، والأقوياء المذكورين »[12]، وله في ذلك أخبار تدل على قوته الشديدة،

---

(١) ترجم له ابن حجر في: تهذيب التهذيب (٦/ ١٤٢).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١١٥ ، ١١٦)، الفسوي: المعرفة والتاريخ: (٢/ ٥٤٤)، ابن أبي شيبة: المصنف المصنف (٥/ ١٧٨) رقم (٢٤٩٦٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٦).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١١٥)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٦).

(٤) الوَسْمة: شجر له ورق يُخْتَضب به (لسان العرب – وسم).

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف (٥/ ١٨٤) رقم (٢٥٠٢٣ ، ٢٥٠٢٦).

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف (٥/ ١٨٢) رقم (٢٥٠٠٥). والكَتَم: نبت يخلط بالحناء، ويخضب به الشعر فيبقى لونه. وأصله إذا طبخ بالماء كان منه مداد للكتابة (المعجم الوسيط: كتم).

(٧) ابن عبد البر: التمهيد (١٧/ ١١٢).

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧/ ١١٦)..

(٩) ابن سعد: المصدر السابق (٧/ ١١٤)، ابن أبي شيبة : المصنف (٥/ ١٦٠) رقم (٢٤٧٥٤).

(١٠) الحبَرة : ثوب من قطن أو كتَّان ، مخطط ، كان يصنع في اليمن (المعجم الوسيط : حبر) .

(١١) ابن أبي شيبة: المصنف (٥/ ١٦٥). والبُرْنُس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به (المعجم الوسيط: برنس).

(١٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٥/ ٥٢).

منها ما رواه المبرِّد في كتابه (الكامل): أن عليّ بن أبي طالب استطال درْعًا[1] كانت له، فطلب أن يُنقَصَ منها بعض حَلْقاتها، فأخذها محمد، وقبض بإحدىَ يديه على ذيلها، وبالأخرى على فضلها، ثم جذبها، فقطع من الموضع الذى حدَّده أبوه[2] .

ولعل مما يشير إلى شجاعته وفروسيته أن أباه عليَّ بن أبي طالب كان يستعين به في القتال، ويدفع به إلى المهام الصعبة، وأعطاه رايته في معركتي «الجمل» و« صفّين»، فكان يخوض الغَمَرات أمامه، ويمضي عند اشتباك الحرب قُدُماً، وحمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم، وأبلي بلاء حسناً. وقد روى الإمام الزُّهْري أن رجلًا قال لابن الحنفية: ما بال أبيك يَرْمى بك في مَرامٍ لا يَرمى فيها الحسنَ والحسينَ ؟ فقال – في بلاغة ممزوجة بالشجاعة والأدب الرفيع- : « لأنهما كانا خَدَّيْه، وكنتُ يدَيْه، فكان يَتوَقَّى بيديه عن خدَّيه » [3] .

ومما يُروي عن قوته البَدَنية وشجاعته: أنه صَرَع مروانَ بن الحكَم بن أبي العاص الأُموي يوم «الجمل»، وقعد على صدره، وأراد قتْلَه، فناشده مروان بالله، فأطلقه. فلما وفد ابن الحنفية على الخليفة عبد الملك بن مروان ذكَّرَه بذلك، فقال: « عفواً يا أمير المؤمنين». فقال: « أما والله ما ذكرتُ ذلك وأنا أريد أن أكافئك به، ولكنْ أردتُ أن تعلمَ أني قد علمت ». ثم أجزل له الجائزة[4].

نشأته وطلبه للعلم:

ولا نعرف عن حياة ابن الحنفية صغيراً، سوى ما حكاه هو عن نفسه أنه كان عند أخته أم كلثوم بنت علي، فدخل عليها زوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فضمَّه

---

(١) الدرع: قميص من حلقات من الحديد متشابكة يلبس وقاية من السلاح (المعجم الوسيط : درع)

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٧٠).

(٣) أبو نعيم: حلية الأولياء (٣/ ١٧٥)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٤)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣١٩). البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٨٤ - ٤٨٥).

إليه، وقال لها: « ألطفيه بالحلواء»[1]. ويذكر ابن عساكر أن ابن الحنفية دخل على عمر وهو غلام[2]، أي في سنِّ الصِّبا. وقد يكون وقتئذ في سنِّ السابعة علي أكثر تقدير، ولم يكن عمره حينئذ يسمح بالرواية عن عمر، ومن ثَمَّ لم يرو عنه شيئاً مباشرةً، وإنما روى عنه مرسلاً (كما يقول ابن عساكر، وابن أبي حاتم)[3].

وقد ظهرت عليه علاماتُ النبوغ في صغره، ووردت الإشارة إلي ذلك فيما تحدَّث به عن نفسه، قال: « سألت والدي عليّاً، فقلت: ياأبتِ، مَنْ خيرُ الناس بعد رسول الله؟ فقال: أبو بكر. قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: عُمر. ثم حملتني حَدَاثةُ سنِّي فقلت: ثم أنت يا أبتِ. فقال: أبوك رجلٌ من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم »[4].

أما عن طلبه للعلم فلا يُوجَد ما يشير إلي البداية. لكنْ من المؤَكَّد أن أباه علياً ﷺ هو مُعلِّمُه الأول، فقد كان ملازماً له طيلةَ حياته، ونقل عنه الكثيرَ من أقواله ومروياته التي رواها عن رسول الله ﷺ. وكان يقول عن نفسه – في مقارنة بينه وبين أَخَويْه الحسن والحسين رضي الله عنهما: « الحسن والحسين خيرٌ مني، وأنا أعلمُ بحديث أبي منهما »[5] وفي رواية أخرى يقول – مُفسِّراً سببَ تقدُّمه وتفَوُّقه علي أَخَوَيْه في العلم بمرويات أبيهم وأقواله –: « حَسن وحُسين خيرٌ مني، ولقد علما أنه كان يَسْتَخليني دونهما، وإني صاحب البغلة الشهباء »[6]، وهي البغلة التي كان عليٌّ يركبها، ويلازمه

---

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٥)، تاريخ الإسلام (٣/ ٧٠).

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٥).

(٢) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤/ ٣٢٤، ٣٢٥، ٣١٨، ٣٥٨)، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٨/ ٢٦).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣١).

(٤) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٢/ ٧١٣).

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (٢/ ٧٧٨) رقم (١٣٧٩) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٥).

ابنه محمد، فأتيح له الإكثار من سماعه والرواية عنه، والتفقه عليه. وقد شهد له أحد أئمة الحديث – وهو أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن الجُنيد الخُتَّلي (ت١٧٠هـ/ ٧٨٦م)[١] – بإحاطته لعلم أبيه ومروياته، حيث قال: « لا نعلم أحداً أسند عن عليٍّ، عن النبي ﷺ أكثرَ ولا أصحَّ ممَّا أسند محمد ابن الحنفية »[٢].

وفي محاولة من جانبنا – لإثبات هذه الحقيقة التي نطق بها أبو إسحق الخُتَّلي – قمنا بتتبُّع وإحصاء المرويات الحديثية التي نقلها ابن الحنفية عن أبيه عليٍّ، وتجمَّع لدينا منها – بحسب المعلومات التي أمدَّتْنا بها المصادر – ما يقترب من ثلاث وثلاثين رواية، تدور حول موضوعات شتي؛ في أبواب الشفاعة، وبعض أحكام الطهارة، والصلاة، والصيام، والحج، والجنائز، والدعاء، وحدّ شارب الخمر، وتحريم زواج المتعة. وفي بعض خصائص النبي ﷺ، وشمائله، وأخلاقه الكريمة، وفي جوانب من الرقائق، وفضائل الأعمال، وعلامات الإيمان، وغيرها من الموضوعات[٣]. إضافة إلي ما نقله ابن الحنفية من أقوال أبيه عليٍّ وآرائه الفقهية، في مسائل العتْق، والرهان، والضمان، والطلاق، ووَصْف هيئة النبي ﷺ، ورأيه في أبي بكر وعمر بنَ الخطاب رضي الله عنهما، حيث كان يُقدِّمهما علي نفسه – وسائر الصحابة – في الدين والمنزلة والفضل[٤].

---

(١) ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣١– ٦٣٢).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٤/ ٣٣١، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٥).

(٣) يطول المقام هنا بذكر مواضع هذه الروايات من المصادر، وأكثرها رواها ابن أبي شيبة: المصنَّف (٢/ ٤٦٥، ٦/ ٣٠٤، ٣٥٠، ٧/ ٥١٣)، أحمد بن حنبل: المسند (١/ ٨٠ ، ٨٢، ٨٤، ٩٤، ٩٥، ١٠٢، ١٢٤، ١٢٩، ٥/ ٣٧١)، الطبراني: المعجم الكبير (١/ ١٠٩، ٦/ ٢٧٧، ١٠/ ٢٢٧، ٢٢/ ٣٨١)، المعجم الأوسط (١/ ١١٢، ١٤٧، ٤/ ٩٤، ١٤٧)، أبو داود: السنن (١/ ٦٣، ٢/ ٦١٧)، الترمذي: السنن (١/ ٧، ٤/ ٢٥٤، ٥/ ١٣٧)، البخاري: الأدب المفرد (١/ ٢٠١، ٢٩٣، ٤٤٥)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧٢، ٣٧٣، ٣/ ١٩٢، ٢٧٩)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣/ ٢٤٧– ٢٤٨، ٣٩/ ٢٦٥، ٤٣/ ٣٥٨، ٤٤/ ١٩٦، ٥٤/ ٣١٩، ٣٢٧، ٣٢٨)، المزِّي: تهذيب الكمال(٥/ ٣٤٨، ٧/ ٢٧٩، ٢٦/ ١٤٩)، وغير ذلك من المواضع.

(٤) البخاري: الأدب المفرد (١/ ١٩٩، ٢/ ٣٤٠)، ابن أبي شيبة: المصنَّف (٣/ ١٠٨، ٤/ ٣١٥، ٥١٨، ٥٢٥)، عبد الرزَّاق الصنعاني: المصنف (٦/ ٥٠٧). البيهقي: السنن الكبرى (٢/ ٢٠٩، ٦/ ٤٣، ٧/ ٣٦٥).

ويأتي الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ (ت٧٤هـ/ ٦٩٣م) في المرتبة الثانية بين الصحابة الذين تلقَّي ابن الحنفية العلمَ عنهم؛ فعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب قال: « كنتُ أنطلق أنا ومحمد بن علي أبو جعفر (الباقر)، ومحمد ابن الحنفية إلى جابر بن عبد الله الأنصاري، فنسأله عن سُنن رسول الله ﷺ، وعن صلاته، فنكتب عنه، ونتعلَّم منه»[١].

وبالرغم من أن ابن الحنفية قد أدرك عدداً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ فإنه – باستثناء أبيه عليّ بن أبي طالب – لم يَرْوِ إلا عن القليل – والقليل جداً – منهم؛ وهم : عثمان بن عفان، وعمَّار بن ياسر، وأبو هريرة، وعبد الله بن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبو عَمْرة الأنصاري، رضي الله عنهم. كما أنَّ مَرْوياته عن هؤلاء – بحسب ما أورَدَتْه المصادر – تُعدُّ قليلة أيضاً، لا تزيد في مجموعها عن سبع روايات حديثية تقريباً. إضافة إلي رواية واحدة أخري عن جابر بن عبد الله[٢]. أما جُلُّ مَرْوياته فهي عن أبيه كما أسلفنا. ولم تذكر المصادر شيئاً مما رواه ابن الحنفية عن الصحابي عبد الله بن عباس، رغم ملازمته له في أوقات كثيرة، وقوله عنه: «كان ابن عباس حَبْرَ هذه

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٢/ ٢٥٩).

(٢) لم تذكر المصادر من مرويات ابن الحنفية عن عثمان بن عفان شيئاً. بينما ذكرت روايتين له عن عمار بن ياسر [أحمد بن حنبل: المسند (٤/ ٢٦٣)، رقم (١٨٣٤٤)، الحاكم النيسابوري: المستدرك علي الصحيحين (١٣/ ١٤٢)، رقم (٥٧٠٠)]. وروايتين عن أبي هريرة [الطبراني: المعجم الكبير (١٩/ ٢١، ٤٩٣)، رقم (٥٧ ، ١١٧٧)، المعجم الأوسط (٨/ ١١٩)، رقم (٨١٤٨، ٨١٤٩)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٦)]. وروي عن معاوية بن أبي سفيان حديثين في موضوع واحد [أحمد بن حنبل: المسند (٤/ ٩٩) رقم (١٦٩٥١)، (٤/ ٩٧) رقم (١٦٩٢٩)، الطبراني: المعجم الكبير (١٩/ ٣٢٣)، رقم (٧٣٣، ٧٣٤)، المعجم الأوسط (١/ ٨٩) رقم (٢٦٤)، ابن أبي شيبة: المصنف (٤/ ٥١٠) رقم (٢٢٦٢٢، ٢٢٦٣١)، أبو بعلى الموصلي: المسند (١٣/ ٢٩٦) رقم (٧٣٦٩)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٩)، ابن عبد البر: التمهيد (٧/ ١٢٠)]. وروي عن أبي عَمْرة الأنصاري حديثا واحدا [الطبراني: المعجم الكبير (٢٢/ ٣٨١) رقم (٩٥١)، والمعجم الأوسط (٦/ ٩٠)].

الأمة»[1]. وحين توفي ابن عباس في الطائف (سنة٦٨هـ/ ٦٨٧م) هو الذي صلَّى عليه صلاة الجنازة، وأدخله قبرَه، وتولَّى دَفْنَه، وقال: « اليوم مات ربَّانيُّ هذه الأمة »[2].

منزلته العلمية وثناء العلماء عليه:

كان ابن الحنفية – كما وصفه العلماء والرواة – واسعَ العلم، فقيهاً مجتهداً، كثيرَ الرواية للحديث [3]. ذكره ابن حبَّان في ثقات التابعين[4]. وقال عنه أحمد بن عبد الله العجلي: « تابعيٌّ ثقة، كان رجلًا صَالحًا »[5]. ووَصَفَه الذهبي بـ « الإمام »[6].

ولسَعة علمه وفقهه كان عبد الله بن عمر ﷺ – وهو من علماء الصحابة وفقهائهم، وأعلَمهم بمناسك الحجِّ – يُحيل عليه أحياناً في الفتوى، ففي رواية لابن عساكر أنَّ رجلاً سأل ابنَ عمر عن مسألة في الأحكام، فقال له: « سَلْ محمدَ ابنَ الحنفية، ثم أخبِرْني ما يقول». فسأله الرجل عنها، ثم أخبر بها ابنَ عمر، فقال: « أهلُ البيت مُفَـهَّمُونَ »[7].

ولكثرة أقوال ابن الحنفية وآرائه الفقهية أدرجه أبو إسحاق الشيرازي في كتابه (طبقات الفقهاء)[8].وقد لاحظنا – بعد تتبُّع واستقراء المعلومات التي أوردتْها المصادر عن الآراء والأقوال الفقهية المنسوبة إلي محمد ابن الحنفية – أنها تتميز بثرائه

---

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك علي الصحيحين (٣/ ٦١٦). أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ١٦٨).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبري (٢/ ٣١٩)، أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (٢/ ٩٥١، ٩٦١)، عبد الرزاق الصنعاني: المصنَّف (٣/ ٤٩٩)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٨٣)، الحاكم النيسابوري: المستدرك علي الصحيحين (٣/ ٦١٦)، المسعودي: مروج الذهب (٣/ ١٢٠– ١٢١)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (١/ ٧٩)، المزي: تهذيب الكمال (١٥/ ١٦٢)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٥٢٢).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٣).

(٤) ابن حبان: الثقات (٥/ ٣٤٧).

(٥) المزِّي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٤٩).

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠).

(٧) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣٢).

(٨) الشيرازي: طبقات الفقهاء (ص٦٢).

الفقهي، وتدل علي سعة علمه، ودقة استنباطه. كما أنها غطَّتْ جوانبَ كثيرةً من الأحكام؛ في أبواب الإيمان، والتوحيد، والطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والصدقات، والحج، والنِّكاح، والطلاق، والخُلْع، واللِّعان (بين الزوجين)، والبيوع، والمواريث، والأطعمة، والأشربة، والزينة، والذبائح، والإيجارات، والعقود، والقَرض، والرّهان، والكفالة، والعتق، والحدود، والجهاد، وغير ذلك مما يطول استقصاؤه. إضافةً إلي بعض آرائه وأقواله في تفسير القرآن الكريم، وأسباب النزول، والقراءات[1].

وقد وردت الإشارة إلي أن ابن الحنفية كان دقيقًا في فهمه للأحكام الفقهية، شديد التحرِّي والاتباع لآثار رسول الله ﷺ، ففي فترة النزاع بين الأمويين والزبيريين - وهي الفترة التي اعتزل فيها ابن الحنفية، ولم يبايع لأي من الطرفين؛ عبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان - اجتمعت أربعة ألوية في عرفات لأداء مناسك الحج (سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م) ؛ أحدها لبني أمية. والثاني لا بن الزبير. والثالث لنَجْدة الحروريّ زعيم الخوارج. واللواء الرابع لابن الحنفية، ومعه أربعة آلاف من أصحابه. فلما أرادوا الإفاضة من عرفات إلي المزدلفة مع غروب الشمس تعجَّل الجميع، إلا ابن الزبير تأخَّر حتى دخلت الظلمة، وأنكر علي ابن الحنفية تعجُّلَه، فلما علم ابن الحنفية بكلامه قال –

---

(١) أكثر آرائه وأقواله الفقهية وردت عند عبد الرزَّاق الصنعاني: المصنف (١/ ٤٨٥، ٢/ ٣٦، ٧٢، ٤/ ٥٢٦، ٥/ ٨٢، ٧/ ١٤، ٢١٣، ٨/ ١٣، ٢٠، ١٧٩)، البيهقي: السنن الكبرى (٢/ ٢٠٩، ٢١٠، ٢٥٣، ٤/ ٣٣، ٣٨، ١٣٢، ٦/ ٣٦٥، ٩/ ٢٨٤، ٣٠٩)، أحمد بن حنبل: المسند (١/ ٨٠، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٩، ٤/ ٩٧، ٩٩، ٢٦٣)، البخاري: الأدب المفرد (١/ ٢٠١، ٢٩٣، ٤٤٥، ٥٧٣، ٢/ ٣٤٠)، الطبراني: المعجم الكبير(١/ ١٠٩، ١٠/ ٢١٧، ١٩/ ٣٢٣)، المعجم الأوسط (١/ ١١٢، ٢/ ١١، ١٧٢، ٣٠٧، ٣/ ٣٧٧، ٤/ ٤٨، ٥١٠، ٥/ ٣٤٥)، ابن عبد البر: التمهيد (٦/ ٤٣٦، ٩/ ١٦٣، ١٠/ ٩٠، ١٥/ ١٧٢، ١٧/ ١١٢، ٢٠/ ٤٧، ٢١/ ٨٤)، الاستذكار (١/ ٢٤٢، ٤١٩، ٢/ ٤٥٨، ٣/ ٢٣١، ٤/ ٣١، ٥ / ٨١، ٣٦٨، ٦/ ٣٦، ٣٨، ٤١٩، ٧/ ١٣٤، ٨/ ٤٤٠، ٤٧٤، ٦٠٨)، العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٦٣، ٦/ ١٧٣، ٧/ ٢٦٩، ٩/ ١٦٣، ١٢/ ٣٩٠، ١٦/ ١٢٢، ٣٧٢، ٢١/ ٤١٩، ٣٣/ ٢٣، ٣٤/ ١٦٤)، وغير ذلك من المواضع في كتب الفقه والحديث وشروحه، وكتب التاريخ.

مبيناً سُنَّة رسول الله ﷺ في مثل ذلك - : « دفعتُ من عرفة حين وَجَبت الشمسُ، وتلك السُّنَّة، فبلغني أنَّ ابن الزبير يقول: عجَّلَ محمدٌ، عجَّل محمدٌ، فعن مَن أخذ ابنُ الزبير الإغْسَاق؟! »[1].

ولابن الحنفية مَرْويات قليلة لأحداث السيرة النبوية، لا تزيد علي نَقْله بعض الأوصاف الخَلْقية للنبي ﷺ، وهيئته، وعدد الأثواب التي كُفِّن فيها - عليه السلام - عند دَفْنه، وجانب من محاولات المشركين في تشويه دعوة الرسول ﷺ. ورأيه في أوَّليَّة إسلام أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وإخباره بحضور الصحابي أبي عَمْرة الأنصاري بيعة العقبة، وغزوتي «بدْر» و «أُحُد ». إضافة إلي روايته عن استشارة النبي ﷺ لأبي بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما في غزو مكة، وبيان موقف كل منهما [2].

تلامذته:

وقد تتلمذ على يد ابن الحنَفية جَمْعٌ كبير من طلبة العلم، ونبغ بعضهم حتى صاروا من أئمة الحديث ورواته. وأبرز من تتلمذوا عليه: أولاده الخمس: الحسن وعبد الله (أبو هاشم) – وقد عرَّفنا بهما من قبل- وإبراهيم، وعمر، وعَوْن[3]. وقد ذكر أبو نعيم في (حلية الأولياء) « أن عامَّة حديثه عند أولاده » [4].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٥). والإغساق: من " غسق الليل" غسْقاً و غُسُوقاً وإغساقاً: أظلم. والغاسق: الليل إدا غاب الشفق واشتدت ظلمته. والغسَق: ظلمة الليل (المعجم الوسيط : غسق).

(٢) أحمد بن حنبل: المسند (١/ ٩٤، ١٠٢)، البخاري: الأدب المفرد (١/ ٤٤٥) رقم (١٣١٥)، ابن أبي شيبة: المصنَّف (٢/ ٤٦٥، ٧/ ٣٣٧، ٤١٠) أرقام (٣٦٥٦٧، ٣٦٩٥١، ١١٠٨٤)، الطبراني: المعجم الكبير (٢٢/ ٣٨١) رقم (٩٥١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣/ ٢٤٧- ٢٤٨)، (٣٠/ ٤٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٢/ ٣٥).

(٣) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٧/ ٣٠٣)، المزي: تهذيب الكمال (٢/ ١٨٣)، (٦/ ٣١٦)، (١٦/ ٨٥)، (٢١/ ٥٠٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٤/ ٣٨٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١).

(٤) أبو نعيم: حلية الأولياء (٣ / ١٧٧).

وروى عنه من الطالبيين وسادات بني هاشم: محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (ت١٤٠هـ/ ٧٥٧م). وأبو جعفر (الباقر) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت١١٥هـ/ ٧٣٣م). وعبد الله بن المسْور بن عون بن جعفر بن أبي طالب. وعبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب (توفي قبل سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٧م)، وهو ابن أخته زينب (الصغري) بنت عليِّ بن أبي طالب [١]. وهذان الأخيران كانا يرافقان ابنَ الحنفية في طلب العلم علي يد الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاريﷺ [٢] .

وأكثر مَن تلقَّي العلم عن ابن الحنفية ولازَمَه هو مُنذر بن يَعْلى، أبو يَعْلى الثَّوْري، الكوفي. ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من علماء الكوفة، وهو من رواة الحديث الثقات[٣]. قال عن نفسه: « لزمْتُ محمد ابن الحنفية حتى قال بعض ولده: لقد غَلَبنا هذا النَّبَطيُّ على أبينا »[٤]. وصحبه في وفوده على الخليفة يزيد بن معاوية بدمشق[٥].

ويذكر ابن عساكر أن الذين رووا عن ابن الحنفية أقوالَه وآراءَه الفقهية في الذبائح والكفالة والنكاح هم ابناه (الحسن، وعبد الله)، ومُنذر بن يَعْلى الثوري، وأبو محمد عمرو بن دينار الجمحي[٦] (ت١٢٦هـ/ ٧٤٣م)، وهو أحد الأعلام الثقات، وشيخ الحرم المكي في زمانه، وكان من أوعية العلم، وأئمة الاجتهاد في الفقه[٧].

---

(١) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٧ / ٣٠٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٨، ٣٢٤).

(٢) ابن عساكر: المصدر السابق (٣٢ / ٢٥٩).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبري (٨/ ٤٢٧)، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل (٧/ ٣٠٣)، البيهقي: السنن الكبرى (٩/ ٣٠٩)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ١٦٨، ٤٧١)، المزي: تهذيب الكمال (٣٤/ ٤١٥)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٨، ٣٢٤، ٣٢٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١١)، ابن حجر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٠٤).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٦٠/ ٣٠٣).

(٥) ابن عساكر: المصدر السابق (٦٠/ ٢٩٩).

(٦) ابن عساكر: المصدر نفسه (٥٤/ ٣٢٦).

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٠٠- ٣٠١).

وممن تلقَّوا العلمَ عن ابن الحنفية، وأصبح لهم شأنٌ كبير، ونالوا الإمامة في الدين: الإمام الحافظ عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥هـ/ ٧٣٣م)[١]، كان ثقة فقيهًا، عالمًا، كثير الرواية للحديث[٢]. ومنهم: سالم بن أبي الجعد الأشجعي الغطفاني الفقيه (ت١٠٠هـ / ٧١٨م)، كان ثقة في الحديث، وهو الذي كنَّى ابنَ الحنفية بأبي عبد الله[٣]. ومحمد بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي[٤]. وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي الكوفي[٥]، كان يكثر من الرواية عن محمد ابن الحنفية، عن عليِّ بن أبي طالب[٦]،ودوَّنَ أحاديثه في كتاب[٧]، لكنَّ رواياته عنه ضعيفة عند علماء الحديث، كما كما يقول البيهقي[٨].

وكان لابن الحنفية مُؤذِّن يَرْوي عنه، واسمه محمد بن نَشَر الهَمْداني[٩]، اصطحبه معه في وفادته علي الخليفة عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير[١٠]. وله رواية عنه، عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: « لَأَن أجمعَ نفرًا من إخواني على صاع أو صاعين من طعام أحبَّ إليَّ من أن أخرج إلى سوقكم فأعتق رقبة »[١١].

---

(١) السيوطي: إسعاف المبطأ برجال الموطأ (١/ ٩٥).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٨/ ٢٨-٣١). الذهبي: سير أعلام النبلاء (٦/ ١١٠-١١٤).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٨/ ٤٠٨)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٥/ ١٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٠٥)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٨).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١١).

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق(٥٤/ ٣١٨، ٣٢٤)، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل(٧/ ٣٠٣)، البيهقي: السنة الكبرى (٦/ ٤٣)، (٧/ ٣٦٥).

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٨/ ٤٥٣).

(٧) المزي: تهذيب الكمال (٢٦/ ٥٥٢).

(٨) البيهقي: السنن الكبري (٧/ ٢٦٥).

(٩) الذهبي: تاريخ الإسلام (٨/ ١٦١) [ط: دار الكتاب العربي، بيروت].

(١٠) المقريزي: المقفَّي الكبير (٦/ ٢٩٤).

(١١) البخاري: الأدب المفرد (٢/ ٣٤٠).

فضائله وملامح شخصيته:

١- كان محمد ابن الحنفية من مشاهير الأعلام، ومن كبار طبقة التابعين. وكان يتمتع بفضائل وشمائل كثيرة. فإضافةً إلي علمه الواسع، وفقهه الدقيق، وغزارة معرفته، وكثرة روايته للأحاديث النبوية، لاسيما تلك التي يرويها عن أبيه علي بن أبي طالب ﷺ – كان كما وصفه العلماء « وَرعاً صالحاً »[١] و « من أفاضل أهل بيته»[٢]. ونَعتَه الذهبي بـ «السَّيِّد الإمام»[٣]. وشهدَ له بالفضل وعُلُوِّ المنزلة الصحابيان عبد الله ابن عمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان، فقال ابن عمر – في كلمة وجَّهها إلي الحجَّاج بن يوسف الثقفي –: « ما تريد من رجل ما نعلم في زماننا مثلَه؟ »[٤]. وقال معاوية: « ما في قريش كلها أرجح حلماً، ولا أفضل علماً، ولا أسكن طائراً، ولا أبعدَ من كل كبْر وطَيْش من محمد بن علي بن أبي طالب» [٥]. وقال عنه أيمن بن عُبيد اَلحبشي المكَيِّ (وهوً من التابعين الثقات) : « ذاك خيرُ الناس»[٥أ].

٢- وقد رويت عنه كلمات رائقة، وعبارات جامعة، في الآداب والمواعظ والرقائق، تدل علي ورعه، وزهده، وصدقه، وإخلاصه، وحكمته، وبصيرته، وعزوفه عن الدنيا، وإقباله علي الآخرة، وعلمه بمداواة النفوس. وتؤكد كذلك علي ما كان يتميز به من فصاحة اللسان، وقوة البيان. ومن أشهر أقواله قولُه – في حسن العشرة والجوار، ومداراة الناس على اختلاف مشاربهم –: « ليس بحكيم مَن لا يعاشر مَن لا يجدَ من معاشرته بدا، حتى يجعلَ الله له من أمره فرجًا ومخرجًا»[٦].

---

(١) المزِّي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٤٩).

(٢) ابن حبان: الثقات (٥/ ٣٤٧).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠)

(٤) البلاذري : أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٩)

(٥) البلاذري : المصدر السابق (٣/ ٤٨٣)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٧٩).

(٥أ) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣٢).

(٦) البخاري: الأدب المفرد (١/ ٣٠٦)، ابن أبي شيبة: المصنف (٧/ ٢٤٣)، البيهقي: شعب الإيمان (٦/ ٢٦٧)، رقم (٨١٠٥)، البلاذري: أنساب الأشراف (٢/ ٤٦٣)، أبو نعيم: حلية الأولياء (٣/ ٤٢٨)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٦)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٧٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧).

ومن نصائحه البليغة في الحثِّ على بَذْل المعروف، والسعي في قضاء الحوائج: « أيها الناس، اعلموا أن حوائج الناس إليكم نعَمٌ من الله عليكم، فلا تَمَلُّوها، فتحول نقَمًا. واعلموا أن أفضلَ المال ما أفاد ذُخْرًا، وأورثَ ذكرًا، وأوجبَ أجرًا. ولو رأيتم المعروف رجلًا لرأيتموه حسنًا جميلًا يسُرُّ الناظرين، ويفوق العالمين» [1].

وله كلمات وعبارات دقيقة جامعة، هي كالقواعد في معانيها ومدلولاتها؛ فمنها - في فضل الإخلاص، والتحذير من الرياء-:« كلُّ ما لا يُبتَغَى به وجْهُ الله تعالى يَضْمَحِلُّ» [2]. ومنها - في التحذير من اتباع الأهواء -: « شرُّ عادات المرْء اتباعُه لهواه». وفي الحثِّ علي التزام الرفق في التعامل مع الخلق يقول: « من لم يَستعن بالرفق في أمره أضرَّ الخلْقَ بعمله». وقال - في مداومة العبد علي الخوف من الله ليأمن من عقابه في الآخرة- : « إنما يأمن في غده مَن خاف الله في يومه» [3].ومن نفائس كلماته الجامعة: « الكمال في ثلاثة: الفقه في الدين، والصبر على النوائب، وحسن تقدير المعيشة»[4]

ومما يُحْكي عن ابن الحنفية - ويدل علي بَصَره بالنفوس وأدْوَائها - أن رجلاً سأله فقال: « أجدُ عنا لا أعرف له سببًا، وقد ضاق قلبي». فقال له ابن الحنفية: « غمٌّ لم تَعرفْ له سببًا عقوبةُ ذنب لم تفعله». فقال الرجل: فما معنى ذلك؟ فقال: « المعنى في ذلك أن القلب يَهمُّ بالمعصية، فلا تساعده الجوارح، فيُعاقَبُ بالغَمِّ دون الجوارح» [5].

ومن العبارات الدقيقة المأثورة عن ابن الحنفية، التي يرفع فيها قيمة العدل، ويحطُّ من الظلم، ويجعل ذلك معياراً للحب في الله، والبغض في الله، قوله: « مَن أحبَّ رجلاً لله، لعَدْلٍ ظهر منه - وهو في علم الله من أهل النار - آجَرَه الله على حبه إياه، كما لو

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣٦).

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧١).

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف (٢/ ٤٦٤)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٦/ ٢٩٧).

(٤) البلاذري: المصدر السابق (٢/ ٤٦٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣٦)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٩٥).

(٥) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤ / ٣٣٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧).

كان أحبَّ رجلاً من أهل الجنة. ومَن أبغضَ رجلاً لله لجَوْر ظهر منه – وهو في علم الله من أهل الجنة – آجَرَه الله على بغضه إياه، كما لو كان أبغضَ رجلاً من أهل النار »[1].

وكان يري أن الرجل لا يكون عظيمَ القَدْر، كريمَ الأصل، عزيزَ النَّفْس، جريئاً في الحق، قوياً في مواقفه، إلا إذا جعل الدنيا خَلْفَ ظهره، ودَبْرَ أُذُنه. وكان لابن الحنفية من هذه الصفات القدْح المُعَلَّي والحظ الوفير، فقد سُئل: مَنْ أعظم الناس قَدْرًا؟ فأجاب: « مَن لم يرَ الدَنيا كلَّها لنفسه خطرًا »[2]. وقال أيضاً: « مَن كَرُمتْ عليه نفسُه صَغُرت الدنيا في عينه»[3].

٣- كان ابن الحنفية قويَّ الشخصية، صلباً في مواقفه، متمسكاً برؤيته في الأحداث التي عاصرها، ولم يستطع أحدٌ التأثير عليه، أوالتغيير من رأيه، أو إجبارَه علي ما لا يريده. وسوف يتضح ذلك جليّاً في بيان كيفية تعامله وحواره مع قادة الثورة التي قام بها أهل المدينة (سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م) لخلع يزيد بن معاوية من الخلافة، حيث حاولوا إقناعَه بكل سبيل لينالوا تأييده، ثم أرادوا تحييده فلم يستطيعوا، لقوة حُجَّته، وصلابة موقفه. ويظهر ذلك أيضاً في موقفه من النزاع الذي قام بين عبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، للانفراد بالخلافة، فقد حاول كلُّ طرف أن يُغيِّر من موقف ابن الحنفية، وأن يفوز ببيعته، فلم يَقْدر علي ذلك، وتمسَّك ابن الحنفية باعتزال الفريقين، بل وكان يُحذِّر الناس من الاشتراك في القتال.

ومن المواقف التي تناقلتها المصادر عن ابن الحنفية، والدالة علي قوة شخصيته، وحَسْمه للأمور، وحكمته في معالجتها: ما نقله ابن سعد من رواية الواقدي – بإسناده – إلى الحسن بن محمد ابن الحنفية قال: « لم يُبايع أبي الحجَّاجَ. فلمَّا قُتل ابن الزبير بعث

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٩)، البيهقى: شُعب الإيمان (٧/ ٧١) رقم (٩٥٢١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٦).

(٢) ابن عساكر: المصدر السابق، والجزء والصفحة.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٢/ ٤٦٣)، ابن قتيبة: عيون الأخبار (٢/ ٣٣٠)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧).

الحجَّاجُ إليه، وقال له: قد قُتل عدوُّ الله. فقال: إذا بايع الناسُ بايعتُه (أي عبدَ الملك بن مروان) [1]. فقال الحجَّاجُ: والله لأقتلنَّك. قال: أوَ لا تدري أنَّ لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، في كل لحظة ثلاثمائة وستون قضية، فلعله أن يكفيناك في قضية من قضاياه، وأنا أرجو أن ينظر الله إليَّ نظرةً يمنعني الله بها منك ». فكتب الحجَّاجُ بذلك إلى عبد الملك بن مروان، فأعجبه [2].

ولم يستطع الحجَّاج الثقفي – رغم شدَّته وصَرامته وجبروته المعروف عنه في مواجهة خصوم الدولة – لم يستطع أن يُثني ابنَ الحنفية عن موقفه من البيعة لعبد الملك، ولم يَقْدر علي تليين عريكته، ففي رواية أخري لابن سعد وابن عساكر أن ابن الحنفية بعد أن بايع عبد الملك بالخلافة وَفَدَ عليه (سنة ٧٨هـ/ ٧٠٥م)، وفي صحبته أبان بن عثمان بن عفان، وكان الحجّاج الثقفي حاضراً، فلما أراد ابن الحنفية الانصرافَ طلب من الخليفة أن يكفَّ عنه أذى الحجَّاج، فقال عبد الملك لأميره: « لا إمْرَةَ لك عليه »، ثم قال له – بعد انصراف ابن الحنفية – :« أدركْه فسُلَّ سَخيمَتَه[3] ». فلمَّا أدركه اعتذر له، فوجَّه إليه ابن الحنفية كلامه – قائلاً له فَي صرامة وقوة –:« وَيْحَك يا حجَّاج، اتق الله، واحذر الله. ما من صباح يُصْبحُه العبادُ إلا لله في كل عبد من عباده ثلاثمائة وستون لحظة، إنْ أخذ أخذَ بقدرة، وإن عفا عفا بحلْم، فاحذر الله»[4].

٤- كان ابن الحنفية يعتزل الفتن، ويُحذِّر من الخوَض فيها، ومن المشاركة في القتال مع أطرافها، ويدعو إلي كَفِّ اليد عن سفك الدماء، « وكان لا يحب أن يُورِّطَ

---

(١) في المبحث الثاني من الدراسة سيأتي الحديث عن موقف ابن الحنفية من البيعة لعبد الملك بن مروان في صراعه مع عبد الله ب الزبير للانفراد بالخلافة- راجعه بدءًا من (ص١٠٥).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١١١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣٢، ٣٥٢)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٧-١٢٨).

(٣) السَّخيمةُ: الحِقْدُ والضَّغِينةُ، والمَوْجِدةُ في النفس. وفي الحديث: " اللهمَّ اسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبي " (لسان العرب : سخم) .

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١١٣-١١٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٩/ ٤٤٩-٤٥٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٥)، وعن تاريخ وفادة ابن الحنفية علي عبد الملك (ابن سعد: الطبقات ٧ / ١١٢- ١١٣).

نفسه في الصراع والنزاع السياسي. وانطلاقاً من هذه الرؤية كان يتصرف في جميع المواقف بحذر شديد »[1]. وقد ذكره الإمام الزُّهْري بهذه الصفة في تعداده لفضائله، فقال: « كان محمد ابن الحنفية من أعقل الناس وأشجعهم، معتزلاً عن الفتن، وما كان فيه الناس »[2]. ومن أقوال ابن الحنفية التي تلخِّص هذا المبدأ:« رحمَ الله امرءًا كفَّ يدَه، وأمسك لسانَه، وأغني نفسَه، وجلس في بيته، له ما احتسب، وهو يوم القيامة مع من أحبَّ »[3]. وقال: « ما أُحبُّ أنَّ لي سلطانَ الدنيا بقتل مؤمن بغير حق »[4] وكان يقول لأصحابه في محنته مع عبَد الله بن الزبير: « آمركم بتقوى الله وأن تحقنوا دماءكم، وإني معتزلٌ لهذه الفتنة حتى تجتمعَ الأمة؛ إذ اختلفتْ وتفرَّقتْ»[5]. وقال لهم أيضاً: «الحقوا برحالكم، واتقوا الله، وعليكم بماَ تَعْرفون، ودَعُوا ما تُنكرون، وعليكم بخاصَّة أنفسكم، ودَعُوا أَمْرَ العامَّة »[6].

وقد رُوَيت عنه أقوال يُبيِّنُ فيها خطورة التعرض للفتن والانخراط في أحداثها، ومنها قوله:« اتقوا هذه الفتنَ، فإنه لا يَسْتشرفُ إليها أحدٌ إلا استبقته. ألا إنَّ هؤلاء القومَ لهم أجلٌ ومدة، لو أجمع مَن في الأرض أن يُزيلوا ملكَهم لم يَقْدروا على ذلك حتى يكون الله هو الذي يأذن فيه. أتستطيعون أن تُزيلوا هذه الجبال؟»[7]. ويَنقلُ عنه تلميذه تلميذه منذر الثوري قوله: « الفتنةُ مَن قابَلَها أُجْتيحَ »[8]، أي يتعرَّض للهلَكَة والخُسْران.

---

(١) راجع (**Muhammad ibn al - hanafiyah**):

The New Encyclopedia Britannica, Chief editors Philip W. Goetz etc., ٣٢ volumes, (١٥th Edition, Chicago, ١٩٨٥) Volume ٨, p. ٣٩٩

(٢) حسن الأمين: أعيان الشيعة (٩/ ٤٣٦).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف (٧/ ٤٥٤)، رقم (٣٧١٧١).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠٠)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٢).

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٧)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨٧) .

(٦) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤ / ٣٤٤).

(٧) ابن أبي شيبة: المصدر السابق (٦/ ٢٠٢)، رقم (٣٠٦٦٨)، (٧/ ٤٧٢)، رقم (٣٧٣٢٤).

(٨) ابن أبي شيبة: المصدر نفسه (٧/ ٤٧٧)، رقم (٣٧٣٦٣).

و يُؤكِّد ابن الحنفية – في كلمة بليغة الدلالة – علي أنه لا ينبغي للإنسان أن يُغرِّرَ بنفسه فيما يُودي بها إلي الهلاك، أو يُلْقي بها في آتُون الفتن، لأن النفس غالية، وثمنُها الجنة إذا بُذلتْ في سبيل الله. و هذا هو المراد من قوله: « إنَّ الله جعل الجنةَ ثمناً لأنفسكم، فلا تبيعوها بغيرها »[1].

وهذه الرؤية التي يتبناها ابن الحنفية في نظرته إلي الفتن انعكست علي موقفه من الأحداث التي عاصرها، فلم ينخرط في أي منها، فقد وافق علي تنازل أخيه الحسن عن الخلافة لمعاوية، جمعاً للكلمة، ورأباً للصَّدْع، وتحقيقاً للمصلحة العامة. ولم يوافق أخاه الحسين علي خروجه مع أهل الكوفة لخلع يزيد بن معاوية. وامتنع من تأييد أهل المدينة في ثورتهم علي يزيد. واعتزل القتال الذي قام بين الأمويين والزبيريين، واعتبره قتال فتنة. وتبرأ من المختار بن أبي عبيد الثقفي في ادِّعائه أنه مبعوثٌ باسم ابن الحنفية للدعوة إليه بالإمامة. وسوف تتضح هذه المواقف جَليّاً عند عرضها في المبحث الثاني من الدراسة.

٥- كان ابن الحنفية يزنُ الأحداثَ بالنظر إلي عواقبها، وما تؤول إليه من نتائج، وما يتولد عنها من مصالح أو مفاسد. ولعله عبَّر عن هذا التوجُّه في كلمته التي نقلها عنه ابن قتيبة في (عيون الأخبار) فقال-:« قد يُدْفَعُ باحتمال مكروه ما هو أعظمُ منه»[2]. وهذه – كما يظهر لنا – جَرْياً علي قاعدة « دَرْء أكبر المفسَدتين بتحَمُّل أدناهما»، أو « تحصيل أكبر المصلحتين بتفويت أصغرهما». ولعلَّنا ندرك هذا المفهومَ الدقيق عند ابن الحنفية في موقفه من البيعة ليزيد بن معاوية بموافقته عليها، وإنكاره علي أهل المدينة ثورتهم ضدَّ الخليفة؛ إذْ إنَّ خروجهم بالثورة لعزله تولَّد عنه من الشر والمفاسد أعظمُ مما أرادوا تحقيقه من المصالح. وسنُبين موقفه هذا بمزيد من الإيضاح في موضع لاحق من الدراسة[3].

---

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٦).

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار (٣ / ٢٣).

(٣) اقرأ (ص ٨٤- ٩٢) من المبحث الثاني .

٦- ومن فضائل ابن الحنفية أنه كان باراً بأُمِّه « خَوْلة بنت جعفر»، ويقوم علي رعايتها وراحتها، وقضاء حوائجها. وقد رآه صالح بن ميسم وفي يده أثر الحنَّاء، فسأله عن ذلك، فقال: « كنت أُخضِّبُ أمي»[١]. وقال تلميذه أبو يعْلَى منذر الثوري: « كان ابن الحنفية يذوِّب أمَّه (أي: يجعل من شعر رأسها ذؤابة)، ويُمشِّطُها»[٢]، وفي رواية: « كان يُمشِّط أمَّه ويُروِّحُها»[٣]. ويقول بشر الحافي: « كان ابن الحنفيةُ يغلِّفُ رأس أمِّه، ويُمشِّطها، وينوِّمُها»[٤].

ومن الفضائل التي تُرْوَي عن ابن الحنفية أن سيف النبي ﷺ المسمي « ذو الفقار » انتقل إليه، وكان النبي ﷺ قد وَهَبه قبل موته لعلي بن أبي طالب ﷺ، ثم انتقل إلي محمد ابن الحنفية، ثم إلي محمد (النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[٥]. ويروي ابن سعد أن ابن الحنفية - لما وفد علي عبد الملك بن مروان بعد أن بايعه بالخلافة عقبَ مقتل ابن الزبير – وهب له سيفَ النبي ﷺ[٦]. وكان للنبي ﷺ بغلة شهباء بيضاء، وهي التي أهداها إليه المقوقس حاكم مصر، فلما توفي ركبها من بعده علي بن أبي طالب، ثم أولاده الحسن والحسين، ومحمد ابن الحنفية[٧]، حيث بقيت بقيت إلي زمن معاوية بن أبي سفيان (٤١- ٦٠هـ)[٨].

هذا، ولا يُعرف عن ابن الحنفية - في حدود ما اطلعنا عليه من مصادر – أنه اشترك في عمليات الفتوحات الإسلامية مثل بعض أبناء الصحابة، كعبد الله بن عمر،

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١١٥).

(٢) ابن سعد: المصدر السابق، والجزء والصفحة.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٤).

(٤) ابن عساكر: السابق، والجزء والصفحة.

(٥) العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١/ ٥٠).

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١١٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٩/ ٤٤٩-٤٥٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٥).

(٧) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٣٦٥).

(٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٤/ ٢٣١).

وعبد الله بن الزبير، وغيرهما[1]. وقد يكون السبب في ذلك أن حركة الفتوحات توقَّفتْ منذ أن قُتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ (سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م)، وانشغل ابن الحنفية بالقتال بجوار أبيه عليّ بن أبي طالب في حروب « الجمل » و « صفِّين » و « النَّهروان ». لكنْ – وحينما عادت عجلة الفتوحات تدور، وامتدت شرقاً وغرباً مع بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان، والخلفاء الأمويين من بعده – لم نعثر على ما يفيد أنَّ ابن الحنفية خرج مع الجيوش الأموية الفاتحة، غرباً في بلاد المغرب والأندلس، أو شرقاً في بلاد ما وراء النهر (وسط آسيا)، وإقليم خُراسان وسِجِسْتان، أو في أي منطقة أخرى.

تاريخ وفاة ابن الحنفية وموضع دفنه:

اختلفت الروايات التاريخية وأقوال المؤرخين في تحديد تاريخ وفاة محمد بن الحنفية، وفي تحديد موضع وفاته ودفنه، رحمه الله. ومن الملاحظ أن أكثر هذه المرويات والأقوال تؤكد على تاريخين متقاربين:

الأول: أن ابن الحنفية توفي في شهر المحرم سنة ثمانين للهجرة. وهذا التاريخ قال به أبو نعيم الأصفهاني[2] والواقدي (في إحدي الروايتين عنه)[3]، والمدائنى[4] ، وهو اختيار الإمام أحمد بن حنبل، وابن أبي شيبة [5]. وأرَّخ ابن الأثير وفاته في حوادث هذه السنة[6].

---

(١) على سبيل المثال: حضر عبد الله بن الزبير معركة "اليرموك" سنة (١٣هـ)، وكان حينئذ في سن العاشرة ، واشترك – هو وعبد الله بن عمر – في "فتح شمالي إفريقيا" مع جيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة "عثمان بن عفان" ﷺ (سنة ٢٧هـ) راجع المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٣٥٢، ٦٣٢).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٥٦ ،٣٥٧)، سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٨).

(٣) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤ / ٣٢٦).

(٤) ابن عساكر: السابق (٥٤ / ٣٥٧).

(٥) ابن عساكر: نفسه (٥٤ / ٣٢٦، ٣٥٧)، ابن أبي شيبة: المصنَّف (٧/ ١٩).

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤ / ١٩٢).

الثاني: أنه توفي في شهر المحرم، أو ربيع الأول سنة إحدى وثمانين من الهجرة. وهو قول الواقدي (في رواية أخرى عنه)[1]، وأبي حفص الفلَّاس، وأبي عُبيد القاسم بن سلَّام الجُمَحي[2]، ويحى بنُ بكير[3]. وهذا القول ذكره ابن سعد في (الطبقات الكبرى)[4]، والمسعودي في (مروج الذهب)[5]، و البلاذري في (أنساب الأشراف)[6]، [6]، والذهبي في (تاريخ الإسلام)[7].

وهذا التاريخ أكَّده أحد أولاد محمد ابن الحنفية، وهو أبو هاشم « عبد الله »، فقد روى الواقدي عن زيد بن السائب قال: سألت أبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية : أين دُفن أبوك؟ فقال: « بالبقيع». قلت : أي سنة ؟ قال: « سنة إحدي وثمانين، في أولها، وهو يومئذ ابنُ خمس وستين، لا يستكملها»[8]. وفي رواية أخري للواقدي عن زيد بن السائب قَال : سمعت أبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية يقول – وأشار إلي ناحية من البقيع – « هذا قبر أبي القاسم – يعني أباه – مات في المحرم سنة إحدي وثمانين، وهي سنة الجُحاف، سيْلٌ أصاب مكة، جَحَف الحاجَّ ». وتذكر الرواية في آخرها أن الذي صلَّي عليه صلاة الجنازة هو أبَان بن عثمان بن عفان، وكان يومئذٍ أميراً علي المدينة في خلافة عبد الملك بن مروان[9].

ويروي ابن سعد، والطبري وابن عساكر – من طريق الواقدي – عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب قال : سمعت محمد ابن الحنفية يقول سنةَ الجُحاف حين

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٢٦، ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) ابن عساكر : السابق (٥٤ / ٣٥٩)، الذهبي : تاريخ الإسلام (٣ / ٧٤)، سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٨).

(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٢٦).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١١٦).

(٥) المسعودي: مروج الذهب (٣/ ١٣٩).

(٦) البلاذري : أنساب الأشراف (٣ / ٤٨٧).

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام (٣ / ٥ - في حوادث سنة ٨١ هـ).

(٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٥٨)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣ / ٧٤)، سير أعلام النبلاء ٤ / ١٢٨).

(٩) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٥٨،٣٥٩).

دخلت سنة إحدى وثمانين: « هذه لي خمسٌ وستون سنة، قد جاوزتُ سنَّ أبي ». قلت : وكم كانت سنُّه يوم قُتل؟ قال: « قُتل وهو ابن ثلاثٍ وستين ». قال: « ومات أبو القاسم (ابن الحنفية) في تلك السنة »[1].

وتشير هذه الرواية والتي قبلها إلي أن سيل الجُحاف وقع (سنة إحدى وثمانين). لكنَّ المؤرخين – الطبري، وتبعه ابن الأثير والذهبي، وابن كثير – أرَّخوا لهذا السيل في حوادث سنة ثمانين[2]. ويمكن الجمع بين هذا وذاك بأن السيل وقع في أيام الحجّ، من شهر ذي الحجة، سنة ثمانين للهجرة، واستمرت آثاره إلي شهر المحرم من السنة التي تليها، وهو التاريخ الذي توفي فيه محمد ابن الحنفية حسب روايتي زيد بن السائب (عن أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية)، ورواية عبد الله بن محمد عقيل بن أبي طالب، وكلاهما من طريق الواقدي.

وبالإضافة إلي هذين التاريخين في تحديد وفاة ابن الحنفية فقد روى ابن عساكر عن المدائني تاريخاً ثالثاً، وهو أنه توفي سنة ثلاث ثمانين (٨٣هـ/ ٧٠٢م) [3]. وهذا التاريخ التاريخ ذكره الذهبي أيضاً في (سير أعلام النبلاء)، وقال عنه: « انفرد به المدائني »[4]. كما عقب عليه في كتابه (تاريخ الإسلام) فقال: « وهذا غلط ». ثم نقل قول علي بن

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١١٦)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٥٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق(٤٢ / ٥٧١)، (٥٤ / ٣٥٨)، البلاذري: أنساب الأشراف(١/ ٤٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٨).

(٢) يقول الطبري (تاريخ الرسل والملوك ٦ / ٣٢٥) في (حوادث سنة ٨٠هـ) : « وفي هذه السنة – فيما حُدِّثت عن ابن سعد، عن محمد بن عمر الواقدي – جاء سيلٌ بمكة ذهب بالحُجَّاج، فغرقت بيوت مكة، فسُمِّي ذلك العام عام الجُحاف، لأن ذلك السيل جحف كل شئ مرَّ به ». ثم روي عن الواقدي قال: حدثني محمد بن رفاعة بن ثعلبة عن أبيه، عن جده قال : « ... ولقد رأيت الإبل عليها الحمولة والرجال والنساء تمرُّ بهم، ما لأحد فيهم حيلة، وإني لأنظر إلي السماء قد بلغ الماء الركن وجاوزه ». وقد نقل ابن الأثير هذه الحادثة عن الطبري (الكامل في التاريخ ٤/ ١٩٢)، ثم ذكر أن ابن الحنفية مات في هذه السنة.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٥٩).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٩).

المديني في تحديد تاريخ آخر لوفاة ابن الحنفية، وهو سنة « اثنتين وتسعين، أو ثلاث وتسعين ». وهذا التاريخ استبعده الذهبي وقال عنه: « وهذا أفحش مما قبله »[1].

وأوردت المصادر تواريخ أخرى لوفاة ابن الحنفية، ففي رواية لابن سعد أن عبد الله بن الزبير منع ابن الحنفية ومن معه من دخول مكة لأداء نُسُك الحج، بسبب امتناعه من مبايعته، فرجع ابن الحنفية إلي المدينة النبوية، وظل مقيماً بها إلي أن قُتل ابن الزبير مُحاصراً في مكة بجيوش الحجَّاج بن يوسف الثقفي، فلما انتهي الحصار وعاد الحجَّاج الثقفي إلي العراق انتقل ابن الحنفية إلي مكة لأداء مناسك الحج، ثم عاد مرة أخرى إلي المدينة، ومات بها بعد ثلاثة أشهر[2]. وفي ذلك إشارة إلي أن ابن الحنفية توفي في السنة التي قتل فيها ابن الزبير، وهي (سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م).

ونقل ابن عساكر – من طريق ابن سعد – عن الهيثم بن عدي أن محمد ابن الحنفية توفي سنة اثنتين وسبعين، أو ثلاث وسبعين[3](٧٢/ ٧٣ = ٦٩١/ ٦٩٢م). وهذا التاريخ الأخير اختاره ابن حجر العسقلاني ورجَّحه في (فتح الباري)، وقال : « مات سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، وذلك عقب قتل ابن الزبير علي الصحيح. وقيل : عاش إلي سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م، أو بعد ذلك »[4].

هذه هي الأقوال والمرويات التي أوردتها المصادر في تحديد تاريخ وفاة ابن الحنفية. وقد ذكرها بعض المؤرخين - كابن خلكان في (وفيات الأعيان)[5] وابن عساكر في (تاريخ دمشق)[6] - جملةً واحدةً دون ترجيح. وعند إدارة النظر في جميع هذه الأقوال

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام (٣ / ٧٥). وذكر ابن عساكر قول علي بن المديني (تاريخ دمشق ٥٤ / ٣٥٩).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٩-١١٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٤).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٢٦،٣٢٣)، وراجع (٣٥ / ٣٢٥).

(٤) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨/ ١٧٨).

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ / ١٧١).

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٥/ ٣٢٥)، (٥٤/ ٣٥٦) قال: « مات سنة ٧٣هـ . وقيل: سنة ٨٠هـ. وقيل: سنة ٨١هـ. وقيل: سنة ٨٢هـ. وقيل: سنة ٩٢هـ. وقيل: ٩٣هـ. وقيل غير ذلك في تاريخ وفاته ومبلغ سنّه ».

والروايات يترجَّح عندنا القولُ بأن وفاته إمَّا في (عام ٨٠هـ) أو (٨١هـ/ ٧٠٠م)، وذلك للاعتبارات الآتية :

١- ما رواه ابن سعد أن محمد ابن الحنفية حينما استقر في المدينة، وبني داره في « البقيع » كتب إلي عبد الملك بن مروان يستأذنه في الوفود عليه، فأذن له فوفد عليه في دمشق (سنة ٧٨هـ)، ومكث عنده شهراً، وقضي عبد الملك له جميع حوائجه[١]. وهذه الرواية تجعلنا نستبعد سنتي (٧٢هـ) و (٧٣هـ) تاريخاً لوفاة ابن الحنفية.

٢- القول بأنه توفي سنة (٩٢ هـ) أو (٩٣هـ) استبعده الذهبي وخطَّأه. كما أن ابن الحنفية لم يكن له ذكرٌ في الأحداث التاريخية التي وقعت بعد (عام ٨١هـ)، وخصوصاً في ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالعراق (٨١-٨٣هـ/ ٧٠٠-٧٠٢م) أواخر خلافة عبد الملك بن مروان.

أما عن مكان وفاة ابن الحنفية وموضع دفنه فقد كثرت الأقوال والروايات في تحديده أيضا. فالمسعودي – وتبعه ابن خلكان يقول: « مات بالمدينة، ودفن بالبقيع، وصلَّي عليه أبانُ بن عثمان بن عفان. وقيل: إنه خرج إلي الطائف هارباً من ابن الزبير، فمات بها. وقيل : إنه مات ببلاد أيْلة » [٢] .

ويذكر ابن عساكر أنه مات برَضْوي[٣] - جبل في المدينة – ودُفن في البقيع »[٤].

وفي رواية له أخرى من طريق المدائني: « مات ابن الحنفية بين الشام والمدينة »[٥].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧ / ١١٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢٠).

(٢) المسعودي: مروج الذهب (٣/ ١٣٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٧١). ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٩)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧١).

و(أيلَة): هي المدينة التي تقابل اليوم مدينة (العقبة)، في أعلى الخليج المسمى باسمها والمتفرع من البحر الأحمر، وتنتهي عندها حدود الشام ويبدأ الحجاز في العهد الإسلامي. وخليج العقَبة هو أحد شعبتي البحرِ الأحمرِ (راجع: ياقوت: معجم البلدان ١ / ٢٠٢) .

(٣) قال الطبري في تاريخه (٧/ ٥٣٥) – أحداث (سنة١٤٤هـ) - : « رضوي: جبل جهينة، وهو في عمل ينبُع ». وقال ابن خلكان في وفيا ت الأعيان (٤/ ١٧٣): « بينهما – أي بين رَضْوي وينبع – مسيرة يوم واحد، وهو من المدينة علي سبع مراحل، وهو علي ليلتين من البحر ».

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٥ / ٣٢٥).

(٥) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤ / ٣٥٧).

وجزم صاحب (البدء والتاريخ) أن ابن الحنفية مات بالطائف زمن الحجاج بن يوسف الثقفي[1]. وفي تعريف السمعاني بالطائف في كتاب (الأنساب) قال: « وبها مات عبد الله بن عباس، ومحمد ابن الحنفية، وبها قبرهما »[2]. ولم يذكر تاريخ الوفاة.

ويُرجِّح ابنُ حجر أن ابن الحنفية مات بـ (أَيْلَة)، وذلك بعد نزوله الطائف حيث خرج – هو وابن عباس – إليها من مكة علي إثر امتناعهما من البيعة لعبد الله بن الزبير، فأقاما بها إلي وفاة ابن عباس (سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م)، ثم رحل ابن الحنفية بعده إلي جهة رَضْوي (جبل بينبع)، فأقام هناك، ثم أراد دخول الشام، فتوجّه إلي (أَيْلَة)، فمات في آخر سنة ثلاث – أو سنة أربع وسبعين، عقب قتل ابن الزبير[3].

وقد حسَمَ البلاذري هذا الخلافَ فقال: « قال بعض الرواة : مات ابن الحنفية بـ (أَيْلَة). وذلك غلطٌ، والثبْتُ مات بالمدينة وله خمس وستون سنة، ودفن بالبقيع »[4]. وهذا – في رأينا – هو الصواب، ويؤيده ما سبق ذكره عن أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية – حين سُئل : أين دفن أبوك؟ – فقال: « في البقيع »[5].

* * *

(١) المقدسي: البدء والتاريخ (١ / ٢٨٢).

(٢) السمعاني: الأنساب (٤ / ٣٤).

(٣) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨ / ١٧٨) .

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف (٣ / ٤٨٨)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٦/ ٢٩٦)..

(٥) تنبيه: يذكر ياقوت في (معجم البلدان ٢ / ١٤١): أن أهل جزيرة (خَارَك) – وهي من أعمال فارس، وتقع في في وسط البحر الفارسي (الخليج العربي) – يزعمون أن بها قبر محمد ابن الحنفية. وقد علق ياقوت علي ذلك بقوله: (والتواريخ تأبى ذلك) . وهو كما قال.

المبحث الثاني
موقف ابن الحنفية من الأحداث السياسية في عصره
(أولا: في فترة الخلفاء الراشدين)

موقفه من أحداث فتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ:

إذا أخذنا بما رجَّحناه في تحديد تاريخ مولد ابن الحنفية في حدود (سنة ١٥هـ -أو ١٦هـ/ ٦٣٧م) فإنه – حين قُتِل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ – يكون في سنِّ العشرين، أو الحادية والعشرين تقريبًا. وقد أشارت المصادر إلى أنه روى عن عثمان ﷺ[١]. لكنْ لم نعثر له على رواية حديثية عنه. وأولُ ما تطالعنا به المصادر عن علاقة ابن الحنفية بعثمان أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ كان عنده صحيفةٌ دَوَّنَ فيها بعضَ أحكام مصارف الزكاة عن النبي ﷺ، فبعث بها ابنَه محمدًا إلى عثمان، ليستعين بها عُمَّالُه المسئولون عن جمع أموال الزكاة[٢].

أما أحداث يوم الدار – وهو المصطلح التاريخي الذي يُطلق على فتنة مقتل عثمان ﷺ – فلم يُنقَل عن ابن الحنفية أنه كان من المشاركين في الدفاع عن الخليفة الشهيد، كأَخَوَيْه الحسن والحسين اللذيْن انطلقا مع غيرهما من أبناء الصحابة – كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير – كلُّهم شاكي السلاح حتى دخلوا الدارَ للدفاع عن الخليفة

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣١٨ ، ٣٢٦)، المزي: تهذيب الكمال (٢٦/ ١٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١١).

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب الخمس، باب « ما ذكر من درع النبي ﷺ » (رقم ٢٩٤٤). ابن أبي شيبة: المصنف (٧ / ٥٢٤) رقم (٣٧٧٠٧)، عبد الرزَّاق الصنعاني: المصنف (٤ / ٦) رقم (٦٧٩٥)، ابن عساكر: تاريخ دمشق: (٣٩ / ٢٦٥).

عثمان، لكنه منعهم، وقال: « أعزمُ على كل مَن رأى أنَّ عليه سمعًا وطاعةً إلا كفَّ يدَه وسلاحَه، فإنَّ أفضلكم عندي غَنَاءًا مَن كفَّ يدَه وسلاحَه»[1].

وعدم ذكر المصادر مشاركة ابن الحنفية في الدفاع عن عثمان ﷺ ونُصرته لا ينفي امتناعَه، وإن كنا لا نملك دليلًا على الإثبات. ولعل اباه عليا ﷺ حجزه عن الذهاب إلى دار عثمان أثناء الحصار، حيث كان يعتمد عليه في أمور كثيرة، وكان ابن الحنفية – كما وصف نفسه – شديد الملازمة لأبيه[2].

وفي رواية لابن عساكر في (تاريخ دمشق) ما يفيد أن ابن الحنفية قد شاهد الحصار الذي ضُرب على بيت عثمان بن عفانﷺ، ونقل لنا مشهدًا منه، وكان حينئذ في رُفقة أبيه، وليس فيه تصريح بأنه دافع وقاتل. وقد حكي هو هذا المشهد فقال: « لَمَّا جاء الرَّكْبُ من مصر بعث عثمانُ إلى عليٍّ أنْ رُدَّهُمْ – وكان قد رَدَّهُمْ مرتين [3] – : خرج يتوكأ عليَّ حتى انتهي إلى الباب، فإذا الزِّحامُ، فرمي بعمامته في الدار، وقال: اللهم إني أشهدك أني لم أَقْتُلْ ولم أُمالئ »[4].

---

(١) خليفة بن خياط: التاريخ (ص١٧٤)، ابن أبي شيبة: المصنف (١٥ / ٢٠٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩ / ٣٩٨). وللوقوف على الأسباب التي دعَتْ عثمان ﷺ يمنع الصحابة عن الدفاع عنه يراجع الآجُرِّي: الشريعة (٢ / ٣٤٨)، الإمام أحمد: المسند (١ / ٣٩٦ – تحقيق أحمد شاكر)، ابن أبي عاصم: السُّنّة (٢ / ٥٦١ – تحقيق الألباني)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩ / ٣٤٩، ٣٨١).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١١٥).

(٣) المراد بقوله « أنْ رُدَّهم – وكان قد رَدَّهم مرتين – ... » : محاورة الثائرين والتفاوض معهم، ومحاولة إقناعهم بخطأ موقفهم. وقد نجح مرتين في إقناعهم بالرجوع عن موقفهم والعودة إلى أمصارهم وديارهم. لكن «السبئية» البغاة زعماء الفتنة عملوا على إفشال هذا الصلح، وخططوا لإشعال الفتنة من جديد وتلفيق التهم ضد عثمان (راجع: خليفة بن خياط: التاريخ ص١٦٨–١٧٢، محمد عبد الله الغبان: فتنة مقتل عثمان ص١٢٩).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩ / ٣٧٠). ويروي ابن عساكر أيضًا (٣٩ / ٤٩٩) عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: قُتل عثمان وعليٌّ غائب في أرض له، فلما بلغه قال : « اللهم إني لم أَرْضَ ولم أمالئ ». وفي رواية أخرى (٣٩ / ٤٥١): « ما قتلتُ عثمان ولا مالأتُ في قَتْله ». وفي رواية لابن عباس أن عليًا قال: « ما أمرتُ، ولا قتلتُ، ولكني غُلِبتُ ».

ويظهر من سياق هذه الرواية أن عليًا لما وصل إلى دار عثمان وَجَده قد قُتل، ووجد عنده زحامًا، فأظهر براءته من السعي في قتله، أو الرِّضى بذلك[1].

وفي رواية أخرى تشير إلى أن ابن الحنفية حاول مَنْعَ أبيه من الخروج إلى عثمان، خوفًا عليه من القتل، ففي اليوم الذي شدَّد فيه الثائرون حِصارَهم أرسل مروانُ بن الحكم بن أبي العاصي (ابنُ عم عثمان) إلى عليّ، يطلب منه أن يتدخلَ لفكِّ الحصار، ودَفْعِ الثائرين، وقال له: « ألا تأتي هذا الرجلَ فتمنعه، فإنهم لن يُبْرِمُوا دونَك ». وهنا أخذ محمد ابن الحنفية بكتفَي أبيه، فاحتضنه، وأراد مَنْعَه من الذهاب، خوفًا عليه من القتل، وقال – كما يرويه عنه تلميذه منذر الثوري – « يا أبتِ، أين تذهب؟ والله ما يزيدونك إلا رَهْبةً »[2]. ويحكي ابن الحنفية نفسُه هذا المشهدَ بقوله : «كنتُ مع عليّ، وعثمانُ محصورٌ، فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتولٌ. ثم جاء آخر فقال: إن أمير

---

(١) لقد اتّهم عليٌّ بالسعي في قتل عثمان ﷺ، والتحريض عليه، والرضى به، ورُويت في ذلك روايات باطلة ومزوَّرة. يقول الحاكم النيسابوري في (المستدرك علي الصحيحين ٣/ ١٠٣) – بعد أن ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتل عثمان – : « أما الذي ادّعتْه المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ فإنه كذبٌ وزُور، فقد تواترت الأخبار بخلافه ». وقال ابن تيمية في (منهاج السنة النبوية ٤ / ٤٠٦): « هذا كلُّه كذبٌ علي عليٍّ وافتراءٌ عليه، فعليٌّ لم يشارك في دم عثمان ﷺ ولا أمر، ولا رضي ». وقد تواترت الأخبار بما يفيد القطع عن علي بن أبي طالب نفسه في أنه ينفي علاقته بمقتل عثمان، وأنه بريئ من دمه، وكان يقسم علي ذلك في خطبه ومجالسه، وكان يتحدث بفضائل عثمان ومناقبه (يُرجع في ذلك إلي الحاكم: المستدرك ٣ / ٩٥، أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ١ / ٥٨٠، ٧٧١، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣ / ٧٨، ابن أبي شيبة: المصنف ٧ / ٤٩٢، ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٩ / ٤٢٠، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٤٥٨). وثبت في روايات عديدة أن علياً ﷺكان من أكثر الناس حرصاً علي الدفاع عن عثمان والوقوف بجانبه أثناء الحصار الذي ضربه الثوار الخوارج علي دار عثمان (رواه ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٩/ ٣٩٨) .

(٢) ابن أبي شيبة : المصنّف (٧ / ٥١٧) رقم (٣٧٦٧٥).

المؤمنين مقتولٌ الساعةَ. فقام عليٌّ وقُمْتُ معه، فأخذت بوسطه تخوُّفًا عليه، فقال: خَلِّ لا أمَّ لك. فانطلق عليٌّ حتى أتي الدارَ وقد قُتل الرجل (أي: عثمان)، فرجع عليٌّ فأتى دارَه فدخلها وأغلق عليه بابه»[1].

ويظهر أن خوف ابن الحنفية على أبيه يعود إلي ما حدث لأخيه الحسن، فعلى الرغم من محاولات عثمان ﷺ لمنع الصحابة من الدفاع عنه فإن بعض الروايات تشير إلى أنه قد حدث احتكاك واشتباك خفيف أدي إلى حمل الحسن بن علي جريحًا يوم الدار[2] . وفي رواية لابن عبد البر في كتاب (الاستيعاب) - بإسناد صحيح - أنه أُخرج من الدار أربعة من شباب قريش محمولين مُلطَّخين بالدم، كانوا يدرءون عن عثمان، وهم: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم بن أبي العاصي[3].

وقد نقل ابن الحنفية من أحداث يوم الدار كيف تمت البيعة بالخلافة لأبيه علي بن أبي طالب في اليوم الذي قتل فيه عثمان ﷺ، فيقول – كما في رواية الخلَّال- : « كنتُ مع عليّ ﷺ حين قتل عثمان ﷺ، فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: إنَّ هذا الرجل قد قُتل، ولابُدَّ للناس من إمام، ولا نجد أحدًا أحقَّ بهذا الأمر منك؛ أقدمَ مَشَاهدَ[4]، ولا أقربَ من رسول الله ﷺ. فقال عليّ: «لا تفعلوا، فإني وزيرٌ خيرٌ مني أن

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ١١)، أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (٢/ ٥٧٣) رقم (٩٦٩)، الخلَّال: السُّنَّة (٢/ ٤١٥) (رقم٦٢٠ ، ٦٢٢)، الآجُرِّي: الشريعة (٢/ ٢٢٧)، ابن شبَّة: تاريخ المدينة (٤ / ١٢٢٣).

(٢) البخاري: التاريخ الصغير (٧ / ٢٣٧)، ابن سعد: الطبقات الكبرى (٨/ ١٢٨) – بإسناد صحيح.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (مطبوع مع الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر) (٣ / ٧٨). وراجع الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤ / ٣٥٣، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢).

(٤) المشاهد: هي الغزوات التي حضرها علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ .

أكون أميرًا ». فقالوا: لا والله، ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال: « ففي المسجد، فإنه لا ينبغي ان تكون بيعتي خفيا، ولا تكون إلا عن رضيً من المسلمين ». قال: « فخرج إلى المسجد وبايعه المهاجرون والأنصار (إلا نفراً يسيرًا)، وبايعه الناس»[1].

هذا ما أمكننا رصده حسب ما جاء في الروايات عن موقف ابن الحنفية من حادثة مقتل الخليفة عثمان، ولم يزد هذا الموقف عن كونه عاصر الحدث، وروى أطرافاً منه، ولم يثبت لدينا أنه شارك – كأخيه الحسن وآخرين من شباب الصحابة – في محاولة الدفاع عن عثمان. كما أنه خشي علي أبيه عليّ وتعلّق بثيابه عندما خرج مسرعاً لإنقاذ الموقف في الساعات الأخيرة.

أما عن رأي ابن الحنفية في عثمان فلا يختلف عن موقف أبيه عليٍّ ﷺ منه ؛ موالاتُه ومحبتُه، ومعرفةُ فضله، و الإقرارُ بشرعية خلافته، والردُّ علي الطاعنين فيه، والإنكارُ علي المنتقصين من قَدْره. والشواهد والدلالات علي ذلك كثيرة، ومن أوضحها ما يرويه ابن أبي شيبة وغيره عن مُنذر بن يَعْلي الثوري قال: كنا عند ابن الحنفية، فنالَ بعضُ القوم من عثمان، فقال: « مَهْ »[2]. فقلنا له: أكان أبوك يسُبُّ عثمان؟ قال: « ما سمعتُ أبي سبَّ عثمانَ قطّ، ولو كان سابَّه يوماً لسبَّه يوم جاء ناسٌ من الناس إلي أبي، فشَكَوا سُعاةَ عثمان[3]. فقال أبي: خُذ هذا الكتابَ فاذهب إلي عثمان بن عفان، وأخبره أنها صدقة رسول الله ﷺ[4]، فمُرْ سُعاتك يعملون بها. فأخذتُه فذهبت به إليه، فقال: لا

---

(١) الخلّال: السُّنّة (٢ / ٤١٦-٤١٧)، أبو بكر الآجُرّي: الشريعة (٢/ ٢٢٧). والرواية في الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤ / ٤٢٧- ٤٢٩)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣ / ١١).

(٢) مه : اسم فعل أمر بمعني ((اكفف)).

(٣) سُعاة عثمان : العمال الذين عينهم لجمع أموال الزكاة.

(٤) كان علي بن أبي طالب ﷺ يحتفظ بصحيفة دوَّن فيها بعضَ أحكام مصارف الزكاة التي سمعها من النبي ﷺ. وقد ذكر ابن حجر أن الخطابي روي في (غريب الحديث): أن علياً بعث إلي عثمان بصحيفة فيها : «لا تأخذوا الصدقة من الرَّخَّة، ولا من النَّخَّة ». والرَّخَّة: أولاد الإبل، والنَّخَّة: أولاد الغنم (ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/ ٢٤٨).

حاجة لنا فيه[1]. فرجعت إلي أبي فأخبرته، فقال: لا عليك، ضَعْه مَوْضِعَه». ثم علَّق ابن الحنفية قائلاً: « فلو سَبَّه يوماً لَسَبَّه ذلك اليوم »[2].

وروي ابن عساكر عن سالم بن أبي الجعد قال : كنا مع ابن الحنفية في الشِّعْب[3]، فسمع رجلاً ينتقصُ عثمانَ، وعنده ابن عباس، فقال: « يا ابن عباس، هل سمعتَ أمير المؤمنين عشيةَ سمع الضَّجَّةَ من قبل المِرْبد[4]، عشيةَ بَعَثَ فلانَ بنَ فلان[5] فقال: اذهب، فانظر ما هذا الصوت؟ فجَاء، فَقال: هذه عائشة تلعنُ قتَلةَ عثمانَ، والناسُ يُؤَمِّنُونَ. فقال علي: وأنا ألعنُ قَتَلةَ عثمان في السَّهْل والجبل. اللهم العَنْ قتلةَ عثمان في السَّهل والجبل ». يقول الراوي: « فصدَّقه ابن عباس، وأقبل ابن الحنفية علي الرجل وعلينا فقال: « أَمَا فيَّ وفي ابن عباس شاهدا عَدْل؟ »، قلنا: « نعم »، فقال: « قد كان هذا » [6]. وقد نقل ابن أبي شيبة هذه الرواية فيَّ (المصنَّف)، وزاد في آخرها أن ابن الحنفية قال: « فَوَاللهِ ما عِبْتُ عثمانَ إلي يومي هذا»[7].

---

(١) قال ابن حجر في (فتح الباري ٦/ ٢٤٨): ((قيل : كان علم ذلك عند عثمان، فاستغني عن النظر في الصحيفة. ويُحتمل أن يكون عثمان لم يثبت عنده ما طُعن به علي سعاته، أو ثبت لكن كان التدبير يقتضي منه تأخير الإنكار، أو كان الذي أنكره من المستحبات، لا من الواجبات، ولذلك عذره عليّ)).

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف (٧ / ٥٢٤) رقم (٣٧٧٠٧)، عبد الرزاق الصنعاني: المصنف (٤ / ٦) رقم (٦٧٩٥). وأصل الرواية في صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، رقم (٣١١٠). ورواه ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩ / ٢٦٥).

(٣) حدث ذلك حينما كان ابن الحنفية وابن عباس (ومعهما جماعة) مُحاصَرين في شعْب بن هاشم بمكة، وكان عبد الله بين الزبير قد فرض عليهما الحصار لإرغامهما علي البيعة له بالخلافة سنة ٦٥هـ. وسيأتي بيان ذلك في موضع لاحق .

(٤) المربد: موضع بالبصرة من أشهر محالها، وكان سوقا للإبل قديماً، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء (ياقوت: معجم البلدان ٤ / ٨٣).

(٥) وفي رواية ابن أبي شيبة في المصنَّف (٧ / ٥٣٩) : « يا أبا عباس، تذكر عشية يوم الجمل، أنا عن يمين عليٍّ ، وأنت عن شماله ، إذْ سمعنا الصيحة ... ».

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩ / ٤٥٥)، ورواه مختصراً أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (١/ ٤٥٥) (رقم ٧٣٣)، وروي البخاري نحوه في التاريخ الكبير (٨ / ٣٤٣).

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف (٧ / ٥٣٩) رقم (٣٧٧٩٣).

وروى عمر بن شبَّة في (تاريخ المدنية). بإسناده عن محمد ابن الحنفية قال: « صرخ صارخ يوم صفّين فقال: يا ثارات عثمان. فقال علي ﷺ: اللهم اكبُبْ قتلةَ عثمان اليوم لمناخرهم»[1].

والشاهد من هذه الروايات كلها أن ابن الحنفية أراد الرَّد علي الذين نالوا من مكانة عثمان، واستدل بمواقف أبيه عليٍّ التي أعلن فيها براءَته من دم الخليفة، ودعاءَه باللعن علي قاتليه. كما أنها توضح حسن العلاقة بينهما. وهذا هو ما يتبنَّاه ابن الحنفية ويعتقده.

ومع إقرار ابن الحنفية بالفضل لعثمان، وإنكاره علي الطاعنين فيه، فإنه كان يقدِّمُ عليه أباه في الفضل والمرتبة الدينية، وذلك بعد تقديم أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق رضي الله عنهما. ويتأكد هذا الموقف بما رواه البخاري في (صحيحه) عن محمد ابن الحنفية قال: « قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم مَنْ؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول (عثمان) فقلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين »[2]. وفي رواية ابن أبي عاصم في (السُّنَّة): « ... فما منعني أن أسأله عن الثالث إلا خشية أن يعدلها عن نفسه»[3].

والسبب الذي يفسر خشية ابن الحنفية أن يكون عثمان هو الثالث في الأفضلية قبل أبيه عليّ هو – كما يقول ابن حجر –: « أنه كان يعتقد أن أباه الأفضل، فخشي أن علياً يذكر عثمان، علي سبيل التواضع منه، والهضم لنفسه »[4]. وقد أشار ابن حجر إلي أن

---

(١) عمر بن شبَّة: تاريخ المدنية (٤ / ١٢٦٢، ١٢٦٧)، البخاري: التاريخ الكبير (٨ / ٣٤٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٧١). عبد الله بن أحمد بن حنبل : السُّنة (٣ / ٢٨٨) رقم (١٢٤٤)، ابن أبي شيبة: المصنف (٢/ ٣٥٠)، رقم (٣١٩٤٥)، الطبراني: المعجم الأوسط (١/ ٩٤ ، ٢٤٧).

(٣) ابن أبي عاصم: السُّنة (٢ / ٥٧١)، الآجُرِّي: الشريعة (٥ / ١٤).

(٤) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ٤١). وقد ذكر ابن حجر الاختلاف في أيّ الرجلين أفضل أفضل بعد أبي بكر وعمر: (عثمان أو علي) ؟ ، ثم قال : ((انعقد الإجماع بآخرة بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة رضي الله عنهم أجمعين)).

هذا الاستفسار من ابن الحنفية وقع منه وهو في سن الحداثة. وقيل: حدث ذلك بعد مقتل عثمان، أو بعد وقعة النهروان (سنة٣٨هـ/ ٦٥٨م)[١].

ونؤكد هنا علي أن اعتقاد ابن الحنفية تقديم أبي بكر ثم عمر في الأفضلية علي سائر الصحابة- بل وعلي أبيه عليّ بن أبي طالب نفسه - يختلف تماماً عن اعتقاد الشيعة السبئية في القول بإمامة علي بن أبي طالب، وأنه أحقُّ بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ورفض إمامة أبي بكر، وعمر. كما أنه ينفي ويبطل اعتقاد فرقة « الكَيْسانية » - وهي من فرق الشيعة - في محمد ابن الحنفية نفسه بأنه هو « الإمام »، وأن الإمامة – يعني الخلافة – انتقلت إليه بوصيةٍ من أخيه الحسين، ثم نقلها ابن لحنفية إلي ابنه « عبد الله أبي هاشم »[٢].

موقفه من القتال في معركتي الجمل وصفين:

لما قُتل عثمان ﷺ بايع الصحابة عليَّ بن أبي طالب باعتباره أفضلَ الموجودين، وأحقّ بالخلافة. وامتنع معاوية من البيعة له، ولم يوافق علي عزل عليٍّ له عن إمارة الشام، ولا التسليم له بالخلافة إلا بعد إقامة حدّ القصاص علي قتلة عثمان، ولم تفلح جهود الصلح بينهما، فاعتبره عليّ باغياً علي « الإمام » وخارجاً عن الجماعة، وعزم علي قتاله، فجهز جيشاً، وانطلق به إلي الشام لقتال معاوية[٣]. وبينا هو في الطريق جاءته أنباء عن خروج السيدة عائشة رضي الله عنها، ومعها بعض الصحابة كطلحة والزبير

---

(١) ابن حجر : المصدر السابق (٧/ ٤١).

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٣٩ – ٤٠)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/ ١٥٢).

(٣) نميل إلي القول بأن معاوية كان يقر بفضل عليٍّ ويقدمه علي نفسه، ولم ينكر استحقاقه للخلافة، ولم ينازعه فيها، ولا طلبها لنفسه في حياة عليٍّ. ودليلنا علي ذلك ما رواه يحي بن سليمان الجعفي بسند جيد (كما يقول ابن حجر في فتح الباري ١٣ / ٨٦) عن أبي مسلم الخولاني (وهو شامي تابعي ثقة، وكان في الوفد الذي أرسله عليٌّ إلي معاوية في مساعي الصلح) – أنه قال لمعاوية: « أنت تنازع علياً في الخلافة، أَوَأنتَ مثلُه؟ قال: لا والله، وإني لأعلم أنه أفضل مني، وأحقُّ بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، ووليُّه أُطالب بدمه؟ فأتُوا علياً فقولوا له :« يدفع إليَّ قتلة عثمان، وأُسلِّم له ». فأتوا علياً فكلموه، فلم يدفعهم إليه (راجع الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ١٤٠).

إلي البصرة، وانضم إليهم جمعٌ كبير من المسلمين، وكان القصد من هذا الخروج ليس الطلب بدم عثمان، ولا اعتراضاً علي تولِّي علي بن أبي طالب الخلافة، وإنما كان – حسب الروايات الصحيحة – بغيةَ الإصلاح بين الناس[1]، فسعى « السَّبئية » – أتباع عبد الله بن سبأ – في إذكاء الفتنة وإشعال نار الحرب، ووقعت معركة الجمل الشهيرة، في النصف من جمادى الآخرة (سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م)[2]. وبعد فراغ عليٍّ من أصحاب الجمل توجَّه بجيشه إلي قتال معاوية وأهل الشام، فوقعت معركة «صفين» في شهر صَفَر (سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م) التي انتهت بوقف القتال، واللجوء إلي «التحكيم»، بعد أن حصدت السيوف أعدادا كبيرة من الجيشين[3] .

وقد اشترك محمد ابن الحنفية في القتال – كما تتفق علي ذلك الروايات – بجانب أبيه وأخويه الحسن والحسين، في معركتي «الجمل» و«صفين».

أما عن دوره في معركة الجمل فيمكن تلخيصه في النقاط الآتية :

١ – كان يحمل اللواء في جيش أبيه علي بن أبي طالب[4]. وهو « الراية العظمي » كما يسميه المسعودي[5]. وهذا يعني أنه كان في الصفوف الأمامية. ويُصرح ابن الحنفية بذلك في حوار دار بينه وبين عبد الله بن عباس، فقال موجهاً إليه كلامه: « تذكُرُ عشيَّةَ الجمل وأنا علي يمين عليٍّ في يدي الراية، وأنت عن يساره.... »[6].

---

(١) عن مقصود عائشة رضي الله عنها في خروجها إلي البصرة من أجل الإصلاح بين المسلمين حين اضطرب أمرهم بعد مقتل الخليفة عثمان يراجع: أحمد بن حنبل: المسند (٦/ ٥٢)، الطبري: تاريخ (٤/ ٩٧)، د. خالد بن محمد الغيث: استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري: دراسة نقدية (١٦٢ وما بعدها).

(٢) تفاصيل أحداث معركة الجمل ودور السبئية في إذكائها (الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٠٠ – ٥٤١).

(٣) تفاصيل أحداث معركة صفين (الطبري : المصدر السابق ٥/ ٦– ٦٣).

(٤) البخاري: التاريخ الكبير (٨ / ٣٤٣)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤/ ٤٨٠ ، ٥١٤).

(٥) المسعودي: مروج الذهب (٢/ ٣٩٩).

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف (٧/ ٥٣٩) رقم (٣٧٧٩٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩ / ٤٤٥).

٢- قاتل ابن الحنفية في معركة الجمل، وأمره عليٌّ بالزحف علي معسكر البصريين، وقد ورد عند ابن سعد في (الطبقات الكبرى) عن منذر الثوري قال : سمعت محمد ابن الحنفية يقول – وذكر يوم الجمل -: « لَمَّا تَصَافَفْنا أعطاني عليٌّ الراية، فرأى مني نُكُوصاً لَمَّا دنا الناسُ بعضُهم إلي بعض، فأخذها مني، فقاتل بها »[١]. وفي رواية الطبري: أن ابن الحنفية قال: « دفع إليَّ أبي الراية يوم الجمل وقال: تقدَّمْ. فتقدمتُ حتي لم أجد مُتقدَّماً إلا علي رُمح. فقال : تَقَدَّمْ لا أُمَّ لك. فتكأكأتُ وقلتُ: لا أجد مُتَقَدَّماً إلا علي سنان رُمْح. فتناول الراية من يدي مُتناولٌ لا أدري مَنْ هو، فنظرتُ فإذا أبي بين يديَّ وهو يقول:

أنت التي غَرَّك منِّي الحُسْني يا عَيْشَ إنَّ القومَ قومٌ أَعْدا[٢]

وفي رواية للَبلاذري: « ثم أمر عليٌّ محمد بن الحنفَية أن يحمل، فحمل، وحمل الناسُ، فانهزم أهل البصرة »[٣].

ويظهر أن ابن الحنفية كان متردداً في حمل الراية، وتوقف أولاً في شأن القتال، ويفسر ابن خلكان السببَ في هذا الموقف بأن القتال وقع بين فئتين من المسلمين، ولم يحدث نظيرُه قبل ذلك. وهنا أراد عليٌّ أن يزيل ما دخل ابنَه محمداً من تردُّد فقال له: « هل عندك شكٌّ في جيش مُقدَّمُه أبوك؟ »، فسارع في حمل الراية، وشارك في القتال[٤].

وتروي المصادر أن محمد ابن الحنفية صرع مروانَ بن الحكم يوم الجمل، وجلس علي صدره، وأراد قتْلَه، فناشده مروان بالله، فأطلقه. فلما وفد ابن الحنفية علي الخليفة عبد الملك بن مروان (وكان ذلك سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م)[٥] قال له : أتذكر يوم جلست علي صدر مروان؟ فقال « عفواً يا أمير المؤمنين ». فعفا عنه، وأجزل له الجائزة[٦].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٩٤-٩٥).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤/ ٥١٤-٥١٥).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٣ / ٣٧).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ / ١٧١).

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧/ ١١٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١١)

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٩)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٦/ ٢٩٥).

٣- وقد نقل إلينا ابن الحنفية من روايته تعدادَ الجيش الذي خرج به علي بن أبي طالب من المدينة، وهو سبعمائة رجل. ثم انضم إليهم سبعة آلاف من الكوفة[١]. ونقل إلينا ابن الحنفية بروايته أيضاً من أحداث يوم الجمل أنه حمل في القتال علي رجل من معسكر البصريين، فلما تمكَّن منه قال الرجل: « أنا علي دين علي بن أبي طالب»، فتركه ولم يقتله[٢]. وضرب رجلاً آخر من الأزد، فقطع يده[٣].

كما نقل إلينا من روايته ما حدث لأمير البصرة عثمان بن حُنيف، علي أيدي أصحاب الجمل (معسكر عائشة وطلحة والزبير) حين خرج إليهم بجنود ليمنعه من دخول البصرة فوقع القتال عند مقبرة بني حصن، بالقرب من دار الرزق، ثم اصطلحوا، ثم نشب القتال وتغلَّب أصحاب الجمل، وأخرجوا عثمان بن حُنيف بعد أن نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقدم علي عليّ بن أبي طالب بالرَّبذة[٤]، وذلك قبل أن يتحرك عليّ إلي البصرة، وتتطور الأحداث إلي وقوع معركة الجمل.

ومن المشاهد التي نقلها ابن الحنفية بروايته عن المعركة في بدايتها قبل نشوب القتال أن عائشة رضي الله عنها كانت تدعو باللعن علي قَتلة عثمان بن عفان ﷺ، والناسُ معها يُؤمِّنون علي دعائها، فلمَّا سمعها عليٌّ قال: « لعن الله قَتَلَةَ عثمان في السهل والجبل، والبرّ والبحر»[٥].

ويروي ابن الحنفية أيضاً أن علياً أراد منه أن يستوثقَ له يوم الجمَل من الشعارات التي كان أصحاب الجمَل يرفعون بها أصواتهم،فقال له: يا أمير المؤمنين، إنهم يقولون: يا لَثاراتِ عثمان، فمدَّ عليٌّ يديه وقال : «اللهم أكِبَّ قتلةَ عثمان علي وجوههم»[٦].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤/ ٥٠٦) بإسناد حسن . وراجع : د.خالد محمد الغيث : استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري (ص ٢١٣).

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٧ / ٥٣٧)، ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧ / ٩٤-٩٥).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤/ ٥١٢).

(٤) الطبري: السابق (٤ / ٤٦٦-٤٦٨، ٤٨٠).

(٥) ابن أبي شيبة : المصنف (٧/ ٥٣٩) رقم (٣٧٧٩٣).

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٥٦-٤٥٧)، البيهقي: السنن الكبرى (٨/ ١٨٠).

ونقل إلينا أيضاً أن علياً أمر أتباعه – لَمَّا هُزم جيش البصرة –: « لا تُجهزوا علي جريح، ولا تتَّبعوا مُدْبراً ». ووضَّح ابن الحنفية أن علياً لم يسمح بتقسيم الفيء في جيشه إلا ما قُوتل به في ميدان المعركة من سلاح وكراع[1]. وقال في ذلك : « إنَّ علياً قسَّمَ يوم الجمَل في العسكر ما أَجْلَبوا عليه من سلاح وكُراع»[2].

أما عن موقف ابن الحنفية من معركة صفِّين، ودوره فيها فإنه يتلخص في النقاط الآتية:

١- كان موافقاً علي قتال أبيه لأهل الشام، وكان رأيه هو رأيه، أي أن معاوية وأهل الشام فئة باغية خرجوا علي طاعة الخليفة، ويجب قتالهم لردّهم إلي الجماعة. والدليل قول ابن الحنفية نفسه حين سُئل عن الكلمة التي سمعها ورواها عن الصحابي أبي هريرة ﷺ: « لا حرج إلا في دم امرئ مسلم »، فقيل لابن الحنفية : « تطعنُ علي أبيك؟ »، فقال: « إني لست أطعنُ عَلي أبيً، بايعه أُولُوا الأمر، فنكث ناكثٌ، فقاتله »[3]. وفي رواية أخري : أن ابن الحنفية روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « أُمرتُ أن أقاتل الناسَ حتي يقولوا لا إله إلا الله، فإذا فعلوها حَرُمَتْ عليَّ دماؤُهم وأَموالُهم، إلا بحقها، وحسابُهم علي الله »[4]. فقال رجل لمحمد ابن الحنفية : « إنك لتُزْري علي أبيك »، فقال: « لستُ أُزْري علي أبي، إن أبي بايعه أهلُ الأمر، فنكث ناكثٌ فقاتله، ومَرَق مارقٌ فقاتله »[5].

لقد أراد الرجل أن يوضح لابن الحنفية أنه بروايته عن أبي هريرة كلمتَه، والحديثَ الذي رفعه إلي النبي ﷺ – وفيهما النهي عن قتال المسلمين – يكون بذلك قد طعن في أبيه عليٍّ، حيث قاتل أهل الشام وهُم مسلمون. لكنَّ ابن الحنفية لم يوافق علي هذا

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧ / ٩٥).

(٢) ابن أبي شيبة : المصنف (٧ / ٥٤٤) رقم (٣٧٨٢٠).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٢).

(٤) الحديث في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير ، رقم (٢٩٤٦).

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٦-٣٤٧).

التوجيه، وأكد علي أن أُولي الأمر بايعوا أباه بالخلافة، وكانت بيعته صحيحة، وأنه أصبح خليفة تجب طاعته، فلما امتنع معاوية عن البيعة، ورفض أن يُعزل عن إمارة الشام وتمسَّك به أهلها وشايعوه وناصروه فيكون بذلك ناكثاً للبيعة، فقاتله عليّ، لردّه إلي الجماعة. وكذلك قاتل«المارقة»، وهم الخوارج[1] الذين كانوا في عداد جيشه، ورفضوا ما عُرف « بالتحكيم » في النزاع القائم بين عليّ ومعاوية، ورفعَوا شعار « لا حكم إلا لله »، ثم نابذوه العداء، وكفّروا مخالفيهم، فقاتلهم عليٌّ في معركة « النهروان» (سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م)[2].

ومن هنا يظهر بوضوح موقف ابن الحنفية من قتال أهل الشام، وهو تأييد أبيه، وموافقته، وأن ذلك لا يتعارض مع أحاديث النبي ﷺ التي تنهي عن قتال المسلمين. لكنَّ ابن الحنفية – من ناحية أخرى – كان مشفقاً علي أبيه من إباء فريق من أتباعه، وضَعْف همتهم، وجُبنهم، وخاف عليه أن يتحرك بهم لقتال أهل الشام. يروي ابن سعد عن عبد الله بن محمد بن عَقيل قال: سمعت محمد ابن الحنفية يقول: « كان أبي يريد أن يغزو معاويةَ وأهلَ الشام، فجعل يعقد لواءه، ثم يحلفُ لا يُحلُّه حتي يسير، فيأبى عليه الناسُ، وينتشر رأيُهم، ويجبُنون، فيُحلّه ويكفّر عن يمينه، حتي فعل ذلك أربع مرات. وكنت أرى حاله، فأرى ما لا يسُرُّني، فكلَّمتُ المسْور بن مَخْرمة[3] يومئذ وقلت له : ألا تكلمه أين يسير بقوم لا والله ما أرى عندهم طائلاً؟ فقال المسور : يا أبَا القاسم، يسير لأمرٍ قد حمَّ[4]، قد كلَّمتُه فرأيته يأبى إلا المسير »[5].

---

(١) أطلق علي الخوارج وصف « المارقة »، وهو مأخوذ من كلام النبي ﷺ عنهم : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة » (رواه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين- رقم ٦٩٣٣) ، ومن قوله ﷺ : « تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين، يقتلها أولى الطائفتين بالحق » (رواه أحمد: المسند ٣ / ٣٢ ، ٩٧) .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن قتال عليّ الخوارج في النهروان يُنظر:تاريخ الطبري (٥ / ٤٨-٥٩، ٦٤-٦٦، ٧٢-٩٣).

(٣) المسور بن مخرمة بن نوفل، الزُّهْري، القرشي. صحابي جليل. وأُمّه هي « عاتكة بنت عوف » أخت عبد الرحمن بن عوف. توفي بمكة سنة ٦٤هـ (ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١١٩- ١٢٠).

(٤) يسير لأمر قد حُمَّ : أي قُضي وقُدِّر، وقَرُب وقوعه. يقال (أحمَّ الله كذا): قضاه وقدَّره (المعجم الوسيط: حمّ)

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧ / ٩٥).

وهذا الموقف من ابن الحنفية المؤيدُ لأبيه في قتال أهل الشام يختلف عن موقف أخيه الحسن بن عليّ، فقد كان الحسن لا يريد القتال، « ودعا أباه إلي القعود » (كما في رواية الطبري)[1]. ويذكر ابن كثير في (تاريخه) أن الحسن قال لأبيه – حين عزم علي التجهُّز لقتال معاوية وأهل الشام، وخرج من المدينة – : « يا أبت، دعْ هذا، فإن فيه سفكَ دماء المسلمين، ووقوعَ الاختلاف بينهم »[2]. فلم يقبل عليٌّ منه ذلك، بل صمم علي القتال.

ويظهر لي أنَّ الحسنَ بن علي لما رأى صلابة أبيه وتمسُّكَه بموقفه في القتال سلَّم له، وبقي بجواره، بل وكان له دور بارز في استنفار أهل الكوفة في الانضمام إلي أبيه، وفي ذلك يروي الطبري أن عليَّ بن أبي طالب حين تحرَّك بجيشه من المدينة، ووصل إلي « ذي قار »[3]: بعث عبدَ الله بن عباس إلي الكوفة ليستنهض أهلَها إلي القتال، ثم أتبعه بابنه الحسن وعمار بن ياسر. وكان للحسن أثر واضح في استنفار الناس، وخطب فيهم قائلاً: « أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلي إخوانكم، فإنه سيُوجَدُ لهذا الأمر مَنْ يَنْفر إليه، والله لَأَنْ يَليه أُولُوا النُّهى ٱلْمَثَلُ في العاجلة، وخيرٌ في العاقبة، فأجيبوا دعوتَنَا، وأعينونا عَلي ما ابتُلينا به وابتُليتم »[4]. وقد لبَّى كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلي علي، ما بين ستة آلاف إلي سبعة آلاف رجل[5].

---

(١)جاء في رواية سيف بن عمر المدائني عند الطبري: « وأحبَّ أهلُ المدينة أن يعلموا ما رأى عليّ في معاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة، أن يجسر عليه أو ينكُل عنه، وقد بلغهم أن الحسن بن عليّ دخل عليه، ودعاه إلي القعود وترك الناس، فدسُّوا إليه زياد بن حنظلة التميمي- وكان منقطعاً إلي عليّ – فدخل عليه، وجلس إليه ساعة... الخ» الرواية، وفيها: « فخرج زياد علي الناس، فقالوا: ما وراءك؟ فقالوا: السيف يا قوم. فعرفوا ما هو فاعل.... وأقبل علي التهيُّؤ والتجهُّز، وخطب أهلَ المدينة، فدعاهم إلي النهوض في قتال أهل الفُرقة » (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٤٤-٤٤٥، ابن الأثير: الكامل٣/ ٩٤).

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية (٤ / ٣٠١).

(٣) ذو قار: موضع قريب من الكوفة، بينها وبين واسط (ياقوت: معجم البلدان ٣ / ٣٥٥).

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤ / ٤٨٢،٤٨٥ ، ٤٩٩-٥٠٠).

(٥) الطبري: المصدر السابق (٤ / ٤٨٠، ٤٨٧-٤٨٨).

٢ – كان محمد ابن الحنفية يحمل « اللواء » لأبيه في معركة « صفِّين »[١]. وكان عليٌّ يحملها أحياناً، فإذا أراد أن يقتحم الصفوف أعطاها لمحمد، فقد روى ابن سعد عن عبد الله الغافقي أنه رأى علياً يعدو بالراية حتي أقامها، ولحقه ابنُه محمد ابن الحنفية، فقال له: « يا بُنيَّ الزمْ رايتَك، فإني مُتقدِّمٌ في القوم»[٢].

٣- وقد شارك ابن الحنفية في القتال، ففي اليوم الرابع من المعركة خرج في جَمْع كبير، وخرج إليه عُبيد الله بن عمر بن الخطاب في مثل عدده من أهل الشام، فاقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أرسل عبيد الله إلي ابن الحنفية « أن اخرج إليَّ أبارزْك». فخرج إليه يمشي، فرآهما عليٌّ، فنادى محمداً ابنَه، ومنعه من المبارَزة، ثم توجه إلي عبيد الله بن عمر وطلب منه المبارزة، فقال: « ليست لي في مبارزتك حاجة »، ثم رجع فأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه: « لمَ منعتني من مبارزته؟ فوالله لو تركتَني لرجوتُ أن أقتله »، فقال علي: « لو بارزتَه لرجوتُ أن تقتلَه، وما كنتُ آمَنُ أن يقتلك »[٣].

ويروي الطبري أنه في أثناء المعركة توجَّه عليٌّ نحو ميسرة الجيش « ومعه بنوه »، فحمل علي رجلٍ من موالي بني أمية في جيش الشام يدعي « أحمر » فتمكَّن منه وحمله علي عاتقه، وضرَب به الأرض فكسر منكبه وعَضُدَيْه، ثم شدَّ الحُسين بن علي، ومحمد ابن الحنفية عليه، فضرباه بأسيافهما حتي قُتل[٤]. ثم أقبلا إلي أبيهما والحسن قائم بجوار، فقال له علي: « ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ ». فقال الحسن: « كفياني يا أمير المؤمنين ».

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٥)، الطبري: المصدر السابق (٤/ ٤٤٥)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٦).

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ٥٤٤) [ط: دار الكتاب العربي، بيروت].

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٢-١٣)، الدينوري: الأخبار الطوال (١ / ١٧٤)، نصر بن مزاحم: وقعة صفين (١/ ٢٢١)، المسعودي: مروج الذهب (٢ / ٤١٩ - ٤٢٠). وجدير بالذكر أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب قتل في صفين (راجع تاريخ الطبري ٥/ ٣٦).

(٤) الطبري: المصدر السابق (٥ / ١٨).

وهذه الرواية تُظهر – إضافة إلي مشاركة ابن الحنفية في القتال – أن الحسن والحسين اشتركا في المعركة، وباشرا القتال مع أبيهما.

وقد نقل لنا ابن الحنفية بروايته بعض ما شاهده في صفِّين، ففي (المستدرك علي الصحيحين) للحاكم النيسابوري بإسناده عن ابن الحنفية قال : « رأيت أبا عَمْرة الأنصاري[1] يوم صفّين – وكان بدْرياً، عَقْبياً، أُحُدياً [2] – وهو صائم يَلْتوي من العطش، وهو يقول لغلام له: تَرِّسْني[3]. فتَرَّسَه الغلامُ، ثم رمي بسهم، فنزع نزعاً ضعيفاً، حتي رمي بثلاثة أسهم، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (من رمي بسهم في سبيل الله، فبلغ أو قصَّر كان ذلك نوراً له يوم القيامة). فقُتل قبل غُروب الشمس »[4].

ومما نستفيده من هذه الرواية في موضوعنا :

١- إخبار ابن الحنفية باسم رجل من الصحابة كان مؤيِّداً لعليٍّ في قتاله لأهل الشام، ومباشرته للقتال في صفِّين حتي قُتل.

٢- الفهم الذي فهمه أبو عَمْرة من الحديث الذي رواه عن رسول الله ﷺ أن القتال مع عليّ في صفّين ضد أهل الشام هو قتال شرعي، مُعلِّلا مشاركته فيه بما ورد في الحديث:« مَن رَمَي بسهم في سبيل الله»، ومن ثمَّ يكون عليٌّ محقّاً في موقفه. ولعل هذا هو ما فهمه محمد ابن الحنفية من الحديث الذى سمعه من أبي عَمْرة فرواه عنه.

بقى أن نشير – فى هذا السياق – إلى أنَّ أحد أبناء محمد ابن الحنفية، وسبق التعريف به (وهو الحسن) – كان يتوقَّف في شأن عثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، فلا

---

(١) أبو عَمرة الأنصاري، صحابي جليل، ترجم له ابن حجر في (الإصابة ٧/ ٢٨٩) باسم « أبو عمرو الأنصاري »، وذكر قصة مشاركته القتال في صفين، مع علي بن أبي طالب ﷺ. ثم قال : « ووقع في رواية أخري عن أبي عمرة، آخره هاء ».

(٢) المعني أنه حضر بيعة العقبة الثانية، وحضر غزوتي« بدر » و« أُحُد » مع النبي ﷺ.

(٣) تَرِّسْني : ألبسْني التُّرس.

(٤) الحاكم النيسابوري: المستدرك علي الصحيحين (٣/ ٤٤٦)، ابن حجر: الإصابة (٧ / ٢٨٩).

يتولاهم، ولا يذمُّهم. وهذا – كما يقول الذهبى – « هو الإرجاء الذى تكلَّم به الحسَنُ، ومعناه أنه يُرجئ أمرَ عثمان وعلىٍّ إلى الله، فيفعل فيهم ما يشاء »[1]. وبعبارة الحسن نفسه قال (وهو فى جمع من أهل العلم يتكلمون فى أمر الصحابة المذكورين فأكثروا): « سمعت مقالتكم، ولم أرَ شيئاً أمْثَلَ منْ أن يُرجَأ علىٌّ، وعثمانُ، وطلحةُ، والزبير، فلا يُتوَلَّون، ولا يُتَبرَّأ منهم »[2]، أى أنه « كان يرى – كما يقول ابن حجر العسقلانى – عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين فى الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً، وكان يرى أنه يُرجئ الأمرَ فيها. وأما الإرجاء الذى يتعلق بالإيمان (ويعيبه أهلُ السُّنة) فلم يُعرِّج عليه، فلا يَلْحَقُه بذلك عَيبٌ »[3]. والمراد هنا ما حدث بينهم من قتال فى معركة الجمل على إثر مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ .

ولقد أنكر محمد ابن الحنفية على ابنه الحسن رأيه فيما حدث بين علىٍّ ﷺ ومخالفيه (طلحة، والزبير، وعائشة، رضى الله عنهم) فى معركة الجمل، فحينما بلغته زَجَره بشدَّة، وضربه بعصا فشَجَّه، وقال: « وَيْحَك، ألا تتولى اباك عليا ؟ »[4]. وهذه العبارة الأخيرة تؤكد فَهْمَ ابن الحنفية للقضية، بأنَّ أباه علياً كان على الحق والصواب، وأنَّ مخالفه مُخطئٌ. ولم يوافق على مقولة ابنه الحسن بالتوقف عن تحديد أى الطرفين مصيباً، والآخر مخطئاً، وإرجاء أمرهما إلى الله تعالى في الآخرة. وقد تراجَعَ الحسن عن هذا

---

(١) الذهبي:تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣٣) [ط: دار الكتاب العربي، بيروت]. وأشار الذهبي إلى سبب هذه المقولة فقال: وذلك أن الخوارج تولَّتْ الشيخين (أبا بكر وعمر)، وبرئتْ من عثمان وعليّ، فعارضتهم السَّبئية (أي الشيعة) فبرئت من أبي بكر وعمر، وعثمان، وتولَّتْ علياً وأفرَطَتْ فيه. وقالت المرجئة: نتولَّى الشيخين، ونرجئ عثمان وعلياً، فلا نتولاهما، ولا نتبرأ منهما

(٢) المزي: تهذيب الكمال (٦ / ٣٢١)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣ / ١٢٤– ١٢٥).

(٣) ابن حجر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢١). ولابد من التأكيد هنا على أن « الإرجاء » الذي نُسب إلى الحسن بن محمد ليس هو في « الإيمان » بمعناه المعروف عند فرقة « المرجئة » الذين يقولون: « لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة »، ويقولون أيضاً: « إن الواحد من المكلفين إذا قال (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وفعل بعد ذلك سائر المعاصي لم يدخل النار أصلاً ».

(٤) المزي : تهذيب الكمال (٦ / ٣٢٢).

القول، قال ابن كثير: « كتب فى ذلك رسالة، ثم ندم عليها»[1]. وروى ابن سعد عن عطاء بن السائب، عن زاذان وميسرة[2]: أنهما دخلا على الحسن بن محمد ابن الحنفية، فلاماه على الكتاب الذى وضعه فى الإرجاء، فقال لزاذان : « يا أبا عمر، لَوَددْتُ أنى كنتُ متُّ ولم أكتبه »[3].

مَوقفه من الخوارج :

يروي ابن أعْثَم الكوفي في (كتاب الفتوح) ما يشير إلي أن ابن الحنفية شارك في معركة النَّهْروان التي خاضها علي بن أبي طالب ضد الخوارج (سنة٣٨هـ/ ٦٨٢م)، ففي الحوار الذي دار بينه وبين زعماء المدينة من أجل إقناعه بالخروج معهم والانضمام إليهم في ثورتهم علي يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ/ ٦٥٨م) قالوا له: « ... فاخرج بنا حتي نبايعك »، فقال: « لا أستحلُّ القتال تابعاً ولا متبوعاً ». فقالوا: « يا محمد، أنتَ قاتلتَ مع أبيك يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم النهروان ». فتبسم محمد ابن الحنفية ثم قال : « وَيْحَكم، وأين تجدون مثل أبي في دهركم هذا ؟...»[4].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٥/ ١٨٥ – ١٨٦) .

(٢) زاذان: هو أبو عمر الكندي البزاز الضرير. تابعي ثقة . حدَّث عن علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وسلمان الفارسي، وغيرهم رضي الله عنهم. وشهد خطبة عمر بن الخطاب في الجابية. توفي سنة٨٢هـ. وميسرة: هو أبو صالح الكوفي الكندي، مولي (كندة)، روى عن علي، وشهد معه قتال الخوارج في معركة النهروان (٣٨هـ)، وثَّقه ابن حبَّان. توفي سنة ٩٠هـ (الذهبي: تاريخ الإسلام ٣/ ٢٦ – ٢٧ ، ١٩٢).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٢٢)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٣/ ١٢٤)، ابن حجر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠)،. وأما الرسالة التي صنَّفها الحسنُ في « الإرجاء » (بالمعنى المذكور) وتُنسب إليه فقد أشار الذهبي إلي أن « يعقوب بن شيبة » ذكرها في كتابه (مسند علي بن أبي طالب)، ثم وصفها بقوله : « وهي نحو ورقتين وفيها أشياء حسنة »، ثم نقل منها ما يتصل بقول الحسن في الإرجاء. كما أن ابن حجر العسقلاني وقف علي « الرسالة » ونقل – هو أيضاً- منها كلامَ الحسن. وقد عثرتُ علي نص كامل لهذه الرسالة عند ابن أبي عمر العَدَني في كتابه (الإيمان). (الذهبي: تاريخ الإسلام ٣/ ١٢٤، ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢/ ٣٢١ ، ابن أبي عمر العدني: الإيمان ١/ ١٣٣).

(٤) ابن أعثم: كتاب الفتوح (٥ / ٢٦٣).

والمراد بكلمته هذه الأخيرة أن ابن الحنفية شارك في القتال مع أبيه ووافقه علي ذلك لأن أباه كان خليفة، وبايعه الصحابة وأولوا الأمر، وأنه كان علي الصواب في حروبه . كما أنه كان علي قدر كبير من العلم والفقه والمنزلة في الدين والصُّحبة بحيث يؤهِّلُه ذلك للتعامل مع الأحداث بوَعْي وبصيرة، وأنه خاض القتال ضد مخالفيه لردّهم إلي الطاعة والجماعة.

وقد سبق القول: إن ابن الحنفية وافق أباه علي قتال الخوارج، وسماهم «المارقة»[1]. يُضاف إلي ذلك أنه كان ينهي عن الانخراط في صفوفهم والانضمام إليهم والخروج معهم ضد السلطة الحاكمة، فقد لقيه رجل من خراسان – كما في رواية طويلة لابن سعد في (الطبقات) – وشكى إليه أنه تعرض للإيذاء، والتشريد في البلاد بسبب حبه ونصرته لآل محمد، وأنه همَّ أن يلحق بالخوارج، وقال له: « لقد هممتُ أن أخرج مع قوم – شهادتنا وشهادتهم واحدة – علي أمرائنا »[2]، فنهاه ابن الحنفية وقال له: « لا تفعل، ولا تفارق الأمة »[3].

وقد نقل لنا ابن الحنفية ما شاهده هو من حادثة مقتل أبيه علي بن أبي طالب بسيوف الخوارج، ثأراً لقتلاهم في « النهروان »، وكان ابن الحنفية في المسجد الأعظم بالكوفة حين هجم عبد الرحمن بن مُلجم المراديُّ بسيفه المسموم، وضرب به علياً علي هامته، وهو في طريقه إلي المسجد قُبيل صلاة الفجر. وروى ابن الحنفية ما سمعه من أبيه – حين قُبض علي ابن ملجم وجيء به بين يديه – فقال : « النفسُ بالنفس، إنْ أنا متُّ فاقتلوه كما قتلني، وإنْ بقيتُ رأيتُ فيه رأيي »[4] .

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٦-٣٤٧) . وراجع (ص) من البحث .

(٢)علَّق عمر بن زياد الهذلي- الذي روي هذه القصة عن الأسود بن قيس - بأن الذين عناهم الرجل الخراساني في قوله هذا هم الخوارج .

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٤- ٣٤٥) .

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٤٦) ابن الأثير: الكامل (٤/ ٢٥٧-٢٥٨). وفي رواية ابن سعد في (الطبقات ٣/ ٣٥)، ونقلها ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٥٨) أن ابن الحنفية سمع أباه يقول عن ابن ملجم: « إنه أسير، فأحسنوا نزله، وأكرموا مثواه، فإن بقيت قتلتُ، أو عفوتُ، وإن مت فاقتلوه قتلتي، (وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [البقرة : ١٩٠] ».

كما نقل إلينا كيف تمَّ قَتْلُ ابن مُلجم قصاصاً[1]، وتحديد سنّ أبيه عليٍّ حين قُتل، وكان في سن الثالثة والستين كما يقول ابن الحنفية[2]. وكان حاضراً حين توجَّه إليه عَليٌّ ﷺ وإلي أخويه الحسن والحسين بوصية جامعة، نقلها إلينا كاملة [3]. وأخبر أنه اشترك مع الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب في تغسيل عليّ ﷺ وإعداده للدفن، وكان يصُبُّ عليه الماء[4].

(ثانيا: في عصر الأمويين)

كان علي بن أبي طالب ﷺ عند موته قد أوصي وَلَدَيْه الحسنَ والحسين بوصية جامعة، وكان أخوهما محمد بن الحنفية حاضرًا، فنظر إليه عليٌّ ووجَّه إليه كلامه قائلاً: « هل حفظتَ ما أوصيتُ به أخَوَيْك؟». قال: « نعم » . قال: « فإني أُوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخَوَيْك، لعظم حقِّهما عليك، ولا تقطعْ أمرًا دونهما ». ثم قال للحسن والحسين:« أوصيكما بهَ، فَإنه ابنُ أبيكما، وقد علمتما أن أباكما يُحبُّه »[5].

قام محمد ابن الحنفية بوصية أبيه بأخويه على أحسن ما يكون، فكان يقرُّ لهما بالفضل، ويُنزلهما المنزلة التي تليق بهما، ويُقدِّمهما علي نفسه في الفضل والمنزلة وشرف النسب. وكان يقول عنهما: « الحسن والحسين خيرٌ مني، وأنا أعلم بحديث أبي منهما »[6].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبري (٣/ ٣٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٤٢ / ٣٩٠).

(٢) ابن سعد: السابق (٧ / ١١٦)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٥٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٤٢ / ٥٧١)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (١ / ١٣٦).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٤٧)، ابن الأثير: الكامل (٤/ ٢٥٧ – ٢٥٨).

(٤) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٢/ ٣٩٠). ورواية ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/ ٥٦٠) : أن الذي قام بتغسيل عليّ : ابناه الحسن والحسين، ومعهما عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(٥) الطبراني: المعجم الكبير (١/ ٩٧) رقم (١٦٨)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٤٤٧)، ابن الأثير: الكامل (٤/ ٢٥٧).

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣١). الشيرازي: طبقات الفقهاء (ص٦٢).

ومن المواقف الدالة علي تقدير ابن الحنفية لأخويه الحسن والحسين، والتي تعبر كذلك عن حصافته وبصيرته : جوابه عن سؤال مَن سأله: ما بالُ أبيك يرمي بك في مَرام لا يرمي فيها الحسن والحسين؟ فقال: « لأنهما كانا خدَّيْه، وكنت يدَه، وكان يَتَوَقَّى بيديه عن حدَيْه »[1] .

ولَمَّا توفى الحسن بن علي – في ربيع الأول (سنة ٥٠ أو ٥١هـ/ ٦٧١م) [2] – ووُضع في أكفانه، أظهر محمد الحزنَ الشديد عليه، وذكر فضائله ومناقبه، ورثاه بقوله:« يرحمك الله أبا محمد، فإن عزَّتْ حياتُك لقد هدَّتْ وفاتُك، ولَنعم الروحُ روحٌ تضمَّنه بدنُك، ولَنعم البدنُ بدنٌ تضمَّنه كفنُك، وكيف لا تكون هكذا وأنت سليلُ الهدي، وحليفُ أهل التقي، وخامس أصحاب الكساء [3]، غَذَّتْك بالتقوى أكُفُّ الحق، وأرضعتْك ثَدْيُ الإيمان، ورُبِّيتَ في حجْر الإسلام، فطبتَ حيّاً وميتاً، وإن كانت أنفسنا غير سخيَّة بفراقك، رحمك الله أبا محمَد »[4] .

ومن المواقف الدالة علي حبه للحسينً، ومعرفته بفضله وشرف نسبه، وعظيم مكانته ما يرويه البيهقي في (شُعب الإيمان) – ومن طريقه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) – عن المفضل بن محمد : أن خلافاً وقع بين الحسين بن علي ومحمد ابن الحنفية أدي إلي انقطاع كل منهما عن الآخر، فبادر ابن الحنفية وكتب إلي الحسين : « أبي وأبوك علي بن أبي طالب ، وأمي امرأةٌ من بني حنيفة، لا يُنكَر شرفُها في قومها، ولكن أمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأنت أحق بالفضل مني، فصِرْ إليَّ حتي ترضّاني ». فسار إليه الحسين في الحال وترضَّاه[5].

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٤)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ٧١-١٧٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧).

(٢) دفن الحسن في البقيع، وكان عمره عند موته سبعاً وأربعين سنة (تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٥)، وقيل: توفي وهو ابن خمس وخمسين سنة (المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٧٥).

(٣) ورد في رواية الإمام أحمد في (المسند ٦/ ٢٩٢) رقم (٢٦٥٥١) أن أصحاب الكساء خمسة، وهم: النبي محمد ﷺ، وابنته فاطمة، وزوجها علي بن أبي طالب، وولداه الحسن والحسين، رضي الله عنهم جميعًا.

(٤) المسعودي: مروج الذهب (٢/ ٤٧٧)، اليعقوبي: التاريخ (٢/ ٢٢٥)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٣/ ٢٩٦).

(٥) البيهقي: شعب الإيمان (٦/ ٣١٦)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٣).

ومع إقرار ابن الحنفية بالفضل والمكانة والشرف والسُّؤدد للحسن والحسين فإنه كان له موقفه الخاص من تنازل أخيه الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وامتناع أخيه الحسين عن البيعة ليزيد بن معاوية، وخروجه إلي الكوفة لخلعه من الخلافة، حيث لم يكن يراه أهلاً لها.

موقف ابن الحنفية من تنازل أخيه الحسن عن الخلافة لمعاوية:

أما موقف ابن الحنفية من تنازل أخيه الحسن فإنه كان موافقاً، ولم يختلف في ذلك عن سائر الصحابة، فقد وافقوا ورضوا، وبايعوا معاوية، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري وغيرهم، ورأوا جميعاً أن في البيعة لمعاوية المصلحةَ الكبرى، حقناً للدماء، وجمعاً للكلمة علي إمام واحد بعد سنوات من الفرقة، وإنهاءً للحرب والقتال[1]. والدليل علي موافقة ابن الحنفية علي تنازل أخيه الحسن: ما رواه ابن أعثم في (كتاب الفتوح) عن موقفه من ثورة أهل المدينة علي يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م)، فقد جاءه زعماء الثورة - مثل عبد الله بن مطيع العَدَوي، والعباس ابن سهل الأنصاري، وغيرهما – يطلبون منه تأييدهم والانضمام إليهم، فرفض بشدة، فلما سألوه: ولِمَ ذلك؟ قال: « لأني قد بايعتُه، وأخذتُ جائزته، ولم أخلعْه فأقاتلَه ... ». ثم قال - مستشهدا بأخيه الحسن -: « وقد رأيتُ أخي الحسنَ بايع معاويةَ من قَبْلُ، وأخذ جائزته، والحسنُ كان أفضلَ مني، فإنْ بايعتُ يزيدَ كان لي أسوةٌ بأخي». فقالوا: «إنَّ أخاك الحسن رأي رأياً »، أرادوا بذلك أنَّ رأيَ أخيه ليس مُلزماً له. فقال - مبيناً لهم أنه مقتنع بهذا الرأي، ويري فيه الصواب- :« وأنا رأيتُ ذلك الرأيَ الذي رآه أخي»[2].

ويختلف ابن الحنفية في موقفه هذا عن موقف أخيه الحسين، فلم يكن الحسين – في البدء – موافقاً عن تنازل أخيه الحسن عن الخلافة، ولم يُسدِّدْ رأيه، بل حضَّه علي

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٤٩٥، ٥٠٢).

(٢) ابن أعثم: كتاب الفتوح (٥ / ٢٦٣).

مواصلة قتال معاوية وأهل الشام[1]، لكنَّ الحسن شدَّد عليه وألزمه بما اتفق عليه المسلمون، وقال له – كما روي الطبري –:« اسكت، فأنا أعلم بالأمر منك »[2]، وأغلظ له في الكلام قائلاً: « والله لقد هممْتُ أن أسجنَك في بيت، وأُطبق عليك بابه حتي أفرَغَ من هذا الشأن، ثم أُخرجُك ». فلما رأي الحسين ذلك كتم وسلَّم[3]. ويلخص الذهبي هذا الموقف بقوله: « بلغنا أن الحسين لم يُعجبْه ما عمل أخوه الحسن من تسليم الخلافة إلي معاوية، بل كان رأيه القتال، لكنه كظم، وأطاع أخاه، وبايع »[4].

وقد ظلت علاقة ابن الحنفية بمعاوية بن أبي سفيان جيدة، ولم يُعكِّر صفوَها شئٌ علي مدي عشرين عاماً، هي مدة خلافة معاوية. وكان ابن الحنفية يفدُ عليه في دمشق[5]، فكان معاوية يُجلُّه، وربما يستفتيه في بعض الأحكام. ويحدِّثنا ابن الحنفية عن إحدي زياراته إلي دمشق فيقول: « قدمتُ علي معاوية بن أبي سفيان فسألني عن العُمْرَي[6]، فقلت:جعلها رسول الله ﷺ لمن أُعْطيها. فقال: تقولون ذلك؟ قلت: نعم. قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أعْمَرَ عُمْرَي فهي له، يرثها عَقِبُه مَن يرثها »[7].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٣٦٣) .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ١٦٠).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٧) .

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩١).

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣١٩).

(٦) العُمْرَي (بفتح العين وسكون الميم): من عقود التمليك؛ مأخوذة من العمر، وهو الحياة ، ومعناها: أن يقول الرّجل: أعمرتك داري هذه ، أو هي لك عُمْرى مدّةَ حياتك، فإذا متّ فهي لعقبك. أو يقول: هذه الدار هي لك عُمْرَكَ، فإذا متُّ رجَعَتْ إليَّ، أو هي لك عُمْري، فإذا متُّ رجعَتْ إلي أهلي (الموسوعة الفقهية الكويتية ج٢٤ص٥).

(٧) ابن عساكر: تاريخ دمشق(٥٤/ ٣١٩). وراجع أحمد بن حنبل: المسند (٤/ ٩٩،٩٧) رقم (١٦٩٢، ١٦٩٥١).

ولا يُعرف عن ابن الحنفية أنه اتَّهَم معاوية أو ابنَه يزيد بالسعي في قَتْل الحسن بن عليٍّ بالسُّمِّ. وهذا يُعدُّ من الأدلة على بطلان هذه التُّهْمة، فضلاً عن بُطلان الروايات التاريخية الواردة بشأنها، وهي من وَضْع الشيعة كما يقول ابن خلدون في تاريخه[1].

وعندما سعي معاوية في تَحصيل البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد لم يمتنع ابن الحنفية من إعطائها عن طواعية، واستمر على بيعته ليزيد بعد موت معاوية، كما سبق من رواية ابن أعثم. وسيأتي مزيد بيان عن ذلك في موضع لاحق قريب.

موقف ابن الحنفية من خروج أخيه الحسين لعزل يزيد بن معاوية (سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م)

لما استقرَّتْ الخلافة لمعاوية كان الحسين يتردد إليه مع أخيه الحسن، فيكرمهما إكراماً زائداً، ويعطيهما عطاءً جزيلاً[2]. وكان الحسن يُحذِّرُ أخاه الحسين من الخروج على بني أمية، ومن غَدْر أهل الكوفة، وأوصاه بذلك عند موته كما يروي ابن عبد البر في (الاستيعاب) وبيّن في وصيته له أن الخلافة صُرفت عن أبيه عليّ، وحينما تولاها « ما صفا له شيء منها »، ثم قال له في آخرها : « ... وإنِّي والله ما أُري أن يجمع الله فينا – آل البيت – النبوةَ والخلافة، فلا أعرفنَّ ما استخفَّك سفهاءُ أهلِ الكوفة فأخرجوك...»[3]. وكان يقول له أيضاً: «إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفُّوك، فيُخرجوك ويُسْلموك فتندم، وَلاتَ حين مَناص »[4].

وبعد وفاة الحسن (سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م) استمر الحُسين يَفِدُ على معاوية في دمشق، في كل عام، فيعطيه ويكرمه ويُجِلُّهُ، فيقبل الحسين جوائزه، واشترك في الجيش الذي غزا القسطنطينية (سنة٤٩هـ/ ٦٦٩م)، وكان يزيد بن معاوية أميراً عليه[5].

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر(٢/ ١٤٩) .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٧).

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٣٧٦-٣٧٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣ / ٢٧٨).

(٤) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٢/ ٥٧٤).

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٧).

وقد بذل أهل الكوفة – من شيعة علي ﷺ – عدة محاولات لتحريض الحسين – بعد موت الحسن – علي خلع « معاوية »، فكتبوا إليه يدعونه إلي الانضمام إليهم، وتأييده، فيأبى عليهم[1]. ثم وَفَدَ عليه في المدينة وَفْدٌ من رؤسائهم (كما في رواية ابن سعد)، وحاولوا إقناعه بخلع معاوية، والخروج عليه بالسيف، وقالوا له : « قد علمنا رأيك ورأي أخيك »، يريدون بذلك أن الحسين لم يكن موافقاً علي موقف الحسن لَمَّا تنازل عن الخلافة لمعاوية. لكن الحسين كان يرفض، لأنه في عنقه بيعة لمعاوية[2].

لم يجد شيعة الكوفة بعيتهم عند الحسين جاوا إلي اخيه محمد ابن الحنفيه، وحرَّضوه علي الخروج معهم إلي الكوفة، فرفض، وأخبر الحسين بمجيئهم وبما عرضوا عليه، وقال له محذراً إياه الكوفيين، ومن نقض البيعة : « إن القوم يريدون أن يأكلوا بنا، ويشيطوا [3] دماءَنا » [4] .

ولَمَّا علم الصحابي أبو سعيد الخُدْري بمكاتبة شيعة الكوفة الحسين ووفودهم عليه جاءه ناصحاً له، ومحذِّراً من غدرهم، وقال له: « يا أبا عبد الله، إني لك ناصحٌ ومشفق، وقد بلغني أنه قد كاتبك قومٌ من شيعتك، فلا تخرج إليهم، فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتُهم وملُّوني، وأبغضتُهم وأبغضُوني، وما بَلَوتُ منهم وفاءً، ولا لهم ثباتٌ، ولاَ عزمٌ، ولا صبرٌ علي السيف »[5].

وقد نما إلي علم معاوية – عن طريق أمير المدينة مروان بن الحكم – بخبر هذه المراسلات فكتب إلي الحسين في الحال يحثه علي الوفاء بالبيعة، ويحذّره من الشقاق، ويُذكِّرُه غَدْرَ أهل العراق بأبيه وأخيه، وختم رسالته إليه بقوله: « فاتق الله، واذكر

---

(١) المزي : تهذيب الكمال (٦ / ٤١٢-٤١٣)، ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٦ - ١٣٧).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٥٠).

(٣) يشيطوا دماءنا : يهدرونها ويسفكونها.

(٤) المزي: تهذيب الكمال (٦ / ٤١٢-٤١٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٥)، المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٤١٢-٤١٣). الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٣-٢٩٤).

الميثاق، فإنك مني تكذْني أكذْكَ ». وقد ردّ عليه الحسين، وكتب إليه يطمئنه، ويؤكد له التزامه بالبيعة : « أتانَي كتابكَ، وأنا بغير الذي بلغك عني جديرٌ، وما أردتُ لك محاربة ولا خلافاً... »[1].

ولَّما بدأ معاوية ﷺ يسعي في الحصول علي البيعة بولاية العهد لابنه « يزيد» في حدود (سنة ٥٦هـ / ٦٧٥م) [2] « تألَّم الحسين » (كما يقول الذهبي)[3]، وامتنع هو وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس[4]. ورأى هؤلاء أن يترك معاوية الأمر شورى ليختار المسلمون الأفضل للخلافة.

أما عبد الرحمن بن أبي بكر فقد مات – علي الراجح – (سنة ٥٨هـ/ ٦٧٧م) [5] وهو علي رأيه من الامتناع. وظل الحسين وعبد الله بن الزبير علي موقفهما في حياة معاوية وبعد موته، وكان من شأنهما ما كان.

وأما ابن عمر فقد امتنع عن البيعة ليزيد بولاية العهد في حياة معاوية، وكان مما قاله ابن عمر – حينما قدم معاوية المدينة (سنة ٥٦هـ/ ٦٧٥م) لأداء العمرة[6]، والتقي والتقي بأبناء الصحابة البارزين، وحاول إقناعهم بالبيعة ليزيد –: « هل لك في أمر

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٦)، المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٤١٣).

(٢) للوقوف علي الأسس التي بني عليها معاوية رأيه في تفضيل ابنه (يزيد) وتقديمه علي غيره من أبناء الصحابة في ولاية العهد بالخلافة : مقدمة ابن خلدون (٢/ ٥٨٤– ٥٨٨) ، د.حسين عطوة: نظام ولاية العهد ووراثة الخلافة (ص ٣٥ – ٤٣)، د. خالد محمد الغيث: استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري: دراسة نقدية (٤٥٨– ٤٦٣).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٢).

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٣٠٣).

(٥) ذكر ابن حجر في (الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٣٢٨) عدة أقوال في تاريخ وفاة عبد الرحمن بن أبي بكر، فقيل: (سنة ٥٣هـ)، وقيل: (٥٤هـ)، وقيل: (٥٥هـ)، (٥٦هـ)، وقيل: مات (سنة ٥٨هـ) قبل وفاة عائشة بسنة واحدة.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٣٠١).

يُذهبُ الذمَّ، ويحْقنُ الدَّمَ، وتُدركُ به حاجتك؟ قال : وَددْتُ. قال: تُبـرزُ سَريرَك، ثم أجيءُ فأبايعك عليَ أني أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمةَ، فوَ الله لو أن الأمة اجتمعت بعدك علي عبد حبشي لدخلتُ فيما تدخل فيه الأمة. قال : وتفعل؟ قال : نعم »[1].

ومما يؤكِّدُ أن ابن عمر لم يبايع ليزيد في حياة معاوية مارواه ابن سعد – بإسناد صحيح – عن نافع (مولي ابن عمر): أن معاوية أراد من ابن عمر أن يبايع ليزيد، فأبى، وقال: « لا أبايع لأميرين ». فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم فأخذها، فدسّ إليه رجلاً فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟ فقال: « إن ذاك لذاك[2]، إن ديني عندي إذاً لرخيص ». فلما مات معاوية كتب ابن عمر إلي يزيد ببيعته[3].

وقد ثبت أن ابن عمر بايع ليزيد بعد موت معاوية (سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م)، بل وكان ينكر بشدة – في أحداث يوم الحرَّة (سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م) علي من نزع يده من طاعته (كما جاء في رواية البخاري)[4]. وكذلك بايعه عبد الله بن عباس، وكان بمكة بمكة حين مات معاوية، فأمر مَن كان عنده من الناس بالسكينة، ودعاهم إلي بيعة يزيد بن معاوية. ثم قال ابن عباس – كما جاء في رواية المدائني – : « اللهم أَوْسعْ لمعاوية. أَمَا والله ما كان مثلَ مَن قبله، ولا يأتي بعده مثلُه. وإنَّ ابنه يزيد لمن صَالحي أهله، فالزموا مجالسكمَ، وأعطوا طاعتَكم وبيعتَكم»[5] .

أما عن موقف محمد ابن الحنفية من البيعة ليزيد بولاية العهد في حياة أبيه معاوية فقد تغاير مع موقف الحسين، بل ومع رأي بقية الصحابة المذكورين، فالبلاذري في

---

(١) الطبري : السابق (٥ / ٣٠٤)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٦٢٩)..

(٢) يعني كان عطاء ذلك المال لأجل وقوع المبايعة ليزيد.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبري (٤/ ١٧٠)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٥)، ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٧٥).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب « إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه » (رقم ٧١١١) [فتح الباري ١٣ / ٧٣].

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف (٥/ ٣٠٢). الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٣٤٣)، أخبار الدولة العباسية ، لمؤلف مجهول (ص٨٨) .

(أنساب الأشراف) يذكر أن ابن الحنفية بايع ليزيد حين أخذ معاوية له البيعة علي الناس، غير مُغْتَاص ولا مُلْتَو عليه[1]، فكان معاوية يشكر له ذلك، ويقول: «ما في قريش كلها أرجح حلماً، ولاً أفضل علماً، ولا أسكن طائراً، ولا أبعدَ من كل كبْر وطَيْش من محمد بن علي»[2]. ويذكر البلاذري أيضاً – في معرض روايته لمحاوَلةً عبد الله بن الزبير إجبار ابن الحنفية و أتباعه علي إعطاء البيعة له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية – أن عبد الله بن عباس قال لابن الزبير: « قد نهيتُك عن هذا الرجل، وأعلمتُك أنه لا يريد منازعتَك، فاكفف عنه وعن أصحابه». فقال ابن الزبير: « والله لا أفعل حتى يبايع وتبايعوا، أيبايع يزيدَ ولا يبايعُني ؟!»[3] .

وقد استمر ابن الحنفية علي بيعته ليزيد بعد موت معاوية، فكان يزيد يُقدّر له ذلك، وبعبارة البلاذري: « لم يسمع عن ابن الحنفية إلا جميلاً، وببيعته إلا تمسُّكاً ووفاءً، وازداد له حمداً، وعليه تعطُّفاً »[4].

أما الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير فقد امتنعا من البيعة ليزيد في حياة معاوية وبعد موته. ولما تولي يزيد الخلافة وبايعه أكثر الناس أرسل إلي عامله علي المدينة « الوليد بن عتبة بن أبي سفيان » يخبره بموت معاوية، ويأمره بأخذ البيعة له من الحسين وابن الزبير رضي الله عنهما، فاستدعاهما الوليد، وطلب منهما البيعة، فاستمهلاه وقالا: « نصبح وننظر فيما يعمل الناسُ » وخرجا من ليلتهما إلي مكة، فأقاما بها، « ورام كلٌّ واحد منهما الأمر لنفسه » (كما يقول الذهبي)[5].

وروي الطبري عن الواقدي: أن ابن عمر لم يكن بالمدينة حين ورد نَعْيُ معاوية علي الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأن ابن الزبير والحسين لما دُعيا إلي البيعة ليزيد،

---

(١) غير مُغتاص ولا مُلتو عليه: أي غير محتال ولا مخادع .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٣/ ٤٦٩)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٧٩) .

(٣) البلاذري : السابق، والجزء والصفحة، المقريزي: السابق (٦/ ٢٨٧)

(٤) البلاذري : السابق، نفسه، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٧٩ – ٢٨٠).

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٧).

وأبيا وخرجا من المدينة إلي مكة لقيهما ابن عمر وابن عباس، فسألاهما :ما وراءهما ؟ فقالا: قد مات معاوية والبيعة ليزيد. فقال لهما ابن عمر: « اتقيا الله، ولا تُفرِّقا جماعة المسلمين» . ثم قدم ابن عمر المدينة فأقام أياماً، وانتظر حتى جاءت البيعة من البلدان، فتقدم إلي الوليد بن عتبة فبايعه، وبايعه ابن عباس[1] .

ولم تكَدْ أخبار وفاة معاوية، ولجوء الحسين وابن الزبير إلي مكة ممتنعَيْن من البيعة ليزيد تصل إلي أسماع أهل الكوفة حتى عادوا إلي انتفاضتهم القديمة أيامَ خلافة عليٍّ وابنه الحسن رضي الله عنهما، فجاءت رسلُهم تَتْري إلي الحسين يحملون رسائل أهلها يدعونه إليهم، ويستحثُّونه علي الخروج ليبايعوه، وكان أول من كتب إليه : سليمان بن صُرد، والمسيّب بن نَجْبة، ورفاعة بن شدَّاد، وغيرهم، ثم توالت عليه الرسائل بالبيعة، وتدور كلُّها علي أنهم لا يجتمعون علي أميرهم « النعمان بن بشير» في صلاة الجمعة، ويحثُّونه علي الإسراع إليهم، حيث ينتظره منهم جندٌ يأتمرون بأمره، ويقاتلون معه»[2].

توالت الأحداث سريعاً، وأرسل الحسين ابنَ عمه « مسلم بن عقيل بن أبي طالب» إلي الكوفة ليستوثق له من أهلها، ويكشف حقيقة الموقف هناك، ويُمهِّد له السبيل، فلما وصل «مسلم» إلي الكوفة تتابعت عليه وفود الشيعة تبايعه سراً، واستجابت له جموعٌ ضخمة، وبايعه أكثر من اثني عشر ألفاً، وحلفوا كلُّهم « لَينصُرُنَّ الحسينَ بأموالهم وأنفسهم »، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً، فكتب « مسلم بن عقيل » إلي الحسين بالقدوم عليه. لكنْ سرعانَ ما قُبض علي «مسلم»، وقُتل يوم الأربعاء لتسع مضين من ذي الحجة، وكان ذلك بعد مسير الحسين من مكة قاصداً الكوفة بيوم واحد.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٣٤٣)، وانظر ابن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح (٥ / ٣٨)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٦٢٩ - ٦٣٠).

(٢) التفاصيل في الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٤٧-٣٨١) ابن الأثير: الكامل (٣/ ٣٨٥-٣٩٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ٦٧٢-٦٧٥).

لم يكن الحسين قد علم بنبأ مقتل ابن عمه، فخرج إلي الكوفة. وهنا بدأ المحيطون به في مكة من كبار الصحابة وسادة أهل البيت وقرابته يُشفقون عليه من هذه الخاطرة، وأرادوا الحيلولة بينه وبين الخروج، وحذَّروه من تقلُّب الكوفيين، ونصحوه بلزوم الجماعة. وهم جميعاً أحبَّاؤُه والناصحون له، والمتحَرُّون سنة الإسلام في مثل هذا الموقف، أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عُمر، وجابر بن عبد الله، وأبي واقد الليثي، وأبي سعيد الخُدري، والمسْوَر بن مَخْرَمة بن نَوْفل الزُّهْري، وعبد الله بن جعفرً ابن أبي طالب، وغيرهم. وليس فوق هؤلاء الناصحين أحدٌ في عقلهم وعلمهم ومكانتهم وإخلاصهم.« وقد اتفقت كلمتُهم – كما يقول ابن تيمية – علي أن هذا (الذي يريده) لا مصلحة فيه، وأن هؤلاء يَكْذبونه ويُخَذِّلُونه، إذْ هُم أسرعُ الناس فتنةً، وأعجزُهم فيها، وأن أباه كان أفضلَ منه وأطَوَعَ في الناس، وجمهورُ الناس معه، ومع هذا فكان فيهم من الخلاف عليه والخذلان له ما اللهُ به عليمٌ ، حتى صار إلىَ السِّلْمَ بعد أن كان يدعو إلي الحرب، وما مات إلا وقد كرههم كراهةً اللهُ بها عليمٌ، وقد دعا عليهم وتبَرَّم منهم»[1].

وكانت هذه النصائح كثيرة، نذكر منها هنا: ما رواه الشَّعْبيُّ أن ابنَ عمر كان بمكة، فبلغه أن الحسينَ بن علي قد تَوجَّه إلي العراق، فلحقه على مسيرة ثلاث ليال، فقال: أين تريد ؟ قال: العراق – وإذا معه طَوامير(أي صحف) وكتب – فقال: « هذِه كُتُبهم وبيعتُهم ». فقال: «لا تأتهم»، فأبي، فقال ابن عمر: « إني محدِّثُك حديثًا؛ إنَّ جبريَل أتي النبيَّ ﷺ فخيَّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرةَ ولم يُردْ الدنيا، وإنك بُضْعةٌ من رسول الله ﷺ، والله ما يليها أحدٌ منكم أبدًا – يعني الخلافة والإمارة – وما صرَفَها اللهُ عنكم إلا للذي هو خيرٌ لكم». فأبي الحسينُ أن يرجع. قال: فاعتنقه ابن عمر وبكي، وقال: « أستودعك الله من قتيل»[2]. وكان يقول: « غَلَبَنا الحسينُ بن عليّ

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢٧ / ٤٧٠) .

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٢)، ابن حجر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٠٧).

بالخروج، ولَعَمْري لقد رأي في أبيه وأخيه عبرةً، فرأي من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغي له أن لا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإنَّ الجماعة خير»[1].

وكان ابن عباس ينهاه عن الخروج، وقال له: «أين تريد يابن فاطمة؟ ».فقال: « العراق وشيعتي». فقال: «إني لَكارهٌ لوجهك هذا (أي وجهتك التي تتوجه إليها)، تخرجُ إلي قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك حتى تركهم سُخْطةً وملالاً لهم؟ أُذكِّرُكَ اللهَ أن تُغرِّرَ بنفسك»[2].

وقال أبو سعيد الخدري: «غلَبني الحسين علي الخروج، وقلت له: اتقِّ الله في نفسك، والزم بيتك، ولا تخرجْ علي إمامك» [3] .

وكلَّمه جابر بن عبد الله الأنصاري، وقال: « اتق الله، ولا تضرب الناسَ بعضَهم ببعض، فوَالله ما حُمِدتم ما صنعتَم. فعصاني». وقال له أبو واقد الليثي: «بلغني خروجُ الحسين بن علي، فأدركتُه بملَل[4]، فناشدتُه الله أن لا يخرج، فإنه يخرج في غير وَجْه خروج، إنما خرج يقتل نفسَه. فقال : لا أرجع»[5] .

وكان سعيد بن المسيَّب – وهو من كبار التابعين وسادة العلماء، ودخل في طاعة يزيد بن معاوية، وأعطاه بيعته - يَودُّ لو أن الحسين صبر علي يزيد، وبقي في المدينة، وقال في ذلك: « لو أنَّ حسيناً لم يخرج كان خيراً »[6].

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٨٢).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٦) .

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٨٢-٦٨٣) .

(٤) ملل : اسم واد ينحدر من جبل مزينة ، ويستمر إلي البحر، في طريق مكة، قرب المدينة .

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٠٨)، ابن كثير :البداية والنهاية (٤/ ٦٨٢-٦٨٣) .

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٣٨٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٧).

هكذا لم يقبل الحسين بن علي نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس، وعَدَلَ عن رأي شيخ الصحابة ابن عمر، ولم تُجْدِ معه كلُّ هذه المحاولات المبذولة من الأحبَّاء والألبَّاء لمنعه من المسير إلي العراق.

ولم يكن موقف محمد ابن الحنفية من خروج أخيه الحسين إلي الكوفة لخلع يزيد يختلف عن الموقف الذي اتخذه هؤلاء الأفاضل من الصحابة والتابعين. ويتضح ذلك في الأمور الآتية:

١- كان متمسكاً بالبيعة ليزيد، في حياة معاوية وبعد موته (كما سبق القول)، وحمده الأمويون علي ذلك، وأقرُّوا له بالجميل.

٢- كان ابن الحنفية يحذِّر أخاه الحسينَ من غَدْر أهل الكوفة. وقد جاءه وفدٌ منهم يُحرِّضونه علي خلع معاوية نفسه، والخروج معهم إلي الكوفة، فرفض، وأخبر الحسينَ بمجيئهم، وقال له: « إنَّ القوم يريدون أن يأكلوا بنا، ويشيطوا بدمائنا»[١].

٣- أقام ابن الحنفية في المدينة، ولم يخرج مع الحسين في انتقاله إلي مكة، وفي صحبته أختاه: أم كلثوم، وزينب، وإخوته: جعفر، والعباس، وأبو بكر (أبناء عليّ)، وأبناء أخيه الحسن، وعامة مَن كان في المدينة من أهل بيته[٢]. وبعد وصول الحسين إلي مكة أسرع ابن الحنفية ليدركه قبل أن يتحرك إلي الكوفة، فأدركه، وأعلمه أنه لا يوافق علي خروجه، فأبي الحسين أن يقبل[٣]. وقد سجَّل ابن الأثير الجزَري هذا الموقفَ بقوله: «كان الحسين قد امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية لما بايع له أبوه بولاية العهد، فلما توفي معاوية لم يبايع أيضاً، وسار من المدينة إلى مكة، فأتاه كتب أهل الكوفة وهو

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبري (٥/ ٣٨٨) المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٤١٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٨٠).

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال (١/ ٢٢٨).

(٣) المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٤٢١)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٢/ ٥٨)، المقريزي: المقفي الكبير (٣/ ٥٨٠).

بمكة، فتجهَّز للمسير، فنهاه جماعة، منهم: أخوه محمد ابن الحنفية، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم»[1].

ولَمَّا لم يَجدْ من الحسين بُدَّاً لمنْعه من الخروج قدَّم له النصيحة، وقال له: - كما في رواية للطبري اختصرها ابن كثير -: « والله يا أخي لأنتَ أعزُّ أهل الأرض إليَّ، وإني ناصحٌ لك، لا تدخُلَنَّ مصْراً من هذه الأمصار، ولكن اسكن البوادي والرمال، وابعث إلي الناس، فإذا بايعوكَ واجتمعوا عليك فادخل المصْرَ، وإن أبيتَ إلا سُكْنى المصْرِ فاذهبْ إلي مكة، فإن رأيتَ ما تحبُّ، وإلَّا ترفَّعْتَ إلي الرمال والجبال »[2].

٤- منع ابن الحنفية أولادَه من الانضمام إلي عمِّهم الحسين ﷺ والمسير معه إلي الكوفة. وقد أثَّر هذا الموقفُ في نفس الحسين وقال لمحمد: « ترغبُ بولدك عن موضعٍ أُصابُ فيه؟! فقال: « وما حاجتي أن تُصابَ ويُصابُوا معك، وإن كان مُصيبتُك أعظمَ عندنا منهم »[3].

وتفسير هذا الرفض من ابن الحنفية – إضافة إلي وجود بيعة في عنقه ليزيد بن معاوية – أنه توقَّع خذلانَ شيعة الكوفة للحسين. ولا بد أن يكون قد استصحب ما رآه بعينه من جند أبيه علي، حينما أراد أن يتحرك إلي قتال معاوية وأهل الشام فلم يجد منهم همة ولا عزماً، كان يعقد لواءه ويحلف ألا يحلّه حتي يسير فيأبى عليه الناسُ، ويجبُنون فيحلّه، ويكفّر عن يمينه، حتي فعل ذلك أربع مرات، فكلم ابن الحنفية المسور بن مَخرمة وقال له: « ألا تكلمه أين يسير بقومٍ لا واللهِ ما أري عندهم طائلاً »، فأجابه المسور: « قد كلمته فرأيتُه يأبي إلا المسير»[4].

---

(١) ابن الأثير: أسْد الغابة في معرفة الصحابة (١/ ٢٦٥).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٣٤١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٣).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢١١- ٢١٢)، المزي: تهذيب الكمال (٦/ ٤٢١)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٢/ ٥٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٨٥)، المقريزي: المقفَّي الكبير(٣/ ٥٨٠).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧/ ٩٥).

هذا، وقد أظهر ابن الحنفية حزنه الشديد علي قتل الحسين، فحين بلغه خبر مقتله – وكان يتوضأ في طَسْت[1] – بكي حتي سُمع وَكْفُ دُمُوعه[2] في الطَّسْت[3]. وروى ابن عساكر – من طريقٍ الواقدي – : أن محمد ابن الحنفية كَان في مجلس بحضرة عبد الله بن عباس، فجاءهم نعي الحسين، فقال ابن عباس: « يا أبا القاسم، ما هو إلا أن خرج من مكة فكنت أتوقعُ ما أصابه »، فقال ابن الحنفية: « وأنا والله، فعند الله نحتسبُه، ونسأله الأجر وحُسنَ الخلف »[4]. وكان إذا ذُكر عنده مقتل الحسَين يقول – في حزن وأسى – : « لقد قُتل معه سبعة عشر ممن ارتكض في رحم فاطمة رضي الله عنها »[5].

وبعد مقتل الحسين قدم ابن الحنفية الشامَ علي يزيد بن معاوية، وبايع له، فأدناه يزيد وقرَّبه، وأكرمه ووصله، وعزّاه في أخيه الحسين[6].

وتفسر بعض المراجع الشيعية موقف ابن الحنفية من خروج الحسين تفسيراً آخر يختلف عن الروايات الواردة في المصادر التاريخية، ففي (دائرة المعارف بمقتبس الأثر ومجدد ما دثر) لمحمد حسين الأعلمي ما يشير إلي أن تخلُّفَ ابن الحنفية عن الحسين « لعله كان لعذرٍ أو مصلحة، والرواية الواردة في ذمِّه لذلك – إن كانت صحيحة – فلعله أيضًا كانت لمصلحة »[7]. لكنْ لم يذكر لنا الأعلمي نوعَ المصلحة التي رآها ابن

---

(١) وَكَفَ الماءُ، يكفُ وَكْفًا : سال وقطر قليلا قليلا . ووكف العينُ الدَّمْعَ :أسالتْه. ويقال: وكفت العينُ بالدمع.

(٢) الطَّسْت: إناء كبير من نحاس أو نحوه يغسل فيه. والجمع: طسوت.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٣٩٤). وفي رواية البلاذري (أنساب الأشراف ٣ / ٣٧٧): أن ابن الحنفية حين علم بخروج الحسين بكي، حتي سمع وقع دموعه في الطست.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٩ / ٢١٤).

(٥) الطبراني: المعجم الكبير (٣/ ١٠٣)، المقريزي: المقفَّى الكبير (٣/ ٦٠٨).

(٦) ابن أعثم: كتاب الفتوح (٥/ ٢٥٨، ٢٦١)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٠). ابن عساكر: تاريخ دمشق دمشق (٦٠ / ٢٩٩).

(٧) محمد حسين الأعلمي: دائرة المعارف بمقتبس الأثر ومجدد ما دثر (٢٨ / ٢٥٧-٢٥٨) [طـ : مؤسسة الأعلمي الأعلمي للمطبوعات، طهران، قم، كربلاء، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧١م=١٣٩١هـ].

الحنفية التي تمنعه من تأييد الحسين. كما لم يذكر تلك الرواية الشيعية الواردة في ذم ابن الحنفية. وقد سبق القول إن المصادر التاريخية أجمعت علي عدالة ابن الحنفية، وحسن علاقته بأخويه الحسن والحسين رضي الله عنهما. ثم نقل الأعلمي من (سؤالات مهنّا ابن سنان): « هل ذكر أصحابنا لمحمد ابن الحنفية عذراً في تخلُّفه عن الحسين عليه السلام، وعدم نُصرته له بالطَّفِّ[1] أم لا ؟ وكيف يكون الحال إن تخلّف عنه لغير عذر، وكذلك عبد الله بن جعفر[2] وأمثاله ؟». وكانت الإجابة: « أما تخلُّفه عن نُصرة الحسين فقد نُقل أنه كان مريضاً. ويُحتمل في غيره عدمُ العلم بما وقع لمولانا الحسين عليه السلام »[3].

وقد علَّق الأعلمي علي هذا النقل بقوله: « ما نُقل من كونه مريضاً – إن صحت – فإنما هو عند رجوع إلي أهل البيت إلي المدينة، لا عند ذهاب الحسين كما لا يخفي علي من راجع الأخبار والسير »[4].

ويتابع الأعلمي كلامه، مبيناً أن الحسين تحرك إلي الحجاز – وإن كان يدري هو أنه يُستشهد بالعراق – إلا أنه في ظاهر الحال لم يكن يمضي إلي الحرب، ومن ثمَّ يجب علي كل مُكلَّف متابعته، وإنما كان يمضي لعلم « الإمامة » بمقتضي أهل الكوفة، ومن هنا فالمتخلِّف عنه ومنهم ابن الحنفية – غير مؤاخذ بشئ، وإنما يُؤاخذ لترك نصرته من حضر « الطَّفّ »، أو كان بالقرب منه علي وَجْه يمكنه الوصول إليه ونصرته. فالمتخلفون بالحجاز لم يكونوا علي وجه يمكنه الوصول إليه ونصرته حتي يوجب تخلُّفهم الفسقَ.

---

(١) الطفُّ: أرض من ضاحية الكوفة، مشرفة على أرض السواد، فيها عدة عيون ماء جارية، وفيها كان مقتل الحسين رضي الله عنه وتُعرف اليوم بكربلاء.وإنما سُمِّي طفا لأنه قريب من الريف، من قولهم (خُذْ ما طَفَّ لك واستَطَفَّ) أي: ما دنا وأمكن (ياقوت: معجم البلدان ٣ / ١٦٦).

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. كان معارضا لموقف الحسين، ونصحه بترك الخروج إلي العراق (ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٦٨٣) .

(٣) محمد حسين الأعلمي: دائرة المعارف بمقتبس الأثر ومجدد ما دثر (ج٢٨ ص٢٥٨).

(٤) السابق، والجزء والصفحة.

والحقُّ أن هذا التفسير الشيعي لموقف محمد ابن الحنفية من خروج أخيه الحسين بأنه إنما تخلَّف عن نُصرته لمصلحة يريد تحقيقها، أو لأنه كان مريضاً، أو لأن نُصرته للحسين لم تكن واجبة عليه، لأن الحسين لم يكن يخرج أصلاً للقتال، كلُّ ذلك ما هو إلا مجرد تبرير وبحث عن مخرج لتلك الروايات التاريخية الكثيرة التي تؤكد علي أن امتناعه من تأييد الحسين إنما كان لعدم رضاه عن تصرف الحسين، خوفاً عليه من غدر أهل الكوفة، إضافةً إلي وجود بيعة في عنقه ليزيد بن معاوية، وأن الخروج عليه ليس فيه مصلحة شرعية راجحة.

موقف ابن الحنفية من خروج أهل المدينة علي يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ/٦٨٢م)

في (سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م) ثار جَمْعٌ كبير من أهل المدينة علي الخليفة يزيد بن معاوية، وخلعوا طاعته. وقصة بداية هذه الثورة[١] بدأت حين عزل يزيد ابنَ عمه « الوليدَ بن عُتْبة بن أبي سفيان » عن ولاية المدينة، بناءً علي رغبة « نَجْدة بن عامر الحنفي – من رؤساء الخوارج – الذي اتهم « الوليد » بالحمق وعدم الرشد في تدبير الأمور، وطلب منه أن يُعيِّن والياً آخرَ يكون قادراً علي إصلاح الأحوال وجَمْع الكلمة. وقد استجاب الخليفة يزيد لتلك الرغبة، وعزل « الوليد بن عتبة » وولي مكانه « عثمان بن محمد بن أبي سفيان »[٢] (ابن عم يزيد)، فاستهل عهده بالإحسان إلي أهل المدينة، ثم بعث منهم وفداً إلي يزيد في دمشق، فيهم عبد الله بن حَنظلة الأنصاري، ومعه أبناؤه الثمانية، والمنذرُ بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن مُطيع العدوي، وغيرهم من أشراف المدينة ووجوههم، وذلك (سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م)، فأكرم يزيد وفادتهم، ومنحهم جوائزَ ماليةً

---

(١) أحداث ثورة أهل المدينة وموقعة الحرَّة: تُراجع في الطبري : تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٤٨٢)، خليفة بن خياط: التاريخ (ص٢٣٦ وما بعدها)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤/ ٤٥٥- ٤٦٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٤٧-٧٥٠).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٨/ ٢٠٨)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٧٤٧).

كبيرة. فلما عادوا إلي المدينة قابلوا هذا الإحسان بالإساءة والعصيان، وأعلنوا الثورة علي يزيد، وخلعوا طاعته، وأظهروا شتمه[1] ، فلما سألهم الناسُ عن سبب ثورتهم – وقد أكرمهم الخليفة وأعطاهم – قالوا: « قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، وتَعْزِفُ عنده القيانُ، قد خلعناه »[2]. ثم حضُّوا الناس علي المخالفة والخروج، فتجرأ جماعَاتٌ من أهل المدينة علي خلع الخليفة، وولوا علي القرشيين: عبدَ الله بن مطيع، وعلي الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، واجتمعوا في المسجد عند المنبر، فجعل الرجل منهم يقول: « خلعتُ يزيد كما خلعتُ عمامتي هذه »، ويلقيها عن رأسه. ويقول آخر: « قد خلعتُه كما خلعتُ نعلي هذه ». ثم اتفقوا علي إخراج أمير المدينة « عثمان بن محمد بن أبي سفيان »، وطرْدِ بني أمية وإجلائهم[3].

وليس صحيحاً أن جميع أهل المدينة خلعوا يزيد، أو أن جميعَ رؤسائهم وأشرافهم رضوا بذلك، فقد اعترض أكثر علماء المدينة، ولم يُؤيِّدوا من قام بذلك، وكان أغلب من يمثل هذا الموقف جماعةٌ من أفاضل الصحابة، أمثال عبد الله بن عُمر، وعبد الله بن عباس، ومحمد ابن الحنفية. ومن التابعين: علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسعيد بن المسيّب، وغيرهم. وبعضُ هؤلاء تَصدَّي لمحاورة زعماء الثورة، ومحاولة إقناعهم بالحفاظ علي بيعة الخليفة، وبيَّنوا لهم بطلان ادِّعائهم فسوق يزيد[4]. كما أن جماعة من سادات الصحابة اعتزلوا هذه الفتنة، منهم جابر بن عبد الله، وأبو

---

(١)خليفة: التاريخ (ص ٢٣٧)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٦/ ٢٥٩)، (٢٧/ ٤٢٧-٤٣١)، (٥٧/ ٢٥٩).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٧٤٨).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٧ / ١٢٥)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٥٠).

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧١)، الإمامة والسياسة، المنسوب لابن قتيبة (١/ ٢١٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٥٠ – ٧٥١).

سعيد الخدري رضي الله عنهما [1].واحتفظتْ جماعاتٌ كاملة من أبناء المهاجرين والأنصار ببيعتهم ليزيد ، « ولم يخرج أحدٌ من آل أبي طالب، ولا من بني عبد المطلب في وَقْعة الحرَّة » (كما يقول الإمام محمد الباقر)[2].

ونتوقف هنا لبيان موقف محمد ابن الحنفية من زعماء الثورة حينما حرَّضوه علي خلع يزيد، والانضمام إليهم وتاييدهم، فقد حاورهم وناظرهم، وفند دعَاوَاهم، وردَّ علي حُججهم، ونفي تلك التُّهمَ التي أثاروها وألصقوها بيزيد في دينه وخُلُقه، وجعلوها أسباباً للخروج عليه ونَقْضِ بيعته.

وكان مما دار بينه وبينهم من الحوار أنهم قالوا له : « اخرج معنا نقاتل يزيد ». فقال لهم: « علي ماذا أقاتله ولم أخلَعْه؟! ». قالوا: « إنه يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدَّى حُكْمَ الكتاب ». فقال: « ألا تتقون الله، هل رآه أحدٌ منكم يعملُ ما تذكرون، وقد صحبتُه أكثر مما صحبتموه، فما رأيت منه سوءاً » (وفي رواية: قال: ما رأيتُ منه ما تذكرون، وقد أقمتُ عنده فرأيتُه مواظباً علي الصلاة، مُتحرِّياً للخير، يسأل عن الفقه، مُلازماً للسنة). قالوا: « إنه لم يكن يُطلعك علي فعْله » (وفي رواية قالوا: فإن ذلك كان منه تَصنُّعا لك). فقال: « أفأطلعكم أنتم عليه؟ لئن فعل إنكم لشركاؤه (إذْ رأيتم شيئاً من المنكر فلم تُغيّروه)، ولئن لم يُطْلِعْكم لقد شهدتم علي غير ما علمتم (فاتقوا الله يا هؤلاء في أنفسكم، وكُفُّوا عما عزمتم عليه، فإني خائف عليكم أن تسفكوا الدماء في غير حق). قالوا : « إنه للحقُّ وإن لم يكن رأيناه ». فقال: « أَبَى اللهُ ذلك علي أهل الشهادة فقال: (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [الزخرف:٨٦] ، ولستُ من أمركم في شيء».

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق (٤/ ٧٥٤). وراجع: ابن عبد ربه: العقد الفريد (٤/ ٣٨٩- ٣٩٠)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٩٤).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٢٥).

وهنا خافوا أن يثبط قُعُودُه الناسَ عن الخروج، فعرضوا عليه أن يبايعوه، إذْ كره أن يبايعَ لعبد الله بن الزبير، وقالوا: «يا أبا القاسم، لعلك إنما تكره البيعة لابن الزبير، لأنك ترى أنك أحقُّ بالبيعة منه، إن كنتَ تكره ذلك لهذا الشأن فاخرج بنا حتي نبايعك ». فقال: « ما أستحلُّ القتالَ علي ما تُريدونني عليه تابعاً ولا مَتْبوعاً ». (فقالوا: يا محمد، أنت قاتلتَ مع أبيك يوم الجَمل، ويوم صفّين، ويوم النهروان). قال:« جيئوني بمثل أبي أقاتل علي مثْل ما قاتل عليه، (والله لا أقاتل أهلَ القبلة، ولا أتبعُ مُولِّياً، ولا أُجْهزُ علي جريح، ولَا أدخل داراً إلا بإذن. قَالوا: والله لا نفارقك حتي تخرجَ معنا، أو تبايعَ مَنْ بايعناه. فقال: والله لا خَلعتُ مَن بايعتُ، وَلا تابعتُ من لم يجعل الله له في عنقي بيعة، فاتقوا الله ربَّكم، واذكروا ما نزل بأخي الحسين بن علي، وولده وإخوته، وبني عمّه وشيعته). فقالوا: « فمُرْ ابنَيْك أبا هاشم والقاسم[1] بالقتال معنا ». قال: « لو أمرتُهما قاتلتُ ». قالوا: « فقُمْ معنا مقاماً تحضُّ الناسَ فيه علي القتال». قال: « سبحان الله، آمُرُ الناسَ بما لا أفعلُه ولا أرضاه، إذاً ما نصحتُ لله في عباده». قالوا: « إذاً نُكرِهُك ». قال: « إذًا آمُرُ الناسَ بتقوى الله، ولا يُرضُون المخلوقَ بسخط الخالق »[2].

ولما رأى ابن الحنفية الأمورَ تسير في الاتجاه الذي لا يريده وظهر له سوء عاقبة تصرفات قادة الثورة، وعلم بقدوم جيش الشام إلي المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المُرّي قرر تَرْكَ المدينة، وتوجَّه إلي مكة فأقام بها مع عبد الله بن عباس[3].

إن هذا الحوار الطويل الذي دار بين ابن الحنفية وقادة الثورة – وقد فضَّلنا أن نسوقه كاملاً – يتضمَّن عدداً من الحقائق نرصدها في النقاط الآتية:

---

(١) سبق ذكر أسماء أولاد ابن الحنفية، وأسماء أمهاتهم(ص ١٨ – ٢٠). وكان ابن الحنفية يكني باسم ابنه(القاسم).

(٢) اعتمدتُ في سرد هذا الحوار علي عدد من الروايات، وقمت بدمج بعضها في بعض، في سياق واحد – يرجع إلي ابن الأعثم: كتاب الفتوح (٥/ ٢٦١)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٦٩)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨١ – ٢٨٢) .

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧ /١٠٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ /٣٣٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧).

١ – كان ابن الحنفية يرى أن يزيد بن معاوية خليفةٌ شرعي، وله في أعناقهم بيعة، وقد شاركه في هذا الموقف غيرُه من الصحابة وأشراف الناس في المدينة، وهم يرون أن نقض البيعة لا يجوز، وأن فسوق الحاكم لا يُوجب خلعه و الخروج عليه بالسيف. وأبرز هؤلاء الذين أنكروا علي قادة الثورة : عبدُ الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، جاء إلي عبد الله بن مطيع وحذَّره الخروجَ من الطاعة، وخوَّفه أن يهلك علي الفوضى لا إمام له إن هلك وهو مخالفٌ الجماعة، وقال له: « أتيتُك لأُحدِّثك حديثاً سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية »[١]. ولم يكتف ابن عمر بتحذير زعماء الثورة من الخروج علي الخليفة الشرَعي وتمزيق كلمة الأمة، وإنما جاهد في منعها، وحثَّ الناسَ علي عدم الاشتراك فيها، ومنَعَ أهلَه وأولادَه من ذلك، فيروي البخاري في (صحيحه) عن نافع (مولي ابن عمر) قال: « لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حَشَمَه وولدَه فقال: « إني سمعت النبيَّ ﷺ يقول : يُنصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة، وإنَّا قد بايعْنا هذا الرجلَ علي بيع الله ورسوله، وإنِّي لا أعلم غَدْراً أعظمَ من أن يُبايعَ رجلٌ علي بيع الله ورسوله، ثم يُنصَبُ له القتال، وإنِّي لا أعلم أحداً منكم خَلَعَه ولا بايعَ في هذا الأمر، إلا كانت الفيصلَ بيني وبينه »[٢]. و هذا الموقف من ابن عمر وغيره يؤكد عليه ابن كثير بقوله:« كان عبد الله بن عمر وجماعاتُ أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد، ولا بايع أحداً بعد بيعته ليزيد »[٣] .

---

(١) مسلم بن الحجاج: الصحيح، كتاب الإمارة، باب « وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج من الطاعة، ومفارقة الجماعة » (١٢/ ٢٤٠ بشرح النووي)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٦/ ٤١).

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب الفتن، باب « إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه » (رقم ٧١١١) [فتح الباري ١٣/ ٧٤]. ابن عساكر: تاريخ دمشق (٦٥ / ٢١٠)، مسند الإمام أحمد (٣/ ٤٨٩٦) ابن سعد: الطبقات الكبري (٤/ ١٧٠ – ١٧١).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٦٨).

والراجحُ لدينا أنَّ هذا الموقف الذي اتخذه ابن الحنفية وكلُّ مَن شاركه من الصحابة والتابعين في موقفه من ثورة أهل المدينة، ومن خروج أخيه الحسين قبل ذلك صار لهم كالمذهب في قضية تحريم الخروج علي الحاكم لخلعه، به يأخذون، وعنه يصدرون، لسببين؛ الأول: ما ورد في القرآن الكريم من آيات تُوجب طاعة الخلفاء والأمراء، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) [النساء : ٥٩]، فقرن طاعةَ أولي الأمرَ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ. والثاني: مَا ثَبَتَ عن الرسول الكريم من أحاديث كثيرة، تدعو إلى طاعة الخلفاء والأمراء، وتحضُّ على توقيرهم، وتُحذِّر من الخروج على سلطانهم وإن مَنَعوا الحقوق، وتأمر بالصبر على جَوْرهم وظلمهم واستئثارهم. وبعضُ هذه الأحاديث في وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول. وفي وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال. وفي حُكم مَن فرَّقَ أمر المسلمين وهو مجتمع[1]. إضافة إلى الأحاديث الواردة في بيان خطورة الفتن، والتحذير من الاشتراك فيها، والنهي عن القتال مع أي من أطرافها[2].

---

(١) وردت طائفة كبيرة من هذه الأحاديث في كتب الصحاح الستة، وقد أثبت مسلم بن الحجَّاج – خاصة – كثيرًا منها في كتاب الإمارة من صحيحه، ومنها – علي سبيل المثال – : حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (مَن كره من أميره شيئًا فليصبر). وحديث ابن عمر: (من خلع يدًا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حُجَّة له)، و حديث: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره). وحديث أنس بن مالك: (إنكم ستلقَوْن بعدي أثَرة وأمورًا تنكرونها، فاصبروا)، وحديث عبد الله بن مسعود: (إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها). قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: (تُؤدُّون الحقَّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم). وحديث أم سلَمة: (إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع). قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: (لا، ما صَلُّوا). وحديث عوف بن مالك: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويُصلُّون عليكم وتُصلُّون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم، وتَلعنونهم ويَلعنونكم). قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة ،وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تَنزعوا يدا من طاعة). وحديث سلمة بن يزيد الجعفي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أرأيتَ إن قامت علينا أمراء يسألونا حقَّهم، ويمنعونا حقَّنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فقال: (اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتم) [صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ج٣ ص١٤٦٥ – ١٤٩٠ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، أرقام من ١٨٣٤ إلي ١٨٣٩ و من ١٨٤١ إلي ١٩٥٥ و ١٨٦٧] .

(٢) اقرأ ما ذكرناه من كلام ابن الحنفية عن التحذير من الفتن، وبيان خطرها (ص٣٩– ٤١) .

٢- الشهادة ليزيد بن معاوية بحسن السيرة، وذلك في قوله: « ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرتُه وأقمتُ عنده فرأيته مواظباً علي الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة ». وطالبهم بإقامة البرهان علي اتهامهم ليزيد بخلاف ذلك، ومن ثمَّ لم يكن هناك ما يدعو إلي نقض بيعته وخَلْعه من الخلافة.

ويروي البلاذري أن ابن الحنفية وفد علي « يزيد » في دمشق فكان يزيد يسأله عن الفقه والقرآن فلما أراد العودةَ وجاءه يزيد ليودِّعه قال له:« يا أبا القاسم، إن كنتَ رأيتَ مني خُلُقاً تنكره نَزَعْتُ عنه[١] ، وأتيتُ الذي تشير به عليَّ ». فقال: « والله لو رأيتُ منكراً ما وَسعَني إلا أن أنهاك عنه، وأُخبرك بالحق لله فيه، لمَا أخذ الله علي أهل العلم من أن يُبيِّنوه للناس ولا يكتموه، وما رأيت منك إلا خيراً »[٢].

٣-رفض ابن الحنفية العرضَ الذي قدَّمه الثوار إليه، وهو بيعته بالخلافة في مقابل تأييدهم، وكان ردُّه: « لا أستحلُّ القتالَ علي ما تريدونني عليه، تابعاً ولا متبوعاً ». وقال أيضاً : «والله لا خلعتُ مَن بايعتُ، ولا تابعتُ من لم يجعل الله له في عنقي بيعة ». وهذا يؤكد رفضَه التامّ لفكرة الخروج علي السلطان ونقض البيعة، وأن ما حدث من أهل المدينة إنما هو فتنة لا ينبغي الانخراطُ فيها بأي حال. كما يؤكد كذلك علي أنه لم يَسْع إلي طلب الخلافة، ولم يكن « إماماً » كما تدَّعيه فرقة « الكيسانية » الذين يعتقدون بـ « إمامة » محمد ابن الحنفية بوصيةٍ من أخيه الحسين، ثم انتقلت هذه « الإمامة » إلي ابنه أبي هاشم عبد الله[٣].

---

(١) نزعت عنه: تركته.

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٣ / ٤٧٠ - ٤٧١)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨١) .

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٣٩- ٤٠)، الشهرستاني: الملل والنحل (١/ ١٥٢).

٤- حذَّر ابن الحنفية زعماء الثورة من مَغبَّة الفتنة وعواقب نقض البيعة، وذكَّرهم بما حدث لأخيه الحسين ولمن معه من أَولاده وإخوته وبني عمه، وأنَّ خروجهم علي يزيد لم يكن فيه مصلحة.

٥- احتج قادة الثورة علي ابن الحنفية بأنه كيف يمتنع من تأييدهم وقد قاتل هو مع أبيه عليّ ﷺ في « الجمل » و« صفّين» و« النهروان» ؟ فقال في رده عليهم: « جيئوني بمثل أبي أقاتل علي مثل ما قاتل عليه ». ويشير هذا إلي أن موقفه من تأييد والده في حروبه مع مخالفيه يختلف عن موقفه من تأييدهم في خلع يزيد بن معاوية ونقض بيعته، ففي الحالة الأولي كان علي بن أبي طالب هو الخليفةَ الشرعي، وقاتل معاويةَ وأهلَ الشام، واعتبرهم فئةً باغيةً يجب قتالُهم لردّهم إلي الجماعة. كما أنه قاتل أهلَ الجمل، لأنهم – وإن كانوا بخرجونهم إلي البصرة أرادوا الإصلاح والبحث عن قتلة عثمان – فإنهم صاروا « كما لو أنهم أقاموا حكومةً أخري غير حكومة الإمام المبايع شرعاً من الأمة، وهو الذي يُناط به – وحده – إقامةُ الحدود والقصاص من القتلة» [١]. إضافةً إلي أن « السَّبئية » هم الذين أشعلوا القتال بين الفريقين، فقامت حرب الجَمَل[٢].

ومن كلام ابن الحنفية الذي يوضح فيه موافقته أباه في قتال مخالفيه في « الجمل » و« صفّين » وقتال الخوارج في « النهروان »: « إنَّ أبي بايعه أهلُ الأمر، فنكث ناكثٌ فقاتله، ومرق مارقٌ فقاتله »[٣].

ومن هنا يري ابن الحنفية أنه محقٌّ في موقفه من نصرة أبيه والقتال معه. أما في حالة يزيد بن معاوية فله في عنقه بيعة، فلا يجوز نقضُها، والخروج عليه لخلعه، ومِن ثَمَّ لا يحلُّ قتالُه.

---

(١) د. عبد الشافي عبد اللطيف: تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة (ص ٥٠٩). .

(٢) عن دور السبئية في إشعال حرب الجمل يُراجع الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤/٥٠٦، ٥٠٧- ٥٠٨، ٥١٢، ٥١٤).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٦-٣٤٧).

٦- وليس لدينا ما يشير إلي أن ابن الحنفية – بعد أن فرغ من محاورة قادة الثورة – حذَّر الناسَ من الانضمام إليهم، غير أنه منع وَلَدَيْه أبا هاشم عبد الله، والقاسمَ من الخروج معهم (كما جاء في الحوار السابق). ثم أسرع هو في الانتقال إلي مكة. ويروي ابن سعد ما يفيد أن ابنيه الحسنَ، وعبدَ الله (أبا هاشم)، لم يشتركا في الثورة مع أهل المدينة، وأنَّ مسلم بن عقبة المرِّي – قائد الجيش الأموي الذي تصدَّي للثورة – استقبَلَهما ورحَّب بهما، وكانا في صحبة ابن عمِّهما عليِّ (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب حينما استدعاه « مسلم » بعد انقضاء الثورة[١].

وفي رواية للبلاذري في (أنساب الأشراف) أن قادة الثورة أخرجوا ابن الحنفية كارهاً ومعه بنوه متسلحِّين، وهو في نَعْل ورداء، ويقول: « يا قوم، اتقوا الله ولا تَسفكوا دماءكم ». فلما رأوه غير منقاد لهم تركوه، فذهب أهل الشام ليحملوا عليه، فدافع عنه أولاده ، فقُتل ابنُه القاسم ، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله[٢].

وقد ذكر ابن عبد البر القرطبي في (التمهيد): أنَّ أحد أولاد محمد ابن الحنفية – واسمه جعفر[٣] – قُتل يوم الحرَّة[٤]. ولا ندري هل انضم جعفر إلي ثوار المدينة، وقتل في معركة الحرَّة، أم كان مقتله علي يد جند الشام لمَّا دخلوا المدينة واستباحوها ثلاثة أيام؟ علماً بأن كلاً من خليفة بن خياط والبلاذري لم يذكراه في القائمة التي ذكر فيها عدد القتلي وأسماءهم من الثائرين[٥] .

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٢١٣).

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف (٣/ ٤٧١)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨٢) .

(٣) جعفر (الأكبر) بن محمد ابن الحنفية، له رواية عن أبيه. وأمه أم ولد ، ويقال اسمها: نائلة (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٩٤).

(٤) ابن عبد البر: التمهيد (١٠ / ٩٣).

(٥)خليفة: التاريخ (ص٣٤٠ – ٢٥٠)، البلاذري : أنساب الأشراف (٥ / ٣٥٠). وعدد الذين ذكرهم خليفة وذكر أسماءهم (من القرشيين والأنصار): ثلاثمائة وستة رجال.

موقف ابن الحنفية من الصراع بين الزبيريين والأمويين
(٦٤ـ ٧٣هـ/ ٦٨٣ـ ٦٩٢م)

لم يكن الهمُّ الأول ليزيد بن معاوية حين ولي الخلافة بعد أبيه في رجب (سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م)، سوي الحصول علي بيعة النفر الذين امتنعوا من البيعة له بولاية العهد في حياة معاوية، وهمْ: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، فكتب إلي نائبه علي المدينة – الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان – بأن « يأخذهم بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا» [١]. وقد استدعى الوليد كلاً من الحسين وابن الزبير لأداء البيعة، فاستمهلاه ولم يُبايعا، وخرجا من ليلتهما إلي مكة، فلقيهما ابن عمر وابن عباس جائيين من مكة، فقال لهما ابن عمر : « اتَّقيا الله، ولا تُفرِّقا جماعة المسلمين ». فلما قدم ابن عمر المدينة أقام أياماً حتى جاءت البيعة من البلدان، فبايع هو وابن عباس، رضي الله عنهما[٢].

وفي رواية أخري للطبري أن « الوليد » بعث إلي عبد الله بن الزبير يدعوه إلي البيعة، فماطله يوماً وليلة، ثم ركب في مواليه، واستصحب معه أخاه « جعفراً » وتحوَّل إلي مكة، وبعث الوليدُ خلفه ثمانين من الفرسان، فلم يقدروا علي ردّه، ثم جمع الحسينُ أهلَه وبنيه بعد خروج ابن الزبير بليلة، وسار هو الآخر إلي مكة، ولم يتخلف عنه سوى أخيه محمد ابن الحنفية، فإنه أبى الخروج معه[٣].

ولما أتى ابن الزبير مكة قال: « إني عائذٌ » – أي بالبيت الحرام – فكان يقال له : « عائذُ بيت الله ». ولم يكن يصلّي بصلاتهم، ولا يُفيض بإفاضتهم في الحج، بل كان يقف هو وأصحابه ناحيةً، ثم يُفيض بهم وحده، ويُصلّي بهم وَحْدَه[٤]. ويظهر لنا أنه كان يفعل ذلك لعدم إقراره بشرعية البيعة بالخلافة ليزيد بن معاوية.

---

(١)الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٣٣٨).

(٢) الطبري : المصدر السابق (٥/ ٣٤٣).

(٣) الطبري: المصدر نفسه (٥/ ٣٤٠– ٣٤١). ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٦٦٢–٦٦٣).

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٣٤٣)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٣٥٧).

ولم يتَمكَّن يزيد من القضاء علي معارضة ابن الزبير، لامتناعه بمكة. وقد اشتد غضبه عليه، وأقسم ألا يقبل بيعته – إن بايع – إلا أن يُؤْتَى به في جامعة[1]، وأمر عاملَه علي المدينة « عمرو بن سعيد بن العاص » - المعروف بالأشدق – أن يرسل إليه من يأتيه به، فأرسل إليه أخاه عَمرو بن الزبير علي رأس جيش من سبعمائة أو ألف مقاتل(وكان عدواً لأخيه عبد الله بسبب امتناعه من البيعة، وولاه عمرو بن سعيد شرطة المدينة). لكنَّ عبد الله بن الزبير هزم هذا الجيش، وأُسِر أخوه عَمرو، وضُرِب حتي مات في سجنه[2].

وقد ظل عبد الله بن الزبير بعيداً عن متناول الخليفة يزيد، حتي سار إليه مسلم بن عقبة المُرّي لقتاله بأمر من يزيد بعد أن يفرغ من القضاء علي ثورة أهل المدينة في نهاية (سنة٦٣هـ/ ٦٨٢م). فلما انتصر جيش الخلافة علي أهل المدينة في « معركة الحرَّة » في ذي الحجة من السنة نفسها سار مسلم بن عقبة بالجيش إلي مكة أول المحرم (سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م)، لكنه مات في الطريق، وتولي «الحصين بن نُمير السكوني» قيادة الجيش، فزحف به إلي مكة فوصلها لأربع بقين من المحرم (٦٤هـ/ ٦٨٣م) وحاصرها أربعة وستين يوماً. وقد تلاحقت إلي عبد الله بن الزبير جماعاتٌ ممن بقي من أشراف المدينة بعد معركة الحرَّة، فبايعوه، وخرج بمن التفَّ معه لملاقاة جيش الخلافة[3]. وفي هذه الأثناء – وبينما حُصين بن نمير وأصحابُه يقاتلون ابنَ الزبير ويحاصرونه في مكة جاء الخبر بموت الخليفة يزيد بن معاوية في الرابع عشر من ربيع الأول (سنة

---

(١) الجامعة: « الغُلّ » - بضم الغين- وهو ما يوضع في اليد أو العنق.

(٢) كان عمرو بن سعيد الأشدق قد عيَّن عمرو بن الزبير علي « شرطة » المدينة، وكان مخالفاً لأخيه عبد الله، ورافضاً لموقفه من رفض البيعة ليزيد بن معاوية، فتتبع أصحاب أخيه ومن يهوي هواه، فضربهم ضرباً شديداً، ما بين أربعين إلي خمسين وستين ضربة، وفيهم أخوه المنذر بن الزبير وابنه محمد بن المنذر، وخُبيب بن عبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم (راجع تاريخ الطبري ٥ / ٣٤٤ – ٣٤٧). وراجع: المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٤٥٨). .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٤٩٦- ٤٩٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٤)، ابن كثير : البداية والنهاية (٤ / ٧٥٩ – ٧٦٠).

٦٤هـ/ ٦٨٣م)، فلما علم ابن الزبير بموته صاح في جيش الشام: « عَلَامَ تقاتلون وقد هلك طاغيتُكم. من شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناسُ فليفعل، فمن كره فليلحق بشامه »[١]. وهنا عرض عليه الحصين بن نُمير قائد جيش الخلافة أن يبايعه هو والجندُ الذين تحت إمرته، علي أن ينتقل معه إلي الشام فيأخذ له البيعة علي باقي الجند والقادة في دمشق، ويتم له بذلك أمرُ الخلافة « ولا يختلف عليه اثنان »[٢].لكنَّ ابن الزبير لم يثق في الحصين بن نمير وأغلظ له في المقال، فنفر منه الحصين، وكرَّ بالجيش راجعاً إلي الشام. ثم إن ابن الزبير ندم علي ما كان منه فبعث إليه يقول: « أمَّا الشام فلستُ آتيه، ولكن خُذ لي البيعة علي من هناك، فإني أُؤمنّكم وأعدلُ فيكم ». فردَّ عليه الحصين : « أرأيتَ إن لم تقدُم بنفسك، ووجدتُ هنالك أُناساً كثيراً من أهل هذا البيت[٣] يطلبونها يُجيبُهم الناسُ فما أنا صانع؟ »، ثم عاد بجنده إلي الشام[٤].

ويري البعض أن عبد الله بن الزبير – برفضه الخروج إلي الشام مع الحصين وجنده حيث القوةُ والشوكةُ – قد ضيع فرصة نادرة، وكان من المرجَّح – إذا انتقل إليها[٥] – أن يتم له الأمر، لأن موقف بني أمية قد اضطرب اضطراباً شديداً بعد موت يزيد، ثم تفاقم وازداد سوءاً عقب موت ابنه معاوية بعده بقليل. ولم يكن الأمويون قد تمكنوا بعدُ من إحكام أمرهم لمروان بن الحكم في مؤتمر الجابية أوائل ذي القعدة (سنة٦٤هـ/ ٦٨٣م). ومن أهم ما يعكس تدهور موقف الأمويين تفكير مروان نفسه في الذهاب إلي ابن الزبير في مكة ومبايعته، وذلك لأن معظم الأمصار الإسلامية كانت قد بايعت له؛ البصرة، والكوفة، ومصر، والحجاز، واليمن، وخراسان، حتي الشام –

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٠١)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٣٦٧).

(٢) الطبري: المصدر السابق (٥ / ٥٠٢).

(٣) يقصد الأمويين.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٠١-٥٠٣، ٥٣٠). ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٧٥).

(٥) لم تكن مكة – علي حرمتها ومكانتها – تصلح عاصمة للدولة الإسلامية في ذلك الوقت، لبعدها عن مركز الدولة من ناحية، ولافتقارها إلي الأموال والرجال من ناحية ثانية. ولعل ابن الزبير إذا تركها وانتقل إلي الشام أو العراق لتغير الموقف تغيراً حقيقياً(راجع د.عبد الشافي عبد اللطيف:العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص٤٩٧).

وهي معقل الأمويين ومستقر دولتهم - بايعت له بأسرها، عدا إقليم الأردن بقي وحده علي الولاء لبني أمية بزعامة حسَّان بن بَحْدل الكلبي[1].

ولابد – هنا – من تحديد الوقت الذي أخذ فيه ابن الزبير البيعة لنفسه، لصلة هذا الأمر بتفسير موقف محمد ابن الحنفية حين طالبه ابن الزبير بالبيعة له.

يروي الطبري أن عبد الله بن الزبير لما بلغه خبر مقتل الحسين بن علي ﷺ (العاشر من المحرم سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م) أظهر غضبه الشديد، وترحَّم عليه ولعن قاتليه، وبدأ يُؤلِّب الناس علي بني أمية ويحضُّهم علي مخالفة يزيد، فبايعه خلق كثير في الباطن، وكاتبه أهل المدينة وغيرهم، وقال الناس: « أما إذْ قُتل الحسين فليس ينازع أحدٌ ابنَ الزبير». ثم سأله أصحابه أن يُظهر البيعة لنفسه، فلم يمكنْه ذلك، مع وجود أمير المدينة عمرو بن سعيد الأشدق، وكان شديداً عليه[2]. ومن هنا يري بعض الدارسين أن ابن الزبير أصبح خليفة شرعياً[3]. لكننا نري أن بيعته بالخلافة أصبحت بيعة شرعية صحيحة حينما مات يزيد بن معاوية (الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م)، ومات ابنه معاوية بعده بأيام قليلة ولم يعهد لأحد، وظل الناس بلا إمام ثلاثة أشهر[4]، فدعا ابن الزبير لنفسه، وبُويع في السابع من رجب (سنة٦٤هـ/ ٦٨٣م)[5].«وهذا الأقرب إلي الصواب، ففي هذه الحالة تكون بيعته بيعة صحيحة، لأنها تمَّت وليس

---

(١) اليعقوبي: التاريخ (٢/ ٢٥٥ – ٢٥٦)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٣١ – ٥٣٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٧٦)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٣٦٩)..

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٤٧٥). وراجع ابن أبي شيبة: المصنف (٩/ ٢٥٧)، ابن حجر: فتح الباري (١٢ / ٢٣٨).

(٣) صاحب هذا الرأي د.محمد الطيب النجار: الدولة الأموية في المشرق (ص١٠٣) [طـ : دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة ١٤١هـ/ ١٩٨١م] .

(٤) كان يزيد بن معاوية قد عهد بالخلافة من بعده لابنه معاوية بن يزيد، فبايعه أهل الشام، لكنه أبى، وآثر أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين . ثم لزم بيته أربعين يوماً، وقيل: ثلاثة أشهر، ولم يخرج منه حتى تُوفي دون أن يعهد لأحد. وكان الضحاك بن قيس الفهري يُصلّي بالناس، ويُدبّر الأمور، حتى يجتمع الناسُ علي إمام (ابن الاثير: الكامل ٤/ ٤٦٨، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٧٧٧).

(٥) خليفة بن خياط : التاريخ (ص٢٥٤).

للمسلمين خليفة، وتمت قبل بيعة مروان بن الحكم في الجابية في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ، ويكون موقف ابن الزبير أقوى من الناحية الشرعية من موقف مروان »[١].

وقد أخطأ ابن الزبير حين أمر بطرد رجالات بني أمية من المدينة عند وفاة يزيد، وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك[٢]؛ فقد أعطاهم الفرصة لجمع شَمْلهم مع أنصارهم في الشام، أو الذين جاءوا إليها من الأمصار الأخرى، مما كان له أكبر الأثر في عقد مؤتمر الجابية، وبيعة مروان بالخلافة[٣]. « وكانت الحكمة تقضي بأن يُبقيهم في المدينة، ولو حدث ذلك كان من العسير إقامةُ الدولة الأموية من جديد، خصوصاً بعد أن كانت معظم أقاليم الشام قد بايعت ابنَ الزبير »[٤].

هذه هي الخطوط العامة والمعالم الرئيسية للأوضاع السياسية التي استُجدَّت بعد موت يزيد بن معاوية فيما يتعلق بعبد الله بن الزبير منذ أن خرج من المدينة رافَضًا البيعة ليزيد، وإلى أن خضعتْ له معظم الأمصار والبلدان وقامت له دولةٌ بعد موت يزيد في أشهر قليلة، ثم بايع الأمويون شيخَهم وكبيرَهم مروان بن الحكم الذي استطاع أن ينتزعَ الشام ومصر من دولة الزبيريين[٥]، ثم توفى في مستهل رمضان (سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م) بعد تسعة أشهر من ولايته، وتولى بعده ابنُه عبد الملك[٦]، ليواصل مسيرة أبيه في المواجهة، حتى نجح في القضاء علي الدولة الزبيرية، وانفرد هو بالملك بمقتل عبد الله بن الزبير مُحاصراً في مكة بجيش الحجاج بن يوسف الثقفي في جمادي الأولى (سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م)[٧].

---

(١) د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف : العالم الإسلامي في العصر الأموي (ص٤٩٨).

(٢) اليعقوبي: التاريخ (٢/ ٢٥٥)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٥٣٠)، ابن الأثير: الكامل (٣ / ٤٧٧- ٤٧٨)، البداية والنهاية (٤/ ٧٧٦).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٣٠).

(٤) د. عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي (ص٤٩٩).

(٥) راجع التفاصيل في الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٣٥- ٥٤٤)، ابن الأثير: الكامل (٣/ ٤٨٣).

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٦١٠-٦١١)، ابن الأثير : الكامل (٤ / ١٣- ١٤).

(٧) قال ابن حجر في (الإصابة ٤ / ٩٥) عن تاريخ مقتل ابن الزبير: « هذا هو المحفوظ، وهو قول الجمهور ».

وفي ظل هذه الأوضاع السياسية من الصراع بين الزبيريين والأمويين نتوقف لنتعرف علي رؤية محمد ابن الحنفية، وكيف تعامل معها بحكمة وحُنكة، مع مقارنتها برؤية أعلام عصره، كابن عباس، وابن عمر، وغيرهما من كبار الصحابة والتابعين.

كان محمد ابن الحنفية في المدينة حين أعلن أهلها الثورة علي يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م). وقد حاول زعماؤها – كما سبق القول – إقناعَه بمشروعية موقفهم، وطالبوه بالانضمام إليهم، فعجزوا عن ذلك، وحاورهم بالحُجّة، وحاول مَنْعَهم، وأبان لهم عن عواقب الخروج علي السلطان ونَقْض بيعته، فلما لم يستجيبوا لنُصْحه، وسمع بدُنُوِّ جيش الخلافة بقيادة « مُسلم بن عقبة المُرّي» رحل إلي مكة، فأقام بها مع عبد الله بن عباس ﷺ[1]. ويشير مؤلف كتاب (أخبار الدولة العباسية) إلي أنَّ ابن عباس وابن الحنفية أتيا مكةَ بعد وَقْعة الحرَّة، واعتزلا الفتن[2]. فلما مات الخليفة يزيد ابن معاوية قوي أمر عبد الله بن الزبير، خصوصاً بعد أن فكَّ الحصينُ بن نُمير الحصارَ عن مكة، وعاد بجنده إلي الشام، وأعلن ابنُ الزبير البيعة لنفسه بالخلافة، وبايعه الناسُ وخضعت له أكثر الأمصار والبلدان، وراسله أهلُها بالبيعة. وحينئذ بدأ يُوجّه نظَره إلي شيوخ الصحابة ومشاهير التابعين الذين يقيمون معه في مكة، كابن عباس، وابن عمر، وابن الحنفية، وحاول جاهداً الحصولَ علي بيعتهم، نظراً للمكانة الدينية والاجتماعية التي يتمتعون بها، ولإضفاء الشرعية علي إعلان « الخلافة » لنفسه. لكنه فُوجئ بامتناع هؤلاء الفضلاء من مبايعته ورَفْضِ الإذعان والخضوع لرغبته.

يروي ابن سعد في (الطبقات) عن الواقديَ قال: « ... وأقام ابن الحنفية بالمدينة حتي سمع بدُنُوّ جيش مُسْرف[3] وأيام الحرَّة، فرحل إلي مكة فأقام مع ابن عباس، فلما

---

(١) ابن سعد: الطبقات (٧ / ١٠٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٨ / ٢٠٣)، (٥٤ / ٣٣٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١١٧-١١٨).

(٢) أخبار الدولة العباسية، لمؤلف مجهول (١ / ٩٩).

(٣) المراد : مسلم بن عقبة المري قائد الجيش الأموي المتوجه لقتال أهل المدينة، فسفك دماء الناس وأنهب المدينة ثلاثة أيام فسموه مسرفاً (ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٧٥٣)..

جاء نَعْيُ يزيد بن معاوية وبايع ابنُ الزبير لنفسه ودعا الناسَ إليه : دعا ابنَ عباس ومحمدَ ابن الحنفية إلي البيعة له، فأبيا يُبايعان له، وقالا: (حتي يجتمعَ لك البلادُ ويتَّسقَ لك الناسُ، وما عندنا خلاف). فأقاما علَي ذلك ما أقاما، فمرةً يُكاشرهما[1]، ومَرةً يلينُ لهما، ومرةً يُباديهما، ثم غلَّظ عليهما، فوقع بينهم كلامٌ وشرٌّ، فلم يزل الأمرُ يَغلُظُ حتى خافا منه خوفاً شديداً، ومعهما النساء والذرِّية، فأساء جوارَهم، وحَصَرَهم وآذاهم ، وقَصَد لمحمد ابن الحنفية، فأظهر شَتْمَه، وعَيَّبه، وأمره وبني هاشم أن يَلْزَموا شعْبَهم بمكة، وجعل عليهم الرُّقباءَ، وقال لهم: والله لتُبايِعُّن أو لأحرِقنَّكم بالنار. فَخافوا علي أنفسهم »[2].

ونستنبط من هذه الرواية عدداً من الملاحظات، نسجلها في النقاط الآتية:

١- مبادرة ابن الزبير الإعلان عن الخلافة لنفسه بمجرد علمه بموت يزيد بن معاوية، ورجوع الحصين بن نُمير بجيشه إلي الشام.

٢- إسراعه في دعوة أشراف مكة للبيعة له بالخلافة، وخصوصاً بني هاشم، وفي مقدمتهم محمد ابن الحنفية، وعبد الله بن عباس.

٣- إعلان ابن عباس وابن الحنفية رفضَهما البيعة لابن الزبير. وكانت حُجَّتُهما في ذلك قولهما: « حتي يجتمعَ لك البلادُ، ويتَّسقَ لك الناسُ، وما عندنا خلافٌ ». وفي رواية لصاحب « أخبار الدولة العباسية »: « إنَّا لا نبايع إلا مَن اجتمعتَ عليه الأمةُ، فإذا اجتمعت عليك الأمةُ بايعناك، وكنَّا أُمةً من الناس »[3].

٤- تكرار محاولة ابن الزبير معهما للحصول علي البيعة، باللين تارة، وبالتغليظ والتعنيف – لاسيما مع ابن الحنفية – تارة أخرى، حتى تطور الأمر إلي حِصارهما مع

---

(١) كَشَرَ عن أسنانه كَشْرًا : كشف عن أسنانه وأبداها عند الضحك وغيره . وكشَرَ العدوُّ عن أنيابه: تنمَّر وأوعد كأنه سبُعٌ.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧ / ١٠٢)، الدينوري: الأخبار الطوال (١/ ٢٦٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٣٨-٣٣٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ / ١٧١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١١٨)،

(٣) أخبار الدولة العباسية – لمؤلف مجهول (١ / ٩٩).

أنصارهما من بني هاشم في شِعْبهم بمكة، وتشديد الرقابة عليهم، وتهديدهم بالإحراق.

وتشير رواية للواقدي إلي أن عبد الله بن الزبير سلك مسلك التدرُّج في محاولة الحصول علي البيعة من ابن الحنفية وابن عباس، ففي البدء حاول ذلك باللين عندما أعلن نفسه خليفةً عقِبَ موت يزيد بن معاوية (٦٤هـ/ ٦٨٣م)، ثم لا يزال يُراوضهما ويُداريهما، ويُلحُّ عليهما، وهما يأبيانِ عليه ويرفضان البيعة له، إلا إذا انفرد بالملك واجتمعت عليه الأمة. وقد ظل الموقف علي هذا الحال من التجاذب، « حتى إذا كانت سنة ست وستين غلَّظ عليهما، ودعاهما إلي البيعة، فأبيا »[١].

وتفسر رواية أخرى للواقدي عن عروة بن الزبير السببَ الذي جعل عبدَ الله بنَ الزبير يلجأ إلي أسلوب التهديد والوعيد لإجبار ابن الحنفية وابن عباس علي البيعة، وهو ظهور المختار بن أبي عُبيد الثقفي في الكوفة (في ربيع الأول عام ٦٦هـ/ ٦٨٥م) يطلب بدم الحسين بن علي ﷺ، وادَّعي أنه مبعوث من قِبل محمد ابن الحنفية[٢]، وحينئذ – وكما يقول عروة في الرواية – « تنكَّر له عبد الله بن الزبير»[٣]، وخاف أن يميلَ الناسُ إليه ويُقدِّموه، فألحَّ عليه وعلي أصحابه في البيعة، وتوعَّدهم بالقتل والإحراق، وحدَّد إقامتَهم في شِعْب بني هاشم، بل وحبس ابنَ الحنفية في حُجْرة زَمْزم ومن كان معه من أهل بيته، وسبعةَ عشَرَ رجلاً من وجوه أهل الكوفة، فيهم الصحابي

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٨ / ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) سيأتي الحديث عن موقف ابن الحنفية من دعوة المختار (ص١٢٢).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٢ – ٣٤٣).

أبو الطُّفيل عامر بن واثلة [1]، وأعطى اللهَ عهداً إن لم يبايعوا أن يُنفِّذ فيهم ما تَوَعَّدَهم به، وضربَ لهم في ذلك أجلاً[2].

وفي رواية لليعقوبي: « أخذ ابنُ الزبير محمدَ ابن الحنفية، وعبدَ الله بن عباس، وأربعةً وعشرين رجلاً من بني هاشم ليبايعوا له، فامتنعوا، فحبسهم في حُجْرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لَيُبايعُنَّ أو لَيحرقَنَّهم بالنار »[3].

ويروي البلاذري أن ابن الزبيرَ طلب منَ السبعة عشر الكوفيين الذين كانوا مع ابن الحنفية، أن يبايعوه، فاعتذروا له، وقالوا: « نحن قوم من أهل الكوفة اعتزلنا أمر الناس حين اختلفوا، وأتينا هذا الحرم لئلا نُؤذي أحداً ولا نُؤْذَى، فإذا اجتمعت الأمة على رجل دخلنا معهم فيما دخلوا فيه، وهذا مذهبُ صاحبنا، ونحن معه عليه، وله صحبناه»[4].

وقد أبان ابن الحنفية عن موقفه مرةً أخرى من البيعة لابن الزبير حينما دخل عليه – وهو محبوس في زمزم، والناسُ يُمنَعون من الدخول إليه – رجلٌ يُدْعى « سُليم أبو عامر »، وسأله: ما بالُك وهذا الرجلَ؟ فقال: « دعاني إلي البيعة، فقلت: إنما أنا من المسلمين، فإذا اجتمعوا عليك فأنا كأحدهم، فلم يَرْضَ بهذا مني »[5].

---

(١) أبو الطفيل: عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو ، الليثي، الكناني. رأي النبيَّ ﷺ وأدرك من حياته ثماني سنين. وروى الحديث عن بعض الصحابة، كأبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاذ، وابن مسعود، وابن عباس. وكان من شيعة علي وحضر معه حروبه. توفي بمكة سنة (١١٠هـ)، وهو آخر من مات من الصحابة (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣ / ٤٦٧ – ٤٦٩ ، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣ / ٢٣١).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ٧٦)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٢)، ابن الأثير: الكامل (٤/ ٥٢). المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٢٨٢ – ٢٨٣) . وقد ذكر البلاذري والمقريزي أسماء السبعة عشر الذين كانوا مع ابن الحنفية من أهل الكوفة .

(٣) اليعقوبي: التاريخ (٢ / ٢٦١).

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٢) المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨٣) .

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٣٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٨). وراجع أخبار الدولة العباسية ، لمؤلف مجهول (١ / ٩٩).

وأما عن الدور الذي قام به المختار بن أبي عُبيد الثقفي – وكان حينئذ مسيطراً علي الكوفة – في ذلك الحصار الذي ضُرب علي ابن الحَنفية ومن كان معه منً بني هاشم في مكة وإنقاذهم من قبضة ابن الزبير، وهل كان ذلك بطلب من ابن الحنفية أم لا ؟- فقد ورد بشأنه العديدُ من الروايات التي تحمل تفاصيلَ كثيرةً، وفي بعضها قَدْرٌ من المبالغة في تصوير علاقة ابن الحنفية بشيعة الكوفة [1]. ونكتفي هنا بالتقرير الموجز الذي ذكره خليفة بن خياط في (تاريخه)، حيث قال: « دعا ابنُ الزبير ابنَ الحنفية إلي بيعته فأبى، فحصره في شعْب بني هاشم وتَوَعَّدهم، حتى بعث المختارُ أبا عبد الله الجدَلي[2] إلي ابن الحنفية في أربعة آلاف سنة ست (أي سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م)، فأقاموا معه[3] حتى قُتل المختار في رمضان سنةً سبع وستين » [4].

ويقول ابن حجر: « كان ابن الزبير قد دعا محمد ابن الحنفية إلي بيعته، فأبى، فحصره في الشِّعب، وأخافه هو ومن معه مدةً، فبلغ ذلك المختارَ بن أبي عبيد – وهو علي الكوفة – فأرسل إليه جيشاً مع أبي عبد الله الجدلي إلي مكة – وكان صاحب شرطته – فأخرجوا محمدَ ابن الحنفية من محبسه، وكفَّهم محمدٌ عن القتال في الحرم »[5].
»[5].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٣- ١٠٤)، اليعقوبي: التاريخ (٢/ ٢٦١)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ١٧ – ٧٧)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٤ -٤٧٦)، ابن الأثير: الكامل (٤/ ٥٢- ٥٣). المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨٥ – ٢٨٧) .

(٢) أبو عبد الله الجدلي: اسمه « عبد بن عبد » وقيل : « عبد الرحمن بن عبد ». تابعي، ثقة، وعداده في الطبقة الأولي من أهل الكوفة. روي عن سلمان الفارسي، وعائشة، وأم سلمة، ومعاوية، رضي الله عنهم. وقد وثَّقه الإمام أحمد، ويحي بن معين. وكان شديد التشيع. وعيَّنه المختار بن أبي عبيد الثقفي علي شرطة الكوفة (راجع عنه ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٢/ ١٤٨).

(٣) يذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (١/ ٦٧): أنهم أقاموا مع ابن الحنفية ثمانية أشهر إلي أن قُتل المختار.

(٤) خليفة: التاريخ (ص٢٦٢). ونقله الذهبي في : سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٠).

(٥) ابن حجر: تهذيب التهذيب (١٢ / ١٤٩).

وبعد مقتل المختار علي يد مصعب بن الزبير[1]، وانتزاع الزُّبيريين منه العراق توسَّع سلطانُ ابن الزبير، وشجَّعه هذا أن يُلحَّ علي ابن عباس وابن الحنفية لمبايعته، وهما لا يزالان في مكة، وقال لهما – كما في رواية الدينوري في (الأخبار الطوال) – : « إما تُبايعاني، أو تخرجان من جواري ». لكنهما تمسَّكا بموقفهما الأول، وخرجا معاً إلي الطائف، فأقاما بها إلي أن تُوفِّي عبد الله بن عباس بها (سنة٦٨هـ/ ٦٨٧م) وصلَّي عليه ابن الحنفية[2].

ويروي البلاذري أن ابن الزبير أخرج ابنَ الحنفية أولاً، فأنكر عليه ابن عباس، وقال له: « أتُخرج بني عبد المطلب عن حَرَم الله وهم أحقُّ به منك؟ ». فقال له ابن الزبير: « وأنت أيضاً فالحقْ به ». فخرج إلي الطائف، فمات بها ، وأوصى ابنَه علياً بإتيان الشام، والتنحِّي عن سلطان ابن الزبير إلي سلطان عبد الملك بن مروان، فكان عبد الملك يحفظ له ذلك »[3].

وفي السنة التي تُوفي فيها ابن عباس خرج ابن الحنفية من الطائف إلي مكة لأداء مناسك الحج، فاجتمع في عرفات (سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م) أربعة ألوية، لواء لابن الحنفية، ومعه أربعة آلاف، ولواء لابن الزبير وأصحابه، ولواء لبني أمية، ولواء لنجدة ابن عامر الحنفي الحروري الخارجي، « ولم يجْرِ بينهم حربٌ ولا فتنة » كما يقول ابن الأثير[4]. وقد سعى محمد بن جُبير بن مُطْعِم بين هذه الأطراف، خوفاً من نشوب القتال بينها، وكان مما قاله لابن الحنفية : « يَا أبا قاسم، اتق الله، فإنَّا في مَشْعر حرام، وبلد حرام، والناس وفدُ الله، فلا تُفسد عليهم حجَّتَهم »، فقال ابن الحنفية : « والله ما أريد ذلك، وما أحول بين أحدٍ وبين هذا البيت، ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن

---

(١) تفاصيل قصة مقتل المختار في تاريخ الطبري (٦ / ٩٣ – ١٠٨)، ابن الأثير: الكامل (٤ / ٦٤ – ٧٠).

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال (١/ ٣٠٩). وراجع ابن سعد: الطبقات الكبري (٧ / ١٠٤)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٠).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٤/ ٧٠)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٥٢١).

(٤) ابن الأثير: الكامل (٤ / ٨٥).

الزبير وما يرومُ مني ». ثم توجه محمد بن جبير إلي عبد الله بن الزبير وكلّمه في الأمر نفسه، فرد قائلاً: « قد اجتمع عليَّ وبايعني الناسُ، وهؤلاء أهلُ خلافٍ ». ثم وعده بالتزام الهدوء وعدم إثارة الأطراف الأخرى[1].

وعندما انتهى ابن الحنفية من أداء نُسُكه نزل بأتباعه – وهم أربعة آلاف – في الشِّعْب الأيسر من « منى »، وأراد ابن الزبير أن يعيد المحاولة من جديد للحصول منه علي البيعة، فأرسل إليه أخاه عروة بن الزبير برسالة شفهية تحمل لهجة شديدة، ويُهدِّده فيها – في حال استمراره علي امتناعه – بإعادته إلي الحبس، ومواجهته بالحرب. ومضمون هذه الرسالة – كما جاءت في رواية ابن سعد –: « إن أمير المؤمنين يقول لك: إني غيرُ تاركك أبداً حتى تُبايعَني، أو أُعيدَك في الحبس، وقد قَتَل اللهُ الكذَّاب الذي كنت تدَّعي نَصرته[2]، وأجمع عليَّ أهلُ العِراقَيْن، فبايِعْ لي، وإلا فهي الحربُ بيني وبينك إن امتنعتَ »[3].

وفي إصرار علي موقفه من ابن الزبير كان ردُّ ابن الحنفية عليه حاسماً، ويتلخص في أمرين :

الأول: أنكر أنه بعث المختارَ بن أبي عبيد الثقفي إلي الكوفة داعياً إليه بالإمامة، وقال: « والله ما بعثتُ المختار داعياً ولا ناصراً، ولَلْمُختارُ كان إليه أشدَّ انقطاعاً منه إلينا[4]، فإن كان كذّاباً فطالما قرَّبه علي كذبه، وإن كان علي غير ذلك فهو أعلمُ به ».

الثاني: أكّد علي أنه لا يُنابذ ابنَ الزبير القتالَ، ولو أراد ذلك ما بقي في جواره في مكة، ولَخَرج إلي مَن يدعوه إلي الكوفة، وهو المختار. ثم أكَّد علي موقفه من البيعة،

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦ / ١٣٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٠)..

(٢) سنخصص مساحة للحديث عن موقف ابن الحنفية من دعوة المختار وثورته – راجعه بدءًا من (ص ١٢٢).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٧)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٣-١٢٤).

(٤) يشير ابن الحنفية إلي أن ابن الزبير هو الذي قرَّب المختار إليه، واستعان به، وكان من كبار الأمراء عنده، ومكث معه حتى شاهد الحصارَ الأول لمكة، وأبلي بلاءً حسناً مع ابن الزبير في التصدّي لهذا الحصار. ولَمَّا لم يجد المختار ما كان يُؤمِّلُه من ابن الزبير تركه وانتقل إلي الكوفة.

وأنه لن يبايعَ لابن الزبير ما دامت الأمةُ لم تجتمع عليه، مع وجود منافس ومحارب له، وهو عبد الملك بن مروان، وقال مُعبِّراً عن ذلك كله: « ما عندي خلافٌ، ولو كان خلافٌ ما أقمتُ في جواره، ولخرجتُ إلي مَن يدعوني فأبيتُ ذلك عليه، ولكنَّ هاهُنا – والله – لأخيك قريناً يطلب مثلَ ما يطلبُ أخوك، كلاهما يقاتلان علي الدنيا : عبد الملكَ بن مروان ». ثم أفصح ابن الحنفية – في حواره مع عروة بن الزبير – أن عبد الملك راسله يدعوه إلي اللحاق به، والمكوث في جواره بالشام.

وقد رفض ابن الحنفية ما عرضه بعضُ أصحابه قَتْـلَ عُروة، لأن ذلك يُعدُّ من الغدر، ووضَّح لهم أن ذلك يتعارض مع رؤيته في ترك القتال في الفتنة، وقال لهم: « لو فعلتُ الذي تقولون لكان القتال بمكة، وأنتم تعلمون أنَّ رأيي: لو اجتمع الناسُ عليَّ كلُّهم إلا إنسانٌ واحد لَما قاتلتُه ».

وقد عاد عروة إلي أخيه ناصحاً له بألا يتعرض لابن الحنفية، وأدرك أن عبد الملك ابن مروان لن يتركه يدخل الشام حتى يبايعه، « وأنه لا يبايعه أبداً حتى يجتمع الناسُ عليه »[1].

وفي أثناء إقامة ابن الحنفية وأصحابه بشِعْب منى – كما في رواية أبي الطفيل عامر ابن واثلة – جاءه كتابٌ من عبد الملك بن مَروان يُقَرُّ له فيه بفضله ومنزلته، ويدعوه إلي اللحاق بالشام، ويَعدُه بالأمن والاستقرار، وحُسْن الصلة والإحسان. ومما جاء فيه: « إنه قد بلغني أن ابَن الزبير قد ضيَّق عليك وقطع رحِمَك، واستخفَّ بحقك حتى تبايعه، فقد نظرتَ لنفسك ودينك، وأنت أعْرَفُ به حيث فعلتَ ما فعلتَ. وهذا الشامُ فانزل منه حيث شئتَ، فنحن مُكْرموك، وواصلو رحِمك، وعارفو حقِّكَ »[2].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٧)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٩)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٨). وانظر المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٩٠)

وفي رواية أخرى لابن سعد عن أبي جمرة[1] : أن ابن الحنفية كان بالطائف حينما راسله عبد الملك، وأنه « كتب إليه عهداً علي أن يدخلَ في أرضه – هو وأصحابه وكانوا سبعة آلاف – حتى يصطلح الناسُ علي رجل »[2].

ومن الواضح أن عبد الملك لم يَدْعُ ابنَ الحنفية إلي البيعة. ولعل هذا هو الذي شجَّعه علي التحرك نحو الشام، ومعه أصحابه، فأبحروا في مائة مركب عبر مياه بحر القُلْزُم (وهو البحر الأحمر)، فنزلوا « أيْلة »[3] فأقاموا بها[4]. ويذكر ابن الأثير أنهم نزلوا أولاً « مَدْين»[5]، فلما بلغ ابنَ الحنفية غَدْرُ عبد الملك بعَمْرو بن سعيد بن العاص[6]، ندم علي إتيانه وخافه، وتحوَّل إلي «أيْلة »، وأقام بها، وتحدث الناسُ بفضله وكثرة عبادته وزهده، وحسن هديه[7]. فلما علم عبد الملك أن ابن الحنفية نال حبَّ الناس وتعظيمَهم له شقَّ ذلك عليه، وندم علي إذنه له بنزول الشام، واستشار خاصّته

---

(١) أبو جَمْرة : نصر بن عمران الضُّبعي البصري، أحد الأئمة الثقات. حدث عن ابن عباس، وابن عمر، وطائفة. روي عنه أنه قال: كنت أقعد مع ابن عباس، وكان يجلسني معه على سريره، فقال لي: أقم عندي، حتى أجعل لك سهما من مالي، فأقمت معه شهرين. مات في ولاية يوسف بن عمر على العراق (راجع عنه ابن سعد: الطبقات الكبرى ٩ / ٢٣٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٣) .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٩)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧١).

(٣) أيلة : سبق التعريف بها في سياق الكلام عن وفاة ابن الحنفية (راجعه ص ٤٧).

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧ / ١٠٩).

(٥) مدين: تقع على بحر القُلزُم (الأحمر)، محاذية لشط خليج العقبة الشرقي، بَيْنَ تَبُوكَ وَالسَّاحِلِ، على نحو من ست مراحل (١٣٢ كم) منها. وهي مدينة قديمة عامرة، بها العيون الكثيرة، والأنهار المطردة العذبة، والبساتين، والنخل (ياقوت: معجم البلدان٤ / ٦٥).

(٦) تفاصيل مقتل عمرو بن سعيد بن العاص في تاريخ الطبري (٦/ ١٤٠ – ١٤٨).

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٨٠)، ابن الأثير: الكامل (٤ / ٥٤)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٩٠– ٢٩١).

– مثل قَبيصة بن ذُؤيب[1]، ورَوْح بن زِنباع[2] – فأشاروا عليه أن يُطالبه بالبيعة، فإن أبى فيصرفه إلي الحجاز. فكتب إليه عبد الملك يشترط عليه البيعة إن أراد الإقامة في سلطانه، وعرض عليه مكافأةً ماليةً كبيرةً، له ولأولاده وقرابته ومواليه وأتباعه، مقدارها ألفا ألف درهم، يُعجّل له منها خمسمائة ألف، ثم تأتيه البقية تباعاً[3].

ولا ريب في أن عبد الملك كان يدرك ما تُمثِّله بيعة ابن الحنفية له من أهمية بالغة في إضفاء الشرعية علي سلطانه، وتقوية جانبه أمام منافسه، وذلك لما يحظى به ابن الحنفية من مكانة رفيعة في قلوب الناس، ومنزلة عالية في الفقه والعلم والدين.

ويشير مؤلف (أخبار الدولة العباسية) إلي أن عبد الملك راسل ابنَ الحنفية بعد وصوله إلي « أيْلة »، وقال له: « إن أحببتَ أن تَقْدُم علينا فتدخلَ في أمرنا فلك ما لنا وعليك ما علينا، وإن كرِهتَ ذلك فسرْ حيث شئتَ وأحببتَ ». فبقي في « أيْلة » إلي أن قُتل ابن الزبير، فانصرَف إلي مكة، وأقام بشِعْب عليّ[4].

---

(١) قَبيصة بن ذُؤيب، أبو سعيد الخزاعي المدني، ثم الدمشقي. وصفه الذهبي بـ (الإمام الكبير، الفقيه، الوزير). قال الشعبي: (كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت). روي عن عدد من الصحابة، مثل عمر، وأبي الدرداء، وغيرهما. وكان يتولي الخاتم والبريد للخليفة عبد الملك، ويقرأ له الرسائل إذا وردت عليه. وكان ثقة مأمونا، كثير الحديث، توفي سنة ٨٦هـ (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٢ ، ابن حجر: تهذيب التهذيب ٨ / ٣٤٦).

(٢) روح بن زِنباع بن روح بن سلامة، أبو زُرْعة الجذامي الفلسطيني. كان سيد قومه وأميرًا شريفًا. ولي (جند فلسطين) ليزيد بن معاوية، وحضر (يوم مرج راهط) مع مروان بن الحكم ضد أنصار ابن الزبير. واتخذه الخليفة عبد الملك بن مروان كالوزير. روى عن أبيه – وله صحبة – وعن تميم الداري، وعبادة بن الصامت. توفي سنة ٨٤هـ (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥١) .

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٨٠).

(٤) أخبار الدولة العباسية، لمؤلف مجهول (١/ ١٠٧). وانظر المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٩١). والمراد بشِعْب علي: الشِّعْب الذي نزله محمد ابن الحنفية أيام ابن الزبير رضي الله عنهما، فنُسب إلى علي ﷺ من أجل ذلك، ولم يكن علي ينزل هذا الشعب . ذكر ذلك الفاكهي في : أخبار مكة (٧/ ١٢٩) .

وأمام هذه الإغراءات لم يتردد محمد ابن الحنفية في تمسُّكه بموقفه، ولم يتراجع عن رأيه في النزاع القائم بين الزبيريين وبني أمية، وهو « الاعتزال » ريثما ينفرد أحدُ الرجلين بالملك والسلطان، وكتب إلي عبد الملك يرُدُّ علي رسالته قائلاً: « قد عرفتَ رأيي في هذا الأمر قديماً، والله لو اجتمعتْ هذه الأمةُ عليّ إلا أهل الزَّرقاء[1] ما قاتلتُهم أبداً، ولا اعتزلتُهم حتى يجتمعوا. نزلتُ مكة فراراً مما كان بالمدينة[2]، فجاوَرْتُ ابنَ الزبير، فأساء جواري، وأراد منِّي أن أبايعَه، فأبيتُ ذلك حتى يجتمعَ الناسُ، فأكونَ كرجلٍ منهم »[3].

وعندما قرَّرَ ابن الحنفية العودةَ إلي مكة أذنَ لأتباعه: « أنَّ مَنْ أحبَّ منكم أن يأتي إلي بلده آمناً محفوظاً فليفعل »، فبقي معه تسعمائة، فلما أراد أن يدخل الحرم المكي مُعتمراً، تلقَّتْه خيلُ ابن الزبير، ومَنَعَتْه من الدخول، فأرسل ابن الحنفية إليه يُطمئنه، قائلاً – كما في رواية أبي جمرة –: « لقد خرجتُ وما أريد أن أقاتلك، ورجعتُ وما أريد أن أقاتلك، دعْنا فلْنَدخلْ، ولْنَقْضِ نُسُكَنا، ثم لنَخرجْ عنك ». وقال أيضاً لمن حوله – كما في رواية أبي الطفيل –: « اصبرَ، وما صبركَ إلا بالله، وما هو بعظيم مَن لا يصبرُ علي ما لا يجدُ من الصبر عليه بُدَّاً، حتى يجعل الله له منه مخرجاً. والله ما أردتُ السيفَ، ولو كنتُ أريده ما تعبَّثَ بى[4] ابنُ الزبير، ولو كنتُ أنا وحدي ومعه جموعُه التي معه،

---

(١) المراد بالزَّرْقاء: موضع بالشام بناحية مَعانّ، ويمر فيها نهر عظيم يصب في الغُور. والزرقاءُ أيضاً: بين خُناصرة وسورية من أعمال حلب وسَلَمية . وليس المراد هنا زرقاء اليمامة في عهد الجاهلية، ولها أخبار مشهورة بجودة النظر وصحة إدراك البصر(ياقوت: معجم البلدان ٢ / ٣٩٢، البكري: معجم ما استعجم ١ / ١٩٤) .

(٢) المراد بقوله (نزلتُ مكة فراراً مما كان بالمدينة): ما حدث حين خرج أهل المدينة بالثورة علي يزيد بن معاوية لخلعه سنة ٦٣هـ، وخروج ابن الحنفية إلي مكة حينما رفض قادة الثورة نصيحته وشهادته في حق يزيد بحسن السيرة.

(٣) ابن سعد: الطبقات (٧ / ١٠٩)، وراجع ابن الأثير: الكامل (٤ / ٥٤ – ٥٥).

(٤) ما تعبَّث بي : أي ما اجترأ أن يهدّدني ويجبرني علي البيعة.

ولكنْ – والله – ما أردتُ هذا، وأري ابنَ الزبير غيرَ مُقْصِرٍ عن سوء جُوارِه[1]، فسأتحوَّلُ عنه »[2].

خرج ابن الحنفية إلي الطائف – وقيل إلي المدينة النبوية [3] – فأقام بها إلي أن جاء الحجَّاج الثقفي بجيشه لهلال ذي الحجة (سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م)، فحاصر ابنَ الزبير حتى قتلَه يوم الثلاثاء لسبع عشرة من جمادي الآخرة (سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م) [4]. وفي تلك السنة التي قُتل فيها ابنُ الزبير حجَّ ابنُ الحنفية من الطائف ثم تحوَّل إلي « شِعْب مِنى » فنزله[5].

وقد حاول الحجَّاجُ بن يوسف الثقفي – أثناء حصاره ابن الزبير وقبل أن يُقتل – أن ينتزع البيعةَ من ابن الحنفية لعبد الملك بن مروان ، فامتنع ابن الحنفية أشدَّ الامتناع، وردَّدَ ما كان يعتقده حول الصراع الدائر بين الزبيريين والأمويين، وهو عدم الانحياز لأي من الطرفين، والكفُّ عن القتال، حيث يرى أنه قتالُ فتنة، ويجب اعتزالها، ثم يبايع لمن غلب. وقد عبَّر عن ذلك مرة أخرى للحجَّاج الثقفي، وقال في ردِّه عليه: « قد عرفتَ مُقامي بمكة، وشُخُوصي إلي الطائف، وإلي الشام، وكلُّ هذا إباءً مني أن أبايعَ ابنَ الزبير، أو عبدَ الملك، حتى يجتمع الناسُ علي أحدهما. وأنا رجلٌ ليس عندي

---

(١) غير مُقْصِر عن سوء جُوارِه : أي لن يكُفّ عن ذلك ، يقال: أَقْصَرَ عن الشئ : كَفَّ ونزع عنه .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠٩-١١٠)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٥٠-٣٥١)، أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٤٧١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٤-١٢٥).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٧ / ١١٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق(٥٤/ ٣٥١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٥).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٧ / ١١٠). وتفاصيل أحداث حصار الحجاج الثقفي لابن الزبير في مكة في الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦ / ١٨٧- ١٩٣)، ابن الأثير: الكامل (٥ / ١٢١ - ١٢٧).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١١٠).

خلافٌ. لَمَّا رأيتُ الناسَ اختلفوا اعتزلتُهم حتى يجتمعوا، فأويتُ إلي أعظم بلاد الله حُرْمة، يأمَنُ فيها الطيرُ، فأساء ابن الزبير جواري، فتحوَّلتُ إلي الشام، فكره عبد الملك قُرْبي، فتحولت إلي الحرم، فإن يُقتل ابن الزبير ويجتمع الناسُ علي عبد الملك أبايعْك»[1]. وفي هذا التصريح من ابن الحنفية ردٌّ علي مَن يذهب إلي القول – بغير دليل–: « بعد مقتل ابن الزبير طالب الحجَّاجُ ابنَ الحنفية بالبيعة لعبد الملك فأبي؛ فقد ظل مُصرَّاً علي أن الخلافة من حقّ البيت العلوي دون البيت الأُموي، ولكنه لم يجاهد من أجل الخلافة»[2].

وبالرغم من طمأنة ابن الحنفية للحجَّاج ووعْده له بالبيعة في حال انفراد عبد الملك فإنَّ الحجَّاجَ أبى أن يقبلَ ذلك منه، فلم يَزَلْ ابن الحنفية يُدافعُه حتى قُتل ابن الزبير[3] . ثم لما عاوَدَ الحجَّاجُ مطالبتَه بالبيعة لم يُسرع ابن الحنفية، وإنما أراد التثبت لنفسه، والتأكُّدَ من اجتماع الناس علي عبد الملك، وقال للحجَّاج: « إذا بايع الناسُ بايعتُ ». وهنا تهدَّده بالقتل، ورفع أمره إلي عبد الملك، فردَّ عليه: « إن محمداً ليس عنده خلافٌ، وهو يأتيك ويبايعك، فارفق به »[4]. وفي رواية للبلاذري أنَّ الحجَّاج بعث إلي ابن الحنفية يأمره بالبيعة، فأبى وقال: « قد كتبتُ إلى عبد الملك كتاباً، فإذا جاءني جوابه بما سألته بايعت».قال: أوَ تشترط على أمير المؤمنين الشروط؟ لَتبايعنِّي طائعاً أو كارهاً . فأتاه عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: « ما تريد من رجل ما نعلم في زماننا مثله؟ أمسِكْ عنه حتى يأتيه كتابُ ابن عمه »[5].

---

(١) ابن سعد: المصدر السابق (٧ / ١١٠-١١١).

(٢) د. علي حسني الخربوطلي: المختار مرآة العصر الأموي (ص٢٢٤).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبري (٧ / ١١١).

(٤) ابن سعد: المصدر السابق (٧ / ١١١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٧).

(٥) البلاذري : أنساب الأشراف (٣/ ٤٨٣)، المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٢٩٣).

ولَمَّا اطمأن ابن الحنفية إلي اجتماع الكلمة علي عبد الملك، وعلم أن عبد الله بن عمر بايعه بالخلافة – بل ونصحه ابن عمر قائلاً : « ما بقي شئ فبايع » – أرسلَ إلي عبد الملك كتاباً بالبيعة، يقرُّ له فيه بالإمارة، ويوضح سببَ امتناعه من البيعة له أو لغيره، ويطلب منه الأمانَ لنفسه ولمن معه، ويحثُّه علي الوفاء بذلك. وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، من محمد بن علي. أما بعد، فإني لَمَّا رأيتُ الأمةَ قد اختلفتْ اعتزلتُهم، فلمَّا أفضى هذا الأمرُ إليك وبايعك الناسُ كنتُ كرجلٍ منهم، أدخُلُ في صالح ما دخلوا فيه، فقد بايعتُك وبايعتُ الحجَّاجَ لك، وبعثتُ إليكَ ببيعتي، ورأيتُ الناسَ قد اجتمعوا عليك، ونحنُ نحبُّ أن تؤَمِّنَنا وتُعطينا ميثاقاً علي الوفاء، فإن الغَدْرَ لا خير فيه، فإن أبيتَ فإن أرضَ الله واسعة»[1].

وقد استجاب عبد الملك لرغبة ابن الحنفية، وكتب إليه عهداً بالأمان له ولأصحابه، وَرَدَ فيه: « وإنك عندنا محمودٌ، أنت أحبُّ وأقربُ بنا رحماً من ابن الزبير، فلك العهدُ والميثاقُ وذمةُ الله ورسوله أن لا تُهاج، ولا أحد من أصحابك بشئ تكرهه. ارجعْ إلي بلدك، واذهب حيث شئتَ، ولستُ أدَعُ صلتَك وعونَك ما حييتُ ». ثم كتب إلي الحجَّاج الثقفي يأمره بحسن جواره وإكرامه[2].

رجع ابن الحنفية إلي المدينة، وبنى داره بالبقيع. ثم تَوَطَّدَتْ علاقتُه بعبد الملك بن مروان، ووفد عليه بدمشق (سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م)، فأعظمه وقرَّبه، وأجلسه معه علي سريره، وقضى حوائجَه وديونَه، وأحسن جائزتَه وأكرمه، وفرض له ولأولاده وقرابته ومواليه أُعطيات مجزية. وقد أهداه ابن الحنفية – في هذه الوفادة – سيفَ النبي ﷺ[3].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ١١١-١١٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٥١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٧- ١٢٨)، وانظر المقدسي: البدء والتاريخ (١/ ٣٣٥)، المقريزي: المقفَّي (٣ / ١٦٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات (٧ / ١١٢)، ابن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح (٦ / ٢٨٤، ٢٨٦-٢٨٨)، ابن عساكر : تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٥١). الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢٨).

(٣) ابن سعد : الطبقات (٧ / ١١٢-١١٣).

هذا هو السَّرْدُ التاريخيُّ لموقف محمد ابن الحنفية من النزاع الطويل بين عبد الله بن الزبير والأمويين، منذ إعلان ابن الزبير الخلافة لنفسه عقب موت يزيد بن معاوية وانسحاب الجيش الشامي من حصار مكة (سنة٦٤هـ/ ٦٨٣م)، وإلي أن قُتل ابن الزبير مُحاصَراً بجيش الشام بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي في جمادي الأول (سنة٧٣هـ/ ٦٩٢م).

ونؤكد هنا – تلخيصاً لما سبق – أن موقف ابن الحنفية لم يكن نابعًا من عصبية هاشمية ضد بني أمية أو لهويً شخصي كما يحاول البعض تصويره، وإنما لَّما كان أمر الخلافة متداولاً بين عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، لهذا مرة، ولهذا مرة – وكان بينهما ما كان من خلاف – اعتزل ابنُ الحنفية بيعة كل واحد منهما حتي استقرت لأحدهما، وهو عبد الملك، واعتبر القتال الدائر بينهما (قتال فتنة) [1]. وإنما فعل ذلك حين لم يستتب الأمرُ لأحد من الأميرين، لأن الناس كانوا بايعوا لابن الزبير، ثم بايعوا لعبد الملك، ووقعت الفتنة بهذا الاختلاف، وكثر العدد من الطائفتين، فكان ابن الحنفية يتقي ويتجنَّب دماء المسلمين. وكان المناط هنا ثنائيًا، أحدهما: ازدواجية البيعة، ومن ثَمَّ الاختلافُ والافتراقُ حول إمامين. والثاني: إراقة الدماء علي نطاق واسع، بغيةَ الوصول إلي الحلّ المُرْضي في الذهن.

ويمكن تفسير امتناع ابن الحنفية من المشاركة في القتال مع إحدي الطائفتين – الزُّبيريين والأُمويين– بأن القتال بينهما لا يُحْسَم إلا بفساد أكبر، لقوة الجانبين. وقد تكون إحدي الطائفتين مُسْتَحَقَّة أن تُقَاتَل، ولكنْ بالنظر إلي ما سيؤول إليه الأمرُ من استفحال الشرِّ، والإسراف في الدماء، فإن المشاركة في القتال مَنْهيٌّ عنه، وينبغي طَلَب السلامة بالاعتزال والكَفِّ عن كل فريق حينئذٍ، لأنَّ تكثير سواد أحدهما يُعدُّ تقويةً للفتن[2].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٧، ٤٨٧).

(٢) بوَّب البخاري في صحيحه – كتاب الفتن – باباً فقال : " باب من كره أن يُكَثِّر سواد الفتن والظُّلَم ". ثم روي حديث (رقم ٧٠٨٥) عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود أنه كان ممن اكتُتب في جيش عبد الله بن الزبير الذي أراد إرساله إلي أهل الشام لقتالهم، فسأل عكرمة (مولي ابن عباس) عن ذلك، فنهاه أشدَّ النهي، واستدل له بأن ذلك يُكَثِّر سواد الفتن، وقال له: أخبرني ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثِّرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيُرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل فأنزل الله :(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم .... الآية) [النساء: ٩٧] .

ولقد سعي ابن الزبير حثيثًا للحصول علي البيعة لنفسه بالخلافة من ابن الحنفية، وتكرر ذلك منه في مناسبات كثيرة، ووصل الأمر إلي التهديد والوعيد، لكنه لم يُفلح، لصلابة ابن الحنفية في رأيه وموقفه، وثباته عليه. ولم ينجح عبد الملك في ذلك أيضًا، رغم الإغراءات التي لوَّح بها في سبيل إخضاع ابن الحنفية وترويضه. وهذا كلُّه يؤكد علي أن ابن الحنفية لم يَصْدُرْ في هذه القضية إلا عن رؤية دينية، نابعة - في رأينا - من فهمه للنصوص النبوية التي تُرشد إلي كيفية التعامل مع أحداث الفتن، والتي تأمر بترك القتال في حال الخلاف بين المسلمين علي الحُكْم .

وكان ابن الحنفية – زيادةً في التأكيد علي موقفه من الصراع القائم بين الزبيريين والأمويين، وهو اعتزال الطرفين – كان يقول لمن حوله من أصحابه: « لو أنَّ عليا أدرك أمرَنا هذا كان هذا مَوْضعَ رَحْله»، وأشار إلي الشِّعْب الذي كان ينزله في مكة أثناء محنته مع ابن الزبير[1]. أي سيكون شأن علي بن أبي طالب حينئذ هو اعتزال الطرفين، والكفُّ عن القتال مع أيٍّ منهما. ولا يتعارض هذا مع موقف ابن الحنفية من القتال بجوار أبيه في حربي الجمل وصفِّين، لأن أباه – وكما أسلفنا القول - كانت له بيعة صحيحة، باتفاق الصحابة الموجودين وقتئذ، وكان هو الخليفةَ الشرعيَّ، واعتبر أهلَ الشام بغاةً، فقاتلهم لردِّهم إلي الجماعة[2].

موافقة المعاصرين لابن الحنفية من الصحابة والتابعين في موقفه من النزاع بين الزبيريين والأمويين:

ولم يكن محمد ابن الحنفية منفرداً بهذا الموقف، وإنما شاركه من شيوخ الصحابة في زمنه: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عُمَر بن الخطاب، وأبي بَرزة الأسلمي، وجَرير ابن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عَمْرو بن العاص. ومن التابعين سعيد بن المسيَّب، وأيمن بن خُرَيْم الأسدي، ومُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، وشُرَيْح بن الحارث بن

(١) ابن أبي شيبة: المصنَّف (٦/ ١٩١)، رقم (٣٠٥٨٩).

(٢)سبق بيان ذلك وتفسيره - يُراجَع (ص ٦٠- ٦١).

قيس الكوفي النَّخْعي القاضي، وغيرهم. ولا ننفي وجود أعلام آخرين - بهذه المنزلة في العلم والدين - كان لهم الموقفُ نفسُه، لكن لم تفصح المصادر بذكرهم.

يُضاف إلي هؤلاء معارضةُ بعض إخوة ابن الزبير له، ورفضُهم موقفه، أبرزهم «عَمْرو» و «عُروة» ابنا الزبير. أما عَمْرو فقد أرسله أمير المدينة «عَمْرو بن سعيد الأشدق» علي رأس جيش صغير إلي مكة لقتال أخيه كما سبق بيانه. وأما عُروة بن الزبير فكان يرى - في أول الأمر - أن « الإمامة » شورى بين قريش، شأنُه في ذلك شأن أخيه عبد الله بن الزبير، حتى إذا توفي يزيد بن معاوية أيَّد طلبَ أخيه عبد الله الخلافة، وسعى في أخذ البيعة له ممن عارضه من سادة أهل المدينة الذين عاذوا بمكة بعد وقعة الحرَّة، كابن الحنفية[1]، ثم أشار عروة علي أخيه عبد الله أن يخلع نفسه، ويبايع لعبد الملك بن مروان حين أحاط به جيش الشام في الحصار الثاني بمكة، وأوشك أن يهزمه ويفتك به، فلم يقبل مشورتَه، بل أنكرها أعظم الإنكار، وأصر علي القتال أشد الإصرار[2]. فلما قضى الحجاج بن يوسف الثقفي علي عبد الله بن الزبير سار عروة إلي الشام وبايع لعبد الملك بن مروان[3].

أما ابن عباس فقد تعرض للمحنة التي تعرض لها ابنُ الحنفية حينما حَصَرهما ابن الزبير في شِعْب بني هاشم بمكة، وهدَّدَهما بالحرق إن لم يُذعنوا له بالبيعة. ولم يكتف ابن عباس بموقفه الرافض للبيعة، وإنما جعل يُثبِّط الناسَ عن بيعة ابن الزبير ونُصرته، وفي ذلك يروي البلاذري عن أبي حمزة[4] قال: « قلت لابن عباس: إني بايعتُ

---

(١) ابن أعثم : كتاب الفتوح (٦/ ٢٤٥).

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد (٤/ ٤١٥)، الإمامة والسياسة (٢/ ٣٠).

(٣) ابن أعثم: كتاب الفتوح (٦/ ٢٨١)، البلاذري: أنساب الأشراف (٩/ ٤٤١)..

(٤) هو: عمران بن أبي عطاء الأسدي (بالولاء)، أبو حمزة القصَّاب الواسطي. من أصحاب ابن عباس، روي عنه وعن أنس بن مالك، ومحمد ابن الحنفية. وقد وثَّقه يحي بن معين وابن حبَّان. ولابد من التفريق بينه وبين (أبي جمرة: نصر بن عمران الضُّبعي البصري، أحد الأئمة الثقات)، وكلاهما رويا عن ابن عباس (ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٦ / ٣٠٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٨٧).

ابنَ الزبير، فأعطاني وحملني علي فرس، أفقاتلُ معه ؟ قال: « لا تقاتل معه، ورُدَّ عليه ما أعطاك، واشترِ بغلاً أو بغلَيْن وغُلاماً، واغْزُ المشركين، فإن قُتلتَ علي ذلك كنتَ شهيداً إن شاء الله تعالى ». قال أبو حمزة:« فرددت علي ابن الزبير مَا أخذتُ منه »[1].

ونستطيع أن نفسر كلامَ ابن عباس هنا بأنه لا يرى القتالَ علي المُلك جائزاً بين المسلمين، لأنه – وكما يري ابن الحنفية أيضاً – « قتال فتنة »، كالقتال الدائر بين ابن الزبير وعبد الملك، ولذا وجَّه سائلَه بأن القتال الحقيقي هو جهاد المشركين. ويتأكَّدُ موقف ابن عباس وابن الحنفية معاً بما يرويه البلاذري من طريق ابن سعد عن الواقدي قال: « أرسل ابن الزبير إلى ابن عباس وابن الحنفية أن يبايعا، فقالا: يجتمع الناس على رجل ثم نبايع، فإنك في فتنة »[2].

وقد ظل ابن عباس يأبى أن يبايعَ لابن الزبير إلي آخر حياته، ومات بالطائف (٦٨هـ/ ٦٨٧م)، قبل أن يتغلب عبد الملك بن مروان علي العراق والحجاز، وتجتمع عليه الأمة، لكنه أوصى ابنه علياً أن يأتي الشامَ، ويتَنحَّي عن سلطان ابن الزبير[3].

وأما عبد الله بن عُمر بن الخطاب رضي الله عنهما – الذي يُكنُّ ابن الحنفية له الاحترام والتقدير، ويُقرُّ بفضله وعلمه، ويقول عنه: « كان ابنَ عمر خير هذه الأمة»[4] – فكان هو الآخر مُتوقِّفاً عن البيعة لابن الزبير وعبد الملك، واعتزل الطرفين، واتخذ الموقفَ نفسَه الذي اتخذه من خروج الحسين بن علي ﷺ (٦١هـ/ ٦٨٠م)، ثم خروج زعماء المدينة بثورتهم علي يزيد (٦٣هـ/ ٦٨٢م). وكان يكُفُّ ابنَ الزبير عن مخالفة الأُمَّة وإثارة الفُرقة، وأخذ – كابن عباس – يُخذِّلُ الناسَ عن الانضمام إليه والقتال معه، ويدعوهم إلي الابتعاد عن الفتن[5].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (٦/ ٣٥٢).

(٢) البلاذري: المصدر السابق (٣/ ٤٨٧)، المقريزي: المقفَّي الكبير (٦/ ٢٩٦)..

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٥٣)، أخبار الدولة العباسية، لمؤلف مجهول (ص١٣١).

(٤) الحاكم النيسابوري : المستدرك علي الصحيحين (٣/ ٦٤٦)، رقم (٦٣٧١)، المقريزي: المقفَّي (٤/ ٦٢٢).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤/ ١٦٠)، البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٨٧).

قال الخطَّابي: «كان ابن عمر من أشد الصحابة حذرًا من الوقوع في الفتن، وأكثرهم تحذيرًا للناس من الدخول فيها، وبقي إلى أيام فتنة ابن الزبير فلم يقاتل معه، ولم يدافع عنه، إلا أنه كان يشهد الصلاة معه، فإذا فاتته صلَّاها مع الحَجَّاج». ثم روي الخطَّابي عن مسلم بن المثنَّي قال: «كنا مع عبد الله بن الزبير والحَجَّاج مُحاصِرُه، وكان ابن عمر يصلِّي مع ابن الزبير، فإذا فاتَتْه الصلاةُ معه وسمع مُؤذِّنَ الحجَّاج انطلق فصلَّى معه. فقيل له: لِمَ تُصلي مع ابن الزبير ومع الحجَّاج؟ فقال: إذا دَعونا إلى الله أجبناهم، وإذا دَعونا إلى الشيطان تركناهم. وكان يَنْهى ابنَ الزبير عن طلب الخلافة والتعرُّض لها »[1].

وقد جاءه رجل – كما في رواية المدائني – فقال له: هذه خيلُنا. قال: « أيةُ خيل؟ ». قال: خيلُ ابن الزبير. قال: « ما هي لنا بخَيْل ». وجاءه آخر فقال: بايعتُ ابنَ الزبير علي كتاب الله وسنة نبيه، فأبى ذلك. فقال: « صدَقَ، ولو أعطاك ذلك لم يَفِ لك به ». وجاءه آخر فقال: بماذا تأمرُ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: « بطاعة الله والجماعة، وأنهاك عن الفُرقة ». قال: ثم بماذا ؟ قال: « إن كان لك ضَيْعةٌ فالحقْ بضيعتك »[2].

ويروي البخاري عن نافع مولي ابن عمر أن رجلين أتياه في « فتنة ابن الزبير » فقالا: إن الناس قد ضيَّعوا، وأنت ابن عمر، وصاحبُ النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال : « يمنعني أن الله حرَّم دمَ أخي ». فقالا: « ألم يقل الله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٣] ؟». فقال: « قاتَلْنا حتى لم تكن فتنة، وكانَ الدين لله[3]، وأنتم تَريدون أن تقاتلوا حتى تكونَ فتنةٌ، ويكونَ الدينُ لغير الله »[4]. وفي رواية أخرى قال

---

(١) الخطابي: العُزلة (ص ٧٧).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف (٦/ ٣٥٢).

(٣) المراد بقوله هذا أنه قاتل المشركين في حياة النبي ﷺ، وهذا هو المراد بالآية المذكورة.

(٤) صحيح البخاري، كتاب (التفسير)، باب: « قَوْله (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للَّهِ) » (رقم ٤٥١٣). وراه ابن سعد بنحوه في الطبقات الكبري (٤ / ١٤١).

ابن عمر في ردّه علي الرجل: « هل تدري ما الفتنة ؟ إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم علي الملك »[1].

وقد سأل حمزةُ بن عبد الله بن عمر أباه عن هذه الآية: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾[الحجرات:٩]. فقال: مَنْ هم؟ فقال ابن عمر: « ابنُ الزبَير بَغَى علي أَهَل الشام ». وفي لفظ: « بغى علي هؤلاء، ونكث عهدهم »[2].

ويقول أيضاً – واصفاً القتال بين الزبيريين والأمويين بأنه قتال فتنة، ونزاع علي الدنيا –: « إنما هؤلاء فتيانُ قريش يتقاتلون علي هذا السلطان وعلي هذه الدنيا، والله ما أُبالي ألا يكونَ لي ما يَقْتُلُ فيه بعضُهم بعضاً بِنَعْلي »[3].

ويزيد موقفُ ابن عمر بياناً ووضوحاً ما رواه عنه البيهقي في (السنن الكبري) عن أبي العالية البرَّاء: أن عبد الله بن الزبير وعبدَ الله بن صفوان كانا ذات يوم قاعدَيْن في الحِجْر، فمرَّ بهما ابنُ عمر – وهو يطوف بالبيت الحرام – فقال أحدهما لصاحبه: أتراه بَقي أحدٌ خيراً من هذا ؟ ثم قال لرجل: أُدْعُه لنا إذا قضى طوافَه. فلما قضى طوافه وصلَّى ركعتين أتاه رسولهما فقال: هذا عبد الله بن الزبير وعبد الله بن صفوان يدعوانك. فجاء إليهما فقال عبد الله بن صفوان: يا أبا عبد الرحمن، ما يمنعك أن تبايعَ أميرَ المؤمنين – يعني ابنَ الزبير – فقد بايع له أهلُ العَروض[4] وأهلُ العراق، وعامةُ أهل الشام. فقال ابن عمر: « والله لا أبايعكم وأنتم واضِعُو سيوفِكم على عواتِقكم تصبب أيديكم من دماء المسلمين»[5] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب (الفتن)، باب: « قول النَّبيّ ﷺ : الفتنةُ من قِبَلِ المشرق » رقم (٧٠٩٥) [فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٤٩].

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٧٦).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤ / ١٦٠) .

(٤) أهل العَرُوض: من بأكناف مكة والمدينة، يقال لمكَّة والمدينة واليمن : العَرُوض (ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٣ / ٤٣٩).

(٥) البيهقي: السنن الكبرى (٨ / ١٩٢)، رقم (١٦٥٨٥).

وقد علَّق ابن حَجَر علي هذه الرواية قائلاً:« امتنع من المبايعة لأحد حالَ الاختلاف، إلي أن قُتل ابن الزبير وانتظم المُلكُ كلُّه لعبد الملك، فبايع له حينئذ»[1].

وحينما قُتل ابن الزبير، وصَلَبه الحجَّاج علي ثنيـّة الحَجُون مرَّ عليه عبدُ الله بن عمر، وقال – كما في رواية مسلم بن الحجاج في (صحيحه) –: « السلام عليك أبا خُبيب (مرتين)، أمَا والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا (قالها ثلاثاً). أمَا والله إن كنتَ – ما علمتُ – صوَّاماً قوَّاماً، وَصولاً للرحم. أما والله لأُمَّةٌ أنتَ أشرُّها لأُمَّةُ خير »[2].

وخلاصة موقف ابن عمر – وهو نفسه موقفَ محمد ابن الحنفية – هو ما عبَّر عنه بقوله – كما في رواية الواقدي –: « لا أقاتل في الفتنة، وأُصلِّي وراء مَنْ غَلَب »[3]. وكان يقول – وهي المقولة نفسُها التي كان ابن الحنفية يقولها –: « لو اجتمَعَتْ عليَّ الأُمَّة إلا رجلين ما قاتلتُهما»[4]. وقال أيضاً: «لقد بايعتُ رسول الله ﷺ فما نكثتُ ولا بدَّلتُ إلى يومي هذا، ولا بايعتُ صاحبَ فتنة، ولا أيقظْتُ مؤمنًا من مَرْقده»[5]. وقال عنه تلميذه ومولاه نافع: « كان ابن عمر لا يعطي يداً في فُرْقة، ولا يمتنع من جماعة»[6].

وقد بايع ابنُ عمر عبدَ الملك بن مروان بعد أن بسط سلطانه علي جميع الأمصار، واتفقت عليه الأمة، وكتب إليه: « بلغني أن المسلمين اجتمعوا علي البيعة لك، وقد دخلتُ فيما دخل فيه المسلمون »[7]. وفي رواية أخرى لابن سعد: « إني قد بايعتُ

---

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٣/ ٢٠٧) .

(٢)مسلم بن الحجاج: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب « ذِكْر كذَّاب ثقيف ومُبيرها » (رقم ٤٦١٧) [شرح النووي لصحيح مسلم ١٢/ ٣٨٠].

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤ / ١٣٩). ورواه ابن حبان في: الثقات (٨/ ٤٠٣).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٩) .

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤/ ١٥٣).

(٦) المقريزي: المقفَّي الكبير (٤/ ٦٢٩).

(٧) ابن سعد : المصدر السابق (٤ / ١٤٢-١٤٣) .

لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، بالسمع والطاعة علي سُنَّة الله، وسنة رسوله فيما استطعتُ، وإنَّ بَنيَّ قد أقرُّوا بذلك »[1].

ومن الذين امتنعوا من البيعة لابن الزبير وعبد الملك، ونهي عن البيعة لواحد منهما والانضمام إليه: جُنْدُب بن عبد الله البَجَلي ﷺ، وهو من الصحابة، فقد جاءه أبو عمران الجُوني[2] وقال له: إني بايعتُ ابنَ الزبير على أن أقاتل أهلَ الشام. فقال جُندب: أمسك[3]. فقلت: إنهم يأبَوْنَ. قال: افتد بمالك. قال: إنهم يأبَوْن إلا أن أقاتل معهم بالسيف. فقال جُندب: حدَّثني فلانٌ أن رسول الله ﷺ قال: « يجيء المقتولُ بقاتله يوم القيامة فيقول: يا ربِّ سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ فيقول: علامَ قتلتَه؟ فيقول: قتلتُه علي مُلْك فلان». ثم قال جُندب لأبي عمران: « فاتَّقها »[4]. وهذا واضح علي أن جُندب لم يكن يري مشروعية القتال مع ابن الزبير ضد أهل الشام الذين كانوا يؤيدون مُلك بني أمية.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يحذِّر ابنَ الزبير – في بداية إعلان الخلافة لنفسه بمكة – من الاستمرار في موقفه، فلما رأي أنه لا يطاوعه خرج إلي الشام للجهاد، وابتعد عن الفتنة، يروي الإمام أحمد في (المسند) عن سعيد بن عمرو قال: « أتى عبدُ الله بن عمرو ابنَ الزبير وهو جالسٌ في الحِجْر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحادَ في حرم الله، فإني أشهد لَسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:(يُحِلُّها ويَحُلُّ به [5] رجلٌ من قريش، لو وُزنتْ ذنوبُه بذنوب الثَّقَلَيْن لَوَزنَتْها). قال ابن الزبير: فانظر أن لا

---

(١) ابن سعد: المصدر نفسه (٤/ ١٧١)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣ / ٢٣١).

(٢) هو أبو عمران الجوني :عبد الملك بن حبيب ، كان ثقة وله أحاديث (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٩ / ٢٣٧).

(٣) قوله (أمسك): أي احبس نفسك عن الخروج معهم.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند (٥ / ٣٦٧)، رقم (٢٣١٥٩) ، وإسناده صحيح.

(٥) قوله (يُحِلُّها) يعني: مكة. وقوله (ويَحُلُّ به) يعني: الحرم المكي .

تكونَ هو يا ابن عَمْرو، فإنك قد قرأتَ الكتبَ وصحبتَ الرسولَ ﷺ . قال: فإني أُشهدك أن هذا وجهي إلى الشام مجاهدًا» [1] .

وكان لسعيد بن المسيَّب القرشي المخزومي (ت٩٤هـ/ ٧١٢م) الموقفُ نفسُه، وهو من سادات التابعين، وأحد الفقهاء الأثبات الصالحين، فقد رفض أن يبايعَ لابن الزبير، إلا إذا اتفقتْ عليه الجماعةُ وبايعتْ له الأُمة. وكان يقول – كما روى عنه أبو العرب في كتاب (المحَن) –:« إن رسول الله ﷺ نهى أن نبايع لخليفتين...»[2]. ويروي ابن سعد عن الواقدي قال: « استعمل عبد الله بن الزبير جابرَ بن الأسود بن عوف الزُّهري على المدينة، فدعا الناسَ إلى البيعة لابن الزبير، فقال سعيد بن المسيَّب : لا، حتى يجتمعَ الناسُ. فضربه ستين سوطاً، فبلغَ ذلك ابنَ الزبير، فكتب إلى جابر يلُومُه، ويقول: ما لنا ولسعيد، دَعْهُ لا تَعْرِضْ له »[3]. ولما صَفَا الأمر لعبد الملك بن مروان، وأطبق عليه الناَسُ بايع له سعيدُ بن المسيَّب[4].فلما بايع عبد الملك لولديه الوليد وسليمان بولاية العهد من بعده وأخذ البيعة من الناس امتنع سعيد فلم يبايع، وقال: « لست أبايع لاثنتين»[5]، أي لخليفتين.

ومن الذين اعتزلوا الزبيريين والأُمويين، ورفضوا المشاركة مع أحد الطرفين، واعتبروا القتال الواقع بينهما قتالَ فتنة: أيمنُ بن خُرَيْم الأسدي، الذي رفض الانضمام إلى جانب مروان بن الحكم – بعد مبايعة الأمويين له بالخلافة (سنة٦٥هـ/ ٦٨٤م) – في قتاله الضحاك بن قيس (أحد أتباع ابن الزبير في الشام)، فقد روي أبو يَعْلَى في

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند (٢ / ٢١٩)، رقم (٧٠٤٣).

(٢) عبد المالك أحمد رمضاني: تمييز ذوي الفطَن بين شَرَف الجهاد وسَرَف الفتن (ص ٣٩).نقله من كتاب (المحن، ص٢٩٥)، لأبي العرب تميم المغربي الإفريقي(المتوفي ٣٣٣ هـ/ ٩٤٥م).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٣)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ٤١٦)، ابن الأثير: الكامل (٤/ ٢٣٥).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٧/ ١٢٦)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ٤١٥). الإمامة والسياسة (٢/ ٥٥، ٥٦).

(٥) ابن حبان: الثقات (٤/ ٢٧٤) .

(مسنده)[1] عن عامر الشَّعْبي قال: لما قاتل مروانُ بن الحكَم الضحاكَ بن قيس أرسل إلى أيمن بن خُرَيْم الأسدي فقال: إنَّا نُحبُّ أن تقاتلَ معنا. فقال: إنَّ أبي و عمِّي شهدا بدرًا فعهدا إليَّ أن لا أقاتل أحدًا يشهد أن لا إله إلا الله، فإن جئتَني ببراءة من النار قاتلتُ معك. فقال: اذهب فلا حاجة لنا فيك. ووقع فيه وسبَّه. فأنشأ أيمن يقول:

ولستُ مُقاتلاً رجلاً يُصلِّي ... على سلطان آخرَ من قريش
له سُلْطانُه وعليَّ إثْمي ... معاذَ الله من جَهْلَ وطَيْشَ
أقاتلُ مُسْلمًا في غيرَ شيء ... فليس بنافعَي ما عشْتُ عَيْشي

وهذا مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير (توفي حدود سنة ٨٧هـ/ ٧٠٥م) اعتزل النزاع الدائر بين ابن الزبير والأمويين، ووصفه بـ« الفتنة »، وقال عن ذلك: « لبثت في فتنة ابن الزبير تسعًا أو سبعًا ما أخبرتُ فيها بخبر، ولا استُخْبرتُ فيها عن خبر». وكان مُطرِّف – كما يقول عنه قتادة – « إذا كانت الفتنة نهى عنها وهرب». وقد سُئل أخوه يزيد: ما كان مُطرِّف يصنع إذا هاج في الناس هَيْجٌ؟ فقال:«كان يلزم قَعْر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعةً حتى تنجلي لهم عما انجلت»[2].

وينقل لنا ميمون بن مهران موقف شُرَيْح بن الحارث بن قيس الكوفي النَّخْعي القاضي (توفي حدود سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م) في هذا النزاع فيقول: « قال شُريْح في الفتنة التي كانت على عهد ابن الزبير: ما سَألتُ فيها ولا أخبرتُ، وأنا أخاف أن لا أكون نجوتُ ». وقال عنه ميمون: «لبث شُرَيْح في الفتنة تسع سنين، لا يُخبر ولا يُستخبر»[3].

والحاصل أنه لما كان أمر الخلافة متداولاً بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، وكان بينهما ما كان من خلاف، اعتزل ابنُ الحنفية وكثيرٌ من السَّلَف كلا الطرفين، حتى استقرت الخلافة لأحدهما، وهو عبد الملك، فبايعوا له.

---

(١) أبو يعلى الموصلي: المسند (٢ / ٢٤٥). ورواه الطبراني: المعجم الكبير (١/ ٣٩٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبري (٩ / ١٤٣).

(٣) ابن سعد: المصدر السابق (٨ / ٢٦٢).

موقف ابن الحنفية من ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي
(٦٥ـ ٦٧هـ/ ٦٨٤ ـ ٦٨٦م)

كان المختار بن أبي عُبيد الثقفي[١] من كُبراء « ثقيف »، وذوي الرأي والفصاحة والشجاعة والدهاء، « وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي، والتي كانت تبحث لها عن دور، وتسعي إلي السلطان بأي ثمن»[٢]، فتقلَّب من العداء الشديد لآل البيت- حيث «كان أولاً ناصبياً يبغضُ علياً بغضاً شديداً»(كما يصفه ابن كثير)[٣]- إلي ادِّعاء حُبِّهم والمطالبة بثأر الحسين بن عليّ. ومما يؤيد ذلك أن الحسن بن علي حين بويع بالخلافة وتحرك بجيشه إلي « المدائن » استعداداً لقتال معاوية بن أبي سفيان – وسعي السَّبئية في إحداث الفوضى والفُرقة بين صفوف الجيش بإشاعة مقتل قائده قيس بن سعد بن عبادة، وغدروا بالحسن، وحاولوا قَتْلَه[٤] – كان المختار ممن خرجوا عليه (كما يقول ابن حجر)[٥]، بل وزاد المختار علي ذلك حين أشار علي عمِّه سعد بن مسعود الثقفي (وكان عاملا علي المدائن)[٦] أن يقبض علي الحسن ويُسلِّمه إلي معاوية، فزجره عمُّه وقبَّح موقفَه[٧] .

---

(١) والد المختار هو « أبو عُبيد بن مسعود الثقفي »، أسلم في حياة النبي ﷺ، و« لا نَعرف له صحبة » (كما يقول الذهبي: سبر أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨- ٥٣٩) ، واستعمله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ علي جيشٍ لقتال الفرس (سنة ١٣هـ/ ٦٣٦م)، فغزا العراق، وقُتل في معركة « الجسر » (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٤٥٤ – ٤٥٥).

(٢) د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي (ص ٤٨٢).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٨٤٠).

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٥٩).

(٥) ابن حجر: لسان الميزان (٦ / ٧).

(٦) سعد بن مسعود الثقفي: معدود في الصحابة. وكان من أمراء علي بن أبي طالب، واشترك معه في صفِّين(ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٨٣). .

(٧)البلاذري: أنساب الأشراف (٦/ ٣٧٦)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ١٥٩).

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان انتقل المختار إلي البصرة وأظهر فيها ميْلَه إلي الحسين بن علي [1]، ثم انتقل إلي الكوفة بعد موت معاوية والبيعة لابنه يزيد، وكان ممن بايع « مسلمَ بنَ عقيل بن أبي طالب » الذي أرسله الحسين إلي أهل الكوفة ليستوثق من بيعتهم، ثم خرج معه، واشترك في حركته، فلمَّا قُتل «مسلم بن عقيل» حبسه عُبيد الله بن زياد (أمير العراق)، إلي أن قُتل الحسين، ثم خرج بشفاعة زوج أخته (صفية): عبد الله بن عمر بن الخطاب (صاحب رسول الله ﷺ)، فخرج إلي الحجاز، واتصل بعبَد الله بن الزبير، فبايعه، وكان من كبار الأمراء عنده، ومكث معه حتى شاهد الحصارَ الأول لمكة حين قدم إليها « الحُصين بن نُمير السَّكُّوني» علي رأس الجيش الأَموي، وأبلي المختارُ بلاءً حسناً مع ابن الزبير في التصدِّي لهذا الحصار[2] .

وكان المختار – حين أراد الانضمامَ إلي ابن الزبير – شرط عليه شروطاً، منها أن يكون أولَ داخلٍ عليه، وألا يقضيَ الأمورَ دونه، وإذا ظهر وتمكَّن استعان به علي أفضل أعماله[3]. وباختصار:« أراد أن يكون له كلمةٌ في دولته »[4]، لكنه « لم يجد من ابن الزبير الزبير ما يُؤمِّلُه »[5]، ولقي منه جفوةً ، فانصرف عنه إلي الكوفة[6].

وفي رواية ابن سعد أن المختار قال لابن الزبير: « اعلم أن مكاني من العراق أنفعُ لك من مقامي هاهنا »، فأذن له ابنُ الزبير، وهو لا يشك في مُناصحته. لكن المختار كان ينطوي علي خداعه والغشِّ له[7].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣ / ٥٤٤).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٩)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٦٩-٥٧١، ٥٧٤-٥٧٧)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٤)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٣ / ٤٩٢-٤٩٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل (٣/ ٤٩٤).

(٤) د.عبد الشافي محمد عبد اللطيف : العالم الإسلامي في العصر الأموي (ص٤٨٢).

(٥) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي (١ / ٤١١).

(٦) البغدادي : الفرق بين الفرق (ص٤٤)، ابن الأثير: الكامل (٣ / ٤٩٤).

(٧)ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٩ - ١٠٠).

وفي الكوفة أراد المختار أن يحقق طموحَه في الوصول إلي السلطة والحكم، مستغلاً الأوضاعَ المضطربة التي عاشتها هذه المدينةُ بعد مقتل الحسين بن علي ﷺ . وقد عبَّر هو نفسُه عن هذا الطموح السياسي حينما قابل رجلاً (لم تفصح الرواية عن اسمه) – وهو في طريقه إلي الكوفة – فسأله عن حال الناس هناك، فقال الرجل: « تركتُ الناسَ كالسفينة تجول، لا ملَّاح لها ». فقال المختار: « فأنا ملَّاحها الذي يُقيمُها »[1]، في إشارة واضحة إلي أنه يستطيع توظيفَ الأوضاع المضطربة لصالحه وتحقيق مآربه ومقاصده.

وقد بدأ المختار نشاطَه والدعوةَ إلي الالتفاف حوله، بحجة المطالبة بالثأر من قَتَلة الحسين وأهل بيته، وكان يطمع في البداية أن يتزعم « الشيعة »، لكنه لم يستطع أن يحقق هذه الرغبة في حياة « سليمان بن صُرَد الخُزاعي» زعيم « التوَّابين » الذي كان يستعد للذهاب إلي الشام لقتال عُبيد الله بن زياد، فحاول المختارُ تثبيطَ الناس عنه، ونجح في أن يستميل منهم طائفة، وتجمَّع حوله نحو ألفين من الشيعة[2]، وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صُرَد، فسار بهم حيث التقي بابن زياد في معركة « عين الوَرْدة »، فقُتل سليمانُ ومعظمُ أصحابه[3]. ثم انفرد المختار بزعامة الشيعة، ولجأ إليه الفارُّون من المعركة، فقويت حركتُه، وكثر أتباعُه، وانضم إليه كثيرٌ من الموالي، واستطاع السيطرة علي الكوفة والمقاطعات التابعة لها، ثم أخذ يتعقَّب قَتَلةَ الحسين ﷺ[4].

ولسنا هنا مَعْنيين بتتبع المراحل التي مرت بها حركةُ المختار بعد سيطرته علي الكوفة، إلي أن انقلب عليه أشرافُها، ونجاحه في إخضاع ثورتهم، ثم نجاحه في إنزال

---

(١) ابن سعد: المصدر السابق، والجزء والصفحة نفسها.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٥٦٠ – ٥٦١).

(٣) تفاصيل خروج التوابين ومعركة (عين الوردة) في الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٥٥١ – ٥٦٣).

(٤) تفاصيل الأحداث في الطبري: المصدر السابق (٦/ ٤٤ – ٦٦).

الهزيمة بجيش الشام بقيادة عُبيد الله بن زياد، ومقتل هذا الأخير في معركة « الخازر »[1] بالقرب من الموصل في مستهل (سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م)، ثم هزيمة جيش المختار أمام جيش الزبيريين بقيادة مصعب بن الزبير، وانتهاء أمره وزوال دولته بمقتله وعددٍ كبيرٍ من جنده وأتباعه[2].

والأهمُّ – في هذا السياق – معرفة حقيقة موقف محمد ابن الحنفية من دعوة المختار الثقفي وثورته؛ فحينما بدأ المختار دعوته في الكوفة قدَّم نفسَه للناس على أنه مبعوثٌ ومُفوَّضٌ من ابن الحنفية، ليثأر من قَتَلة الحسين بن علي، وأطلق على ابن الحنفية وصفَ «المهدي بن الوصي»، وقال للناس:« لقد بعثني المهديُّ ابن الوصي إليكم أميناً ووزيراً، وأمرني بقتل المُلْحِدين، والطلب بدم أهل بيته، والدفع عن الضعفاء »[3].

ويروي الواقدي – بإسناده – عن عروة بن الزبير: أن المختار – بعد أن انتقل إلى الكوفة – أخذ يُشنِّعُ على عبد الله بن الزبير، ويذكر عيوبه ويشيع بين الناس أنه كان – في بدء أمره – يدعو إلى « إمامة » محمد ابن الحنفية، ثم ظلمه إياه. ومن هنا – وحسب الرواية نفسها - رأى المختار أن ابن الحنفية أحقُّ بالإمامة، فأخذ يعظِّمُه، ويذكر وَرَعَه، وأنه بعثه إلى الكوفة يدعو إلى « إمامته »، وأنه كتب إليه كتاباً بذلك، وكان المختار يقرأ هذا الكتاب على من يثق به، فيبايعه الناسُ باسم ابن الحنفية سرَّاً[4].

---

(١) الخازر: نهر بين « إربل » و« الموصل »، ثم بين « الزاب الأعلى » و « الموصل » شمال العراق (ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١٤١).

(٢) تفاصيل هذه الأحداث: تاريخ الطبري (٦/ ٣٨-٤٤، ص٦٧-٦٨، ص٨١-٩٤، ص١٠٣-١٠٤).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف (٦/ ٣٨٠)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥ / ٥٨٠)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٤)، النوبختي: فرق الشيعة (ص٢٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ / ١٧٢).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠٠)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٢)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٢١).

ولكي يُضْفي المختار المصداقيةَ علي دعوته أراد أن يكسبَ إلي جانبه رجلاً من أهل الكوفة، « لا يستطيع رؤساء الشيعة أن يَلْقَوا دونه نجاحاً »[1]، وهو إبراهيم بن الأشتر النَّخْعي[2] زعيم قبيلة « النَّخْع »[3]. ولكي يُقنعه المختار بأنه مبعوث من قبل ابن الحنفية للقيام بمهمة الثأر من قتلة الحسين أخرج له كتاباً علي لسان ابن الحنَفية يدعو فيه إبراهيمَ بن الأشتر نفسَه بمؤازرة المختار، وأشهد عليه شهوداً[4]، وقال له: « إن الله قد أكرمك، وأكرم أباك من قَبلك بموالاة بني هاشم ونُصرتهم، ومعرفة فضلهم، وما أوجب الله من حقهم. وقد كتب إليك محمد بن علي بن أبي طالب هذا الكتاب، بحضرة هؤلاء النفر الذين معي ». فشهدوا جميعاً وقالوا: « نشهد أن هذا كتابه، رأيناه حين كتبه »[5].

ونصُّ الكتاب – كما ذكره الدينوري في (الأخبار الطوال)–: « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن علي، إلي إبراهيم بن الأشتر. أما بعد؛ فإن المختار بن أبي عُبيد علي الطلب بدم الحسين، فساعدْه في ذلك، وآزرْه، يُثبْكَ اللهُ ثوابَ الدنيا، وحسنَ ثواب الآخرة »[6]. وعندئذ سلَّمَ ابن الأشتر للمختار بالزعامة، وأعلن أنه من أنصاره، أنصاره، وقال له: « أنا أولُ من يُجيب، قد أُمِرْنا بطاعتك ومُؤازرتك، فقُلْ ما بدا لك، وادْعُ إلي مَن شئتَ »[7].

---

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعة (ص١٤٧).

(٢) إبراهيم بن الأشتر النخعي، نعته الذهبي بقوله: « أحد الأبطال والأشراف كأبيه، وكان شيعياً فاضلاً ». وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد يوم وقعة الخازر سنة ٦٧هـ . ثم إنه كان من أمراء مصعب بن الزبير، وقُتل معه في سنة (٧٢هـ) في قتاله ضدَّ عبد الملك بن مروان (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦ / ١٥–١٨)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٥).

(٤) ستأتي أسماؤهم في موضع لاحق قريب (راجعها ص).

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال (١/ ٢٨٩).

(٦) الدينوري: المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠٠ – ١٠١)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٢). وانظر الأخبار الطوال الطوال (١/ ٢٩٠).

كان ابن الأشتر قائداً مَهيبَ الجانب، ومن أبرز شخصيات عصره، وله عصبية قوية، «ولم يكن في شيعة الكوفة أجمل منه، ولا أكثر منه تبعاً » (كما وصفه البغدادي)[1]. ويُعدُّ انضمامه – مع أنصاره – إلي صفوف المختار كَسْباً عظيماً لحركته، وتقويةً لدعوته، والإسراع بإعلان الثورة في الكوفة، والاستيلاء عليها في ربيع الأول (سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م)[2]. وقد أرسله المختار علي رأس جيش لقتال عُبيد الله بن زياد، فالتقوا في معركة عند (نهر الخازر)، بالقرب من الموصل، قُتل فيها عُبيد الله وعدد كبير من أشراف الشام[3]. وقد زاد هذا الانتصار من ثقة شيعة الكوفة بالمختار، فعظم شأنه واتسع نفوذه.

ومن المؤكد أنَّ أحد الأسباب الكبرى التي دفعت كثيراً من أهل الكوفة إلي الالتفاف حول دعوة المختار، والقتال تحت رايته: انتسابُه إلي محمد ابن الحنفية، والدعوة باسمه. وهذا هو ما سجَّله الشهرستاني بقوله: « وإنما انتظم له ما انتظم بأمرين

أحدهما: انتسابه إلي محمد ابن الحنفية، علماً ودعوةً. وإنما حمله علي الانتساب إليه حسنُ اعتقاد الناس فيه، وامتلاءُ القلوب بمحبته، فقد كان كثيرَ العلم، غزير المعرفة، وَقَّاد الفكر، مُصيبَ الخاطر في العواقب، قد أخبره أمير المؤمنين علي ﷺ عن أحوال الملاحم، وأطلعه علي مدارج المعالم.

والثاني: قيامُه بثأر الحسين بن علي، واشتغالُه ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا علي قتل الحسين »[4].

ويرى د.الخرْبُوطلي – في تفسيره لدعوة المختار باسم ابن الحنفية والانتساب إليه – أن الحركات السياسية في ذلك الوقت كانت في حاجة إلي صبغة دينية، لتُوفِّرَ لها سُبُلَ

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٥).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ١٨ وما يليها).

(٣) الطبري: المصدر السابق (٦/ ٦٨-٩٢)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٦).

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل (١ / ٤٠).

النجاح والنصر. والمختارُ رجلٌ سياسي بارز، له شأنٌ بين العرب والمسلمين، ولكنَّ زعامتَه السياسية كانت في حاجة إلي جانب روحي، ومن هنا تَوجَّه إلي ابن الحنفية وربط حركته به، لاسيما وهو أخو الحسين المقتول في كربلاء[1]، والذي أعلن المختار أنه يريد الثأر من قاتليه.

ويقول (مونتجمري وات Montgomery Watt):«والرجال الذين كان لديهم طموحات سياسية ومؤهلات للقيادة دون أن ينتسبوا للهاشميين، استغلوا هذه الرغبة العامة لوجود الإمام. فالمختار الثقفي علي سبيل المثال ادَّعي أنه يعمل بوصفه ممثلاً لإمام حقيقي، هو محمد ابن الحنفية ... لكن من المؤكد أنه لم يتَلَق مساعدة فعلية منه»[2]

ويفسر ابن كثير الهدفَ الذي يسعى إليه المختارُ من وراء الدعوة إلي « إمامة » ابن الحنفية – عن غير أمر منه ورضاه- بقوله: « ليُروِّجُوا علي الناس به، وليتوصَّلوا إلي أغراضهم الفاسدة»[3]. وقال أيضاً: « وسيأتي في ترجمة المختار ما يدلَ على كذبه وافترائه، وادِّعائه نصرةَ أهل البيت، وهو في نفس الأمر مُتَسترٌ بذلك، ليجمع عليه رعاعاً من الشيعة الذين بالكوفة، ليقيم لهم دولة، ويَصُولُ بهم ويَجُول على مخالفيه صَوْلة»[4].

أما عن موقف ابن الحنفية من المختار فهو الرفض التام لدعوته، وإعلانُ البراءة منه علي الملأ، ليصرف الناسَ عنه، وتكذيُبه في ادِّعائه أنه مبعوث من قِبَله إلي الكوفة ليدعو إلي إمامته والثأر من قَتَلة الحسين بن علي ﷺ.

وفي البدء - وقبل أن يغادر المختار مكة إلي الكوفة – كان ابن الحنفية يتوجَّس منه خيفةً، ولا يثق فيه، وقد نصح عبدَ الله بن كامل الهَمْداني (وهو الذي صاحب المختار

---

(١) د.علي حسني الخربوطلي: المختار الثقفي مرآة العصر الأموي (ص١٦٤).

(٢) W.Montgomery Watt: Islmic Philsophy and Theolog, Edinburgh ١٩٦٢. P. ٢٣ , ٢٤

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٧٨٧).

(٤) ابن كثير: المصدر السابق (٤/ ٨٢١).

في طريقه إلي الكوفة حين لم يجد من ابن الزبير في مكة ما كان يُؤمِّله فانفصل عنه) وقال له: « تحرَّزْ منه، واعلم أنه ليس له كبيرُ أمانة »[1].

ويمكن أن نُحدِّدَ الأسباب التي تفسر هذا الموقفَ الرافض في النقاط الآتية:

١ – ما عُرف عن ابن الحنفية من اعتزال الفتن، والتحذير من سفك الدماء. وقد سبق بيان موقفه من خروج أخيه الحسين ﷺ، ورفضه الصارم لثورة أهل المدينة علي يزيد بن معاوية، وامتناعه من البيعة لابن الزبير وعَبد الملك بن مروان إبَّانَ الصراع الذي وقع بينهما للانفراد بالخلافة. وتتلخص مواقف ابن الحنفية هذه في الكلمة التي رواها عنه الحارث الأزدي[2] حيث قال: « رحم الله امرءاً أغنى نفسَه، وكفَّ يده، وأمسك لسانَه، وجلس في بيته، وهو يوم القيامة مع مَنْ أحبَّ »[3]. وهو الذي قال حين منَعَه عبد الملك بن مروان من دخول الشام إلا إذا بايعه بالخلافة، فأراد العودة إلي مكة فمنعه ابن الزبير من دخولها، فعرض عليه أصحابه القتال، وقالوا: «لو أمَرَنا بالقتال لقاتَلْنا معه » – فقال لهم: «الحقوا برحالكم، واتقوا الله، وعليكم بما تَعْرفون، ودَعُوا ما تُنكرون، وعليكم بخاصَّة أنفسكم، ودَعُوا أمْرَ العامَّة »[4].

وقد أبان ابنُ الحنفية عن عقيدته تلكَ للوفد الذي وفد إليه من أهل الكوفة وهو لا يزال بمكة (أثناء وجوده بحبس ابن الزبير)، وذلك حينما تشكَّكُوا في موقف المختار، فأرادوا أن يستوثقوا من مدى صحة الكتاب الذي أطلعهم عليه، والذي ينُصُّ علي أنه مبعوثٌ من قبَل ابن الحنفية للدعوة باسمه، والبيعة له بالإمامة، فكان ردُّ ابن الحنفية علي الوفد: « نحن حيث ترَوْنَ مُحتَبسُون، وما أُحبُّ أنَّ لي سلطانَ الدنيا بقتل مؤمن بغير حق، فاحذروا الكذَّابين، وانظروا لأنفسكم ودينكم »[5].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧ / ٩٩).

(٢) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (٢ / ١٦١)، وقال عنه: « يروي عن ابن الحنفية. ذكره ابن حبان في الثقات » .

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف (٦ / ١٩١)، رقم (٣٠٥٨٧) ، (٧/ ٤٥٤)، رقم (٣٧١٧١).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٤).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ١٠٠)، ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤ / ٣٤٢).

ويروي ابن عساكر في (تاريخ دمشق) من طريق سفيان بن عيينة، عن أبي الجَحَّاف – وكان من الشيعة –: أنَّ رجلاً من أهل البصرة جاء إلي محمد بن علي ابن الحنفية حين خرج المختار فقال له: « إنَّ هذا – يعني المختار – قد خرج علينا، وإنه يدعو إليكم، فإن كان من أمركم اتبعناه». فردَّ عليه ابن الحنفية بأنه لا علاقة له بما يدَّعيه المختار، وأكَّد له أن «الإمامة» – وهي الخلافة – لا تثبت بوصية، ولا تصحُّ إلا ببيعة من الأُمَّة، وقال للرجل: « سآمُرك بما كنتُ آمُرُ به ابني هذا؛ إنَّا أهلُ بيت لا نَبتَـزُّ هذه الأمةَ أمرَها، ولا نأتيها من غير وجهها، وإنَّ عليا لم يقاتلْ حتى جَرَتْ له بيعة »[1].

وفي حادثة أخرى يرويها الطبري تشير إلي هذا المبدأ الذي تبنّاه ابن الحنفية في موقفه من الأحداث التي عاصرها (وهو الاعتزال، والتحذيرُ من الفُرقة، والكفُّ عن الدماء)، جاء فيها أن المختار كتب إلي ابن الحنفية كتاباً حمله إليه صالح بن مسعود الخثعمي، يخبره فيه أنه بعث إلي (المدينة) جيشاً لنصرته، فغدر بهم جيش ابن الزبير، وقال له:« فإن رأيتَ أن أبعثَ جيشاً آخرَ إلي المدينة، وتبعث من قِبَلك رسلاً إليهم فافعل ». لكنَّ ابن الحنفية رفض ذلك، وقال لصالح بن مسعود : « قُل للمختار فليتق الله، وليكفف عن الدماء ». ثم كتب إليه: « إنَّ أحبَّ الأمور كلّها إليَّ ما أُطيع الله فيه، فأطع الله فيما أسررتَ وأعلنتَ، واعلم أنّي لو أردتُ القتال لوجدتُ الناس إليَّ سراعاً، والأعوانَ لي كثيراً، لكني أعتزلهم وأصبر حتى يحكمَ الله لي، وهو خير الحاكمين »[2].

٢– ومما يؤكد موقف ابن الحنفية الرافض لدعوة المختار: شهادة فقيه الكوفة عامر ابن شَرَاحيل الشَّعْبي[3] (المتوفي١٠٤هـ/ ٧٢٢م) علي تزوير الكتاب الذي أخرجه المختار (علي لسان ابن الحنفية) مُوَجَّهًا إلي إبراهيم بن الأشتر النَّخْعي الكوفي زعيم

---

(١) ابن عساكر: المصدر السابق (٥٤ / ٣٤٦)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٠).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦ / ٧٥)، مسكويه: تجارب الأمم (٢/ ١٢٣).

(٣) عامر بن شراحيل الشَّعْبي، الهمداني، الكوفي. مولده (سنة ٢٨هـ)، رأي عليَّ بن أبي طالب، وصلى خلفه، وأدرك خلقاً من كبار الصحابة، وقال عن نفسه: « أدركت خمسمائة من أصحاب النبي ﷺ ». وكان من بحار العلم، إماماً حافظاً، فقيهاً (له ترجمة مفصلة في ابن سعد: الطبقات ٦/ ٢٤٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤–٣١٩).

قبيلة النَّخْع، يحثُّه فيه علي الانضمام إلي المختار ومؤازرته في القيام بمهمة الثأر من قتلة الحسين بن علي. ولكي يُقنعه المختار بصحة الكتاب[1] أشهد عليه شهوداً وقال له: « وقد كتب إليك محمد بن علي بن أبي طالب هذا الكتابَ بحضرة هؤلاء الشهود الذين معي». فقالوا جميعاً: « نشهد أن هذا كتابه، رأيناه حين كتبه ». فقال ابن الأشتر: « سمعاً وطاعةً لمحمد بن علي»، ثم سلَّم للمختار الزعامة والقيادة، ووجه إليه كلامه قائلاً:« قُلْ ما بدا لك، وادْعُ إلي ما شئت »[2]. وقد تشكَّك الشَّعْبي في صحة هذا الخطاب، وكان هو وأبوه ممن انضموا إلي المختار[3] ، وكان حاضراً في المجلس الذي جمع بين المختار وابن الأشتر، وسمع شهادة الشهود، وكان مما قال في هذا: « ودخلتني وحشةٌ من شهادة النفر الذين كانوا معي علي أنهم رأوا محمد ابن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب إلي إبراهيم بن الأشتر ». ومن هنا قام الشَّعْبي بمحاولة للاستيثاق من صدق هؤلاء الشهود، فراجعهم واحداً واحداً، وكانوا أربعة نفر- وهم[4]: « يزيد بن أنس الأسدي، وأحمْر بن شُميْط البجلي، وعبد الله بن كامل الشاكري، ومالك بن عمرو النَّهدي، وأبو عَمْرة كَيْسان مولي بَجيلة – فكان كلٌ يقول «نعم»، إلا أبا عَمْرة حين سأله الشَّعْبي – وقد ذهب إليه في منزله –: « ما أخوَفَني من عاقبة أمرنا هذا أن ينصب الناسُ جميعاً لنا، فهل شهدتَ محمدَ ابن الحنفية حين كتب ذلكَ الكَتاب؟ »، فقال: « والله ما شهدته حين كتبه، غير أن أبا إسحق – يعني المختار- عندنا ثقة، وقد أتانا بعلاماتٍ من ابن الحنفية فصدَّقناه». وعندئذٍ أدرك الشَّعبي حقيقة المختار وقال:

---

(١) سبق ذكر نص الكتاب – راجعه (ص١٢٦).

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال (١/ ٢٨٩)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤ / ٣٤٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٨٠٩-٨١٠).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ١٥).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٧/ ١٠٠-١٠١)، الدينوري: الأخبار الطوال (١/ ٢٨٩)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦/ ١٥-١٦)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٨١٠).

«فعرفت عند ذلك كذبَ المختار وتمويهَه، فخرجتُ من الكوفة حتى لحقتُ بالحجاز، فلم أشهد من تلك المشاهد شيئاً »[1].

وفي رواية الطبري (عن أبي مخنف لوط بن يحي الشيعي) أن عامر الشَّعْبي كان يتهم هؤلاء الشهود، لكنه كتم ذلك عن ابن الأشتر حين سأله عنهم. وقد أبان الشَّعبي عن سبب كتمانه، وهو رغبته في خروج المختار للأخذ بثأر الحسين، وعبَّر عن ذلك بقوله لابن الأشتر: « قد شهدوا علي ما رأيتَ، وهم سادة القُراء، ومشيخة المصْر، وفرسان العرب. قال: فقلت له هذه المقالة، وأنا – والله – لهم علي شهادتهم مُتَّهِمٌ، غير أنِّي يُعجبني الخروجُ وأنا أرى رأيَ القوم، وأحبُّ تمام ذلك الأمر، فلم أُطلعْه علَي ما في نفسي من ذلك »[2].

ويمكن الجمع بين الروايتين – وإن كنا لا نُعوِّلُ علي روايات أبي مخنف، لاتهامه بالكذب[3]-: أن الشَّعْبيَّ لما ظهرت له ضلالاتُ المختار بن أبي عبيد (علي نحو ما سنذكره) انفضَّ عنه، وخلع يده من نصرته، وخرج من الكوفة. ولعل مما يؤيد ذلك ما رواه الخطيب البغدادي عن الشَّعْبي قال: «أخرجَ علينا المختار صحيفة، فقال: (جاءتني هذه البارحَةَ من عليٍّ)، فتركناه، وخرجنا إلي المدائن »[4].

٣- ونضيف هنا إلي كلام الشَّعْبي عن أوهام المختار ودَجَله وضلالاته التي كشفت ادِّعاءَه، وعرَّتْ مقاصدَه، ودفعت جماعة من خواصِّه ومُقَرَّبيه إلي الانفضاض عنه - وهي في الوقت نفسه تُعدُّ من الأسباب التي تفسِّر موقف ابن الحنفية الرافض لدعوته وإعلان البراءة منه -: ما نقله أحدُ أنصار المختار والمقرَّبين إليه، ثم اعتزله لما

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال (١ / ٢٨٩-٢٩٠).

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (٦/ ١٥-١٦)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٨١٠).

(٣) ترجم له ابن حجر في: لسان الميزان (٤ / ٤٩٢) وقال عنه: (إخباري تالفٌ، لا يُوثق به. تركه أبو حاتم وغيره. وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم. وذكره العقيلي في الضعفاء. مات قبل سنة السبعين ومائة).

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٧).

رآه يُبطنُ غير ما يُظهر، وهو أبو عاصم رفاعة بن شدَّاد الفتْياني[1]، البَجَليّ، حيث قال – كما في رواية أحمد بن حنبل في (المسند) بإسناد حسن – : « دخلتُ علي المختار، فألقى لي وسادةً وقال: لولا أنَّ جبريل قام عن هذه لألقيتُها لك. فأردتُ أن أضرب عُنقَه (وفي رواية أخرى قال: كنت أقوم علي رأس المختار، فلما تبيَّنتُ كذباته هممتُ أن أسُلَّ سيفي، فأضرب عنقه)، فذكرتُ حديثاً حدَّثنيه عَمرو بن الحَمق قال: قال رسول الله ﷺ: أيُّما مؤمنٌ أمَّنَ مؤمناً علي دَمه فقتَله فأنا من القاتل برئ »[2].

ويؤكد البغدادي والنُّوبختي علي أن المختار أظهر الكهانة والأسجاع، وخدعَتْه (السَّبئية) وقالوا له:« أنت حُجَّة الزمان»، وحملوه علي دَعْوى النُّبوة، فادَّعاها عند خوَّاصّه، وزعم أن ملك الوحي « جبريل » عليه السلام ينزل عليه[3].

وكان المختار يعمل علي ترويج آرائه ومذهبه، بأن يُعطي الرجل ممن تبعه من السَّفلة والرعاع الألفَ دينار والأقلَّ، علي أن يروي له في تقوية أمره حديثاً[4]، حتى قال عنهم نصر بن خُزيمة العَبْسي[5]: « قاتلَهم الله، أيّ عصابة تشانُّوا[6]، وأيّ حديث أفسدوا » [7]. وكان صلة بن زُفَر – وهو من التابعين ومن علماء الكوفة الثقات،

---

(١) منسوب إلي « فتيان » : بطن من بجيلة. كان من أنصار علي بن أبي طالب، ومن الشيعة الكوفيين، وشارك في ثورة التوابين الذين خرجوا للطلب بدم الحسين (سنة ٦٤هـ) وانضم إلي المختار، ثم ظهر له كذبه فاعتزله، توفي سنة ٦٦هـ (راجع عنه: تهذيب الكمال للمزي(٩/ ٢٠٤)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم(٣/ ٤٩٣).

(٢) الإمام أحمد (المسند ٣٦ / ٢٧٧، ٢٧٩) رقم (٢١٩٤٦) و (٢١٩٤٨)، ابن ماجه: السنن (رقم ٢٦٨٨)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٤٥ / ٤٩١). الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٧-٤٨)، النوبختي: فرق الشيعة (ص٢٣-٢٤).

(٤) الجوزجاني: أحوال الرجال (ص٣٩-٤٠).

(٥) نصر بن خُزيمة : كان من الخارجين مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في ثورته علي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بالكوفة سنة ١٢١هـ، وقتل، وصلب (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٢١٢).

(٦) شانَه شيْناً : شوَّهه، وعابه. والشَّيْن: العيب والقُبْح. والمَشاين: المعايب والمقابح (المعجم الوسيط: شين).

(٧) الجوزجاني: أحوال الرجال (ص١٤).

وعاصر المختار وسمع مقالاته[1] – يقول:« قاتل الله المختار، أيّ شيعةٍ أفسدَ، وأيُّ حديث شانَ »[2].

ويرى كثير من المؤرخين أن المراد بـ«الكذاب» في رواية مسلم في (صحيحه) عن النبي ﷺ قال: « يكون في ثقيف كذَّابٌ ومُبير »[3] هو المختار بن أبي عُبيد، « وكان – كما يقول ابن كثير والذهبي في تعليقاتهما علي الرواية – يُظهرُ التشيعَ ويُبطن الكهانة، وأسرَّ إلي أخصَّائه أنه يُوحي إليه. وأما المبير فهو القتَّال، وهو الحَجَّاج بن يوسف الثقفي نائبَ العراق لعبد الملك بن مروان »[4].

وبعبارة وجيزة يلخص صاحب (البدء والتاريخ) دعوة المختار وحقيقة حاله فيقول: « كان المختار يحتال في استمالة الناس بضروب من الحيَل، وكان يروي الروايات، ويستعمل المخاريق، ويدَّعي المعجزات، ويأمر بعضَ أصَحابه أن يشهد له أنه رأى الملائكة نزلت لنصرته »[5].

ولَّما علم ابن الحنفية بهذه الآراء والمعتقدات التي صدرت عن المختار أعلن البراءة منه علي الملأ. ويؤكد الشهرستاني في (الملل والنحل) علي ذلك بقوله: « إن السيد محمد ابن الحنفية تبرَّأ من المختار حين وصل إليه أنه قد لبَّس علي الناس أنه من دعاته ورجاله، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها المختار، من التأويلات الفاسدة، والمخاريق المموَّهة ... »[6]. ويقول الرازي في (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) في في تعريفه للمختارية: « هم أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، وهم يقولون : إن الإمام

---

(١) راجع عنه ابن حجر: تقريب التهذيب (١ / ٣٧٠).

(٢) الجوزجاني: أحوال الرجال (ص٤٠)، النووي: شرح صحيح مسلم (١ / ١٤).

(٣) مسلم بن الحجاج: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب" باب ذكْر كَذَّاب ثَقيف ومُبيرها"(رقم ٢٥٤٥)، ورواه الإمام أحمد : المسند (٦/ ٣٥٢)، رقم (٢٧٠١٩) ، والترمذي: السنن (رقم٢٢٢٠).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٨٢١ ، ٨٤٣). والذهبي: سير أعلام النبلاء (٣ / ٥٣٩).

(٥) المقدسي: البدء والتاريخ (١ / ٣٣٤).

(٦) الشهرستاني: الملل والنحل (١ / ٤٠).

بعد الحسين هو محمد ابن الحنفية، ثم زعم المختار أنه نائب محمد، ودعى الخلقَ إلي الضلالة، وأراد محمد أن يقصد نحوه ويمنعه عن ذلك »[1].

٤- وأقوى الأدلة - في رأينا - علي أن ادّعاء المختار صلته بابن الحنفية - وقوله إنه مبعوثٌ من قِبَله إلي الكوفة ليدعو إلي إمامته، ويأخذ البيعة من الناس باسمه -: رغبةُ ابن الحنفية في الذَّهاب إلي الكوفة لمواجهته وتكذيبه، وليصرفَ الناسَ عنه. لكنَّ المختار حين بلغه ذلك خاف أن ينكشف أمره، ويفقد رياسته وسلطانه، فقال لجنده: إنَّا علي بيعة المهدي، ولكنْ للمهدي علامة، وهو أن يُضربَ بالسيف ضربةً، فإن لم يقطع السيفُ جِلْدَه فهو المهدي ». فلما بلغ قولُه هذا ابنَ الحنفية أقام بمكة، خوفاً من أن يقتله المختار بالكوفة[2].

٥- وقد تشكك أشراف الكوفة في مصداقية المختار، واستبعدوا أن يكون محمد ابن الحنفية قد بعثه إلي الكوفة يدعو باسمه، فثاروا عليه، وأعلن قائدهم شَبَث بن ربْعي « أن المختار تأمَّر علينا بغير رضًا منَّا، وزعم أن ابن الحنفية بعثه إلينا، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل، وأطعم موالينا فيئَناً، وأخذ عبيدَنا، وأنه أظهر – هو وسبيئتُه البراءة من أسلافنا الصالحين »[3]. وقد استطاع المختار – بما اجتمع إليه من « السبئية » وعبيد أهل الكوفة - أن يقضي علي هذه الثورة في مهدها[4].

٦- وكان ابن الحنفية ينهى عن القتال مع المختار ونُصرته، ويرى أن خروج المختار في العراق وقتاله للأمويين إنما هو قتال فتنة، ويؤدي إلي الفُرقة وتمزيق الأمة.

---

(١) الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (١ / ٦٢) .

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٧)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٣)، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (١ / ٦٢).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٦ / ٤٤).

(٤) تفاصيل الأحداث في تاريخ الطبري (٦ / ٣٨- ٤٤) وراجع البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٨).

وقد سأله معاوية بن ثعلبة: « إن رسول الله [1] المختار أتانا يدعونا »، فقال ابن الحنفية: « لا تقاتل، إني لَأكرهُ أن أبْترَ هذه الأمةَ أمرَها، أو آتيها من غير أمرها »[2].

٧- أنكر ابن الحنفية القولَ بوجود « وصيَّة » بالإمامة (أي الخلافة) لعلي بن أبي طالب ﷺ بعد النبي ﷺ، ثم انتقلت لأبناء عليٍّ من بعده، كما يدَّعي الشيعة عامةً، والشيعة «الكَيْسانية » أتباع المختار، وكما يدَّعيها المختار نفسُه لابن الحنفية حينما زعم أنه مبعوث من قِبَله، ووصفه بـ « المهْديِّ الوَصيّ بن الوَصيّ»[3]. وقد روي البخاري عن عبد العزيز بن رُفَيْع قال: دخلتُ أنا وشدَّاد بن مَعْقل على ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له شدَّاد: أترك النبي ﷺ من شيء ؟ قال: « ما ترك إلا ما بين الدفتين». قال: ودخلنا على محمد ابن الحنفية فسألناه، فقال: « ما ترك إلا ما بين الدفتين»[4]. وقد علَّق ابن حجر في شرحه لهذه الرواية بقوله: « وقد تلطف المصنف - يعني البخاري - في الاستدلال على الرافضة بما أخرجه عن أحد أئمتهم الذين يدَّعون إمامتَه، وهو محمد ابن الحنفية بن علي بن أبي طالب، فلو كان هناك شيءٌ ما يتعلَّق بأبيه لكان هو أحقَّ الناس بالاطلاع عليه، وكذلك ابن عباس، فإنه ابن عمِّ عليٍّ، وأشد الناس له لزوماً واطلاعاً على حاله». وقال أيضاً:« وأما جواب ابن عباس وابن الحنفية فإنما أرادا من القرآن الذي يُتلى، أو أرادا مما يتعلق بالإمامة، أي لم يترك شيئًا يتعلق بأحكام الإمامة إلا ما هو بأيدي الناس»[5]. وقال العَيْني في تعليقه على الرواية نفسها: « استدل البخاري

---

(١) إشارة إلى ادّعاء المختار النبوة، وأن البعض صدَّقه في ذلك.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف (٦ / ١٩١) رقم (٣٠٥٨٦).

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٥/ ٥٨٠)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص٤٤).

(٤) البخاري: الصحيح، كتاب (فضائل القرآن)، باب (من قال لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين)، رقم (٥٠١٩) [فتح الباري ٨/ ٦٨٢]. البيهقي: شعب الإيمان (١/ ١٨٩) رقم (١٦٨).

(٥) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٦٨٣).

على الروافض في بطلان مذهبهم بمحمد ابن الحنفية الذين يدَّعون إمامتَه، فلو كان شيء يتعلق بإمامة أبيه علي بن أبي طالب ﷺ لما كان يسَعُه كتمانه، لجلالة قدره، وقوة دينه»[1].

وكانت الشيعة تعتقد أنَّ ابن الحنفية – في حياته وبعد موته – هو « المهدي»[2]، أي الذي أخبر رسول الله ﷺ – في الروايات الصحيحة – بظهوره آخر الزمان، ويُبايع بالخلافة عند الكعبة بين الركن والمقام[3]. وكان ابن الحنفية ينكر ذلك علي من يصفه بهذا الوصف، ونقل عنه ذلك ابنُه عبد الله (أبو هاشم)، حيث قال: « قالوا لأبي: يا مهدي، السلام عليك. فقال: سبحان الله، ألم أنْهكُم عن هذا ؟ إنما المهديُّ مَنْ هدي الله

---

(١) العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري(٢٩ / ١١١).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف (٦/ ٣٨٠)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٢١).

(٣) من الجدير بالإشارة إليه هنا أن ابن الحنفية روي عن أبيه عليٍّ حديث رسول الله ﷺ في مَهْدي آخر الزمان، وهو قوله ﷺ: « المهدي منا أهل البيت، يُصلحُه الله في ليلة» (رواه ابن أبي شيبة: المصنف ٧/ ٥١٣، أبو نعيم: حلية الأولياء ١/ ٤٧٢) . وقد نقل عبد الرزاق البيطار في (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١ / ٣٥٧) كلام ابن حجر في رسالته في علامات المهدي، قال فيها: والذي يتعين اعتقاده ما دلت عليه الأحاديثُ الصحيحة من وجود المهدي المنتظر، وهو الذي يخرج الدجَّال وعيسى عليه السلام في زمنه، وهو المراد حيث أُطلق المهدي، وأما مَن قبله فليس واحد منهم هو المهدي المنتظر، ويكون قبل المهدي أمراء صالحون، لكنهم ليسوا مثله، فهو الأخير في الحقيقة. وإنما قالوا بذلك التعدد لأنه قيل في محمد ابن الحنفية أنه المهدي، وقيل في عمر بن عبد العزيز أنه المهدي، وقيل في محمد النفس الزكية أنه المهدي، فهؤلاء أُطلق على كل واحد منهم أنه المهدي، فيثبت بذلك تعدد المهديين قطعاً، لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدي المنتظر، وهو واحد، ولم يظهر إلى الآن، إنما يظهر بمكة والناس بلا خليفة، وذكروا له علامات كثيرة، بعضها مضى وانقضى، وبعضها باق لم يظهر. ومن أعظم علاماته أنه يصلحه الله في ليلته، وأنه من ولد فاطمة رضي الله عنها، وأنه يُبايَع مكرَهاً، لا أنه يطلب البيعة لنفسه ويقاتل الناس لتحصيلها، وأن ظهور البيعة له إنما تكون بمكة بين الركنين. وإن ظهوره إنما يكون عند وجود اختلاف بموت خليفة، فلا يظهر ويبايع إلا والناس بلا خليفة، فهذه الأشياء هي أقوى العلامات عليه، وله علامات أخري ذكرها الذين ألفوا الرسائل في تحقيق أمره ».

عز و جل»[1]. وروي ابن عساكر عن أبي جمرة نصر بن عمران الضبعي قال: « كانوا يُسلِّمون على محمد بن عليٍّ ابن الحنفية: سلام عليك يا مهدي. فقال: أجَلْ، أنا مهدي، أهدي إلى الرشد والخير. اسمي اسمُ نبي الله، وكُنيتي كُنية نبي الله، فإذا سلَّم أحدُكم فليقل: سلامٌ عليك يا محمد، سلامٌ عليك يا أبا القاسم »[2].

ولا راضياً عن آرائه وتوجُّهاته، ولم يبعثه إلي الكوفة نائباً عنه أو داعيًا لإمامته. ومن هنا يظهر خطأ القول – اعتماداً علي بعض الروايات الشيعية – بأن المختار « نال تأييد ابن الحنفية وسائر بني هاشم»[3]، وخطأ القول بأن ابن الحنفية « اكتفي بالتأييد الأدبي للمختار »[4].

وتجدر الإشارة هنا – أخيراً – إلي ما رَوَتْه كثيرٌ من المصادر التاريخية: أن أبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية انتقلت إليه إمامة «الشيعة» بوصية من أبيه محمد حين حضرته الوفاة، وقلَّده أمر أنصاره، والقيام بشأنهم، وظل يدعو إلي نفسه سرّاً، فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة الأموية (٩٦-٩٩هـ/ ٧١٥-٧١٧م) وفد عليه أبو هاشم، واستبرع سليمان بيانَه وعقلَه، فقال: « ما أظنُّ هذا إلا الذى يُحدَّثَ عنه » (أى في الدعوة إلى الخلافة في آل محمد)، ثم سعى في قتله، وأرصد له في طريقه من وضع له السُّمَّ في اللبن، فشربه فمرض، فعَدَلَ إلى « الحُمَيْمة » بأرض الشراة (إقليم بين الحجاز و البلقاء، جنوب بلاد الشام)، والتقى بمحمد بن على بن عبد الله بن العباس، ونقل إليه « الإمامة »، وأطلَعه على أسرار الدعوة، وسمَّى له شيعته ودفع إليه كتبه ورواياته وما سُمِّى بـ « الصحيفة الصفراء »، وقال له: « يا ابن عمِّ، إنَّا كنا نظنُّ أن الإمامة والأمر فينا، فقد زالت الشُّبهة، وصرح اليقينُ بأنك الإمام (دون أبي رحمه الله)،

---

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين (٣ / ١٥٧).

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٤٧)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٢٣)..

(٣) W.Montgomery Wat: Islmic Philsophy and Theolog Edinburgh ١٩٦٢. P.٢٤

(٤) د. الخربوطلي: المختار الثقفي مرآة العصر الأموي (ص٢٢٣، ٢٢٤).

والخلافةُ في ولدك»[1]. ومن هنا انتقلت وصية الدعوة إلى « الإمامة » من البيت العلوي إلى البيت العباسي، وبدأ محمد بن عبد الله بن العباس الهاشمي دعوته من الحُميمة (سنة٩٧هـ/ ٧١٥م) أو(٩٨هـ/ ٧١٦م) إلى أن توفي (سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م)، ثم تسلَّم القيادة بعده – بوصية منه – ابنُه « إبراهيم »، فنقلها إلى دعوة علنية بدءاً من (سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م)، ثم قُبض عليه وقُتل في السَّنة نفسها[2]، ثم واصلت الثورة العباسية مسيرتها، وحقق العباسيون انتصاراتهم على الأمويين على يد أبي مسلم الخراساني، حتى أعلنوا الخلافة في الكوفة، وبايعوا أبا العباس « عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » الملقب بالسفَّاح، في ربيع الأول (سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م).

والحقُّ أن القول بأن « الإمامة » انتقلت بالوصية من أبي هاشم إلي محمد بن على العباسى فيه كثيرٌ من النظر، وإن القراءة المتأنية لهذا الحدث، بالنظر الفاحص إلي مدي صحة الروايات التى تدور حوله، كما أن التتبع لأقوال أئمة البيت العلوي المروية عنهم في أمر « الوصية »: كلُّ هذا يجعلنا نشك في صحة وقوعها، ومن ثمَّ نميل إلي القول بأنه لم يصح أن محمد ابن الحنفية، ولا ابنه أبا هاشم عبد الله – ولا أحداً من أئمة البيت العلوي – قبلهما أو بعدهما – نسب لنفسه « وصية » ولا « إمامة ». ومن هنا لم يعْط أبو هاشم أسرارَ « الدعوة » وتنظيمَها لمحمد بن علي العباسي، إذْ لم يكن لأبي هاشم

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف (٤/ ١٠٨). والقصة رواها اليعقوبي: التاريخ (٢/ ٢٩٦-٢٩٧)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٤/ ٣٠٣)- وليس فيه حدث السُّم - ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٢٢، ٤٧١)، مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية (١/ ١٨٥،١٨٤)، ابن عبد ربه: العقد الفريد (٤/ ٤٧٥-٤٧٦)، المسعودي: التنبيه والأشراف (ص٣٠٨)، المقدسي: البدء والتاريخ (٦/ ٥٨ – ط: باريس)، مصعب الزبيري: نسب قريش (ص٧٥)، الشهرستاني : الملل والنحل (١/ ١٥٦)، المزي: تهذيب الكمال (١٦/ ٨٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ١٨٨).

(٢) اليعقوبي: التاريخ (٢/ ٣٤٢)، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (٧/ ٤٣٦)، المسعودي: مروج الذهب (٣/ ٢٩٦)، المقدسي: البدء والتاريخ (٦/ ٦٦).

تنظيمٌ أو حركة سرية. وقد أفردنا لمناقشة هذه القضية التاريخية المهمة دراسة مستقلة[1].

(١) توصلنا إلي هذه النتيجة – مع البرهنة عليها وبعد مناقشة للروايات المعنية – في بحث لنا منشور بعنوان « الدعوة العباسية لا علاقة لها بالبيت العلوي: دراسة نقدية لوصية أبي هاشم عبد الله العلوي لمحمد بن علي العباسي » – مجلة : « ندوة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية »، بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد (٢٤)، (يونيو ٢٠١٠م) .

الخاتمة وأهم النتائج

تعود أهمية معرفة مواقف ابن الحنفية وآرائه السياسية في الأحداث التي عاصرها إلى قوة تأثيره في مَجْرَياتها، لعلمه وفقهه من ناحية، ولمكانته ومنزلته من البيت العلوي من ناحية أخرى، إضافةً إلى قوة شخصيته وهيبته في النفوس، وصلابته في المواقف.

وقد توصَّلَ البحثُ إلي عدد من النتائج، وناقش بعضَ القضايا ذات الصلة، يمكن رصدها في النقاط الآتية:

١- التحديد الدقيق لتاريخ مولد ابن الحنفية ووفاته، بمناقشة الروايات والأقوال الكثيرة الواردة في المولد والوفاة .

٢- التعرُّف علي شخصية محمد ابن الحنفية، وملامحها الرئيسة، من واقع ما ورد عنه في المصادر من معلومات، ومن خلال مواقفه من الأحداث التاريخية، وأقواله ومأثوراته المروية عنه في الأحكام والمواعظ.

وأهم ما كان يميزه من صفات وفضائل: الصلاح، والورع، والإخلاص، والبر والإحسان، والتواضع، والحكمة، والعقل، والبصيرة، والشجاعة، والفروسية، وسَعَة العلم والفقه، وفصاحة اللغة والبيان، وقوة الشخصية، والصلابة في المواقف، وشدة التَّحَرِّي للحق، والدفاع عنه، وإعلاء قيمة العدل، والبَصَر بعواقب الأمور، والانعزال عن الفتن، والتحذير من الأهواء، وسفك الدماء، والنفور الشديد من الخلاف المؤدِّي إلي الفُرقة والاقتتال، والبُعْد عن طَلَب الشهرة وحُبِّ الظهور. وكان سيداً، شريفاً، من أفاضل أهل البيت، وأفضل أولاد عليّ بن أبي طالب بعد الحسن والحسين، رضي الله عنهم.

٤- كان ابن الحنفية قريباً من أبيه عليِّ بن أبي طالب ﷺ، ولازمه في كثير من أحواله، وتتلمذ عليه وحمل عنه علمه، وروي كثيراً من مروياته وأقواله، وفاق في ذلك

أَخَوَيْه الحسنَ والحسين، لكثرة ملازمته لأبيه، وكان يفتخر بذلك عليهما، وإن كان في الوقت نفسه يُقرُّ بتقدُّمهما عليه في الفضائل والمناقب.

٥- وبالرغم من أن ابن الحنفية قد أدرك عدداً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فإنه لم يَرْوِ إلا عن قليل منهم. وأكثر من تتلمذ عليه منهم – بعد أبيه – هو الصحابي جابر بن عَبد الله الأنصاري ﷺ .

٦- تتلمذ علي يدي ابن الحنفية عددٌ كبير من طلبة العلم، ونبغ منهم ثُلَّةٌ حتي صاروا علماء. وأكثرُ من حمل عنه العلمَ ابناه الحسنُ وعبدُ الله، وتلميذُه النَّجيب مُنذر ابن يَعْلى الكوفي، الذي لازمه ملازمة تامة، وروي عنه أكثر أقواله ومروياته.

٧- كان موقف ابن الحنفية من حادثة مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ لم يزد عن كونه عاصر الحدث، وروى أطرافاً منه، ونقل لنا كيف تمت البيعة بالخلافة لأبيه علي ابن أبي طالب في اليوم الذي قتل فيه عثمان ﷺ. ولم يُنقَل عنه أنه كان من المشاركين في محاولة الدفاع عن الخليفة الشهيد، كأَخَوَيْه الحسن والحسين وآخرين من شباب الصحابة. وفي اليوم الذي شدَّد فيه الثائرون حصارَهم علي الخليفة خرج علي بن أبي طالب مسرعاً لإنقاذ الموقف في الساعات الأخيرة، فحاول ابن الحنفية مَنْعَه من الخروج، وتعلّق بثيابه ، خوفًا عليه من القتل. أما عن رأيه في عثمان فلا يختلف عن موقف أبيه عليٍّ ﷺ منه ؛ محبتُه، ومعرفةُ فضله، و الإقرارُ بشرعية خلافته، والردُّ علي الطاعنين فيه، والإنكارُ علي المنتقصين من قَدْره. ومع إقرار ابن الحنفية بالفضل لعثمان، وإنكاره علي الطاعنين فيه، فإنه كان يقدِّمُ عليه أباه في المنزلة والمرتبة الدينية، وذلك بعد تقديم أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق رضي الله عنهما.

٨- كان ابن الحنفية جندياً وقائداً في جيش أبيه عليٍّ، وخاض معه حروبَه كلَّها في فترة ولايته (٣٥ – ٤٠هـ/ ٦٥٥– ٦٦٠م)، حاملاً له الراية، وأيَّده في قتاله ضدَّ خُصومه ومُخالفيه. وكان يُفَرِّق بين مشاركته في القتال مع أبيه في الحروب التي خاضها، وبين امتناعه عن القتال مع – أو الانضمام إلي – أيٍّ من الطرفين – الأمويين والزبيريين

- في النزاع الذي طال بينهما، للاستئثار بالملك والانفراد بالخلافة؛ فقد قاتل بجوار أبيه لأنَّ أباه إمام – أي خليفة –له بيعة شرعية، ولأنَّ مخالفيه (بُغاة) بَغَوْا عليه، فيجب قتالهم لردِّهم إلي الجماعة. وكان يقول لمن يدفعونه إلي تأييدهم من قادة ثورة أهل المدينة- ويَحْتَجُّون عليه بقولهم: أنتَ قاتلتَ مع أبيك يوم الجَمل، ويوم صفّين، ويوم النهروان - : « جيئوني بمثل أبي أقاتل علي مثْل ما قاتل عليه، والله لا أقاتلُ أهلَ القبلة، ولا أتبعُ مُولِّياً، ولا أُجْهزُ علي جريح، ولا أَدخلُ داراً إلا بإذن ». وقال أيضاً: « إنَّ أبي بايعه أهلُ الأمْر، فنكثَ ناكثٌ – يعني معاوية وأهل الشام - فقاتله، ومرق مارقٌ – يعني الخوارج - فقاتله». أما امتناعه عن المشاركة في القتال الدائر بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان فلأنه (قتال فتة)، ونزاعٌ علي المُلْك، ويجب حينئذ اعتزالُه، والامتناع من البيعة لايٍّ من الطرفين، حتي ينفرد أحدهما بالمُلْك، فيذعن لهً، ومن ثمَّ بايع ابن الحنفية لعبد الملك. وهذا ما يُطلق عليه «البيعة بالتَّغَلُّب ».

٩- وافق ابن الحنفية أخاه الحسنَ علي تنازله لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة، ورأى – كأخيه – أن المصلحة العامة تقتضي ذلك، جمْعاً لكلمة المسلمين، وتوحيداً لصفوفهم، ووقفاً للقتال والفتنة. وكان في موقفه هذا علي الضدِّ من أخيه الحسين الذي عارض الحسنَ في تنازله، ثم رضي في النهاية بالأمر، وبايع لمعاوية.

١٠- كانت علاقة ابن الحنفية بمعاوية جيدة، واستمرت كذلك إلي أن عزم الأخير علي عَقْد البيعة بولاية العهد لابنه يزيد، فبايعه ابن الحنفية عن طواعية، والتزم بالبيعة له بعد وفاة معاوية. وقد خالف في موقفه هذا موقفَ كلٍّ من الحبْرَ يْن ابن عباس وابن عمر، حيث رفضا إعطاءَ البيعة ليزيد في وجود معاوية خليفةً، فلما مات معاوية بايعا يزيد، وأخذا يُحذِّران الحسينَ بنَ عليٍّ وعبدَ الله بنَ الزبير من الفُرْقة والاختلاف.

١١- لم يوافق ابن الحنفية علي موقف أخيه الحسين بن عليٍّ في امتناعه عن إعطاء البيعة بالخلافة ليزيد، وفي سعيه لعزله وخروجه إلي الكوفة – بعد موت معاوية –

لينضمَّ إليه أهلُها، حيث وَعَدُوه بالبيعة والنُّصْرة. وكان موقف ابن الحنفية هذا نابعاً من التزامه بالبيعة ليزيد، حيث لا يجوز نقضُها، ورأى أنَّ خروجَ الحسين ليس فيه مصلحة راجحة. إضافةً إلي خوفه علي الحسين مِن غَدْر أهل الكوفة كما غدروا بأبيه وأخيه الحَسن مِن قَبْلُ.

وقد ناقشت الدراسة بعض الروايات الشيعية التي تذم ابنَ الحنفية، والآراء التي تفسر موقفه – من عدم موافقته علي خروج أخيه الحسين، وامتناعه هو وأولاده من الانضمام إليه – بأنه كان مريضاَ، أو بأنَّ نُصرة الحسين لم تكن واجبة عليه، أو كان امتناعه لمصلحة يراها، (لم تحددها تلك الروايات)، أو غير ذلك من التفسيرات. وكل ذلك ما هو إلا مجرد تبرير وبحث عن مخرج لتلك الروايات التاريخية الكثيرة التي تؤكد علي أن امتناع ابن الحنفية من تأييد الحسين إنما كان لعدم رضاه عن موقفه من عزل يزيد، للأسباب سابقة الذِّكْر.

١٢- كان ابن الحنفية حاسماً وصارماً في موقفه من أهل المدينة حينما خرجوا ثائرين علي الخليفة يزيد بن معاوية لخلعه من الخلافة. فقد أعلن – هو وغيره من كبار الصحابة والتابعين المعاصرين للحدث – رفضَه التام لأهدافهم، ودار حوار طويل بينه وبين قادة الثورة، وفيه أرادوا إقناعه بشرعية ثورتهم. وقد فند دعاواهم، ورد علي حُججهم، ونفي تلك التُّهمَ التي أثاروها وألصقوها بيزيد في دينه وخُلُقه، وجعلوها أسباباً للخروج عليه ونَقْض بيعته، وطالبهم بإقامة البرهان علي ما ينقلونه في حقه. كما أنه حذَّرهم من مَغبّة الفتنة وعواقب نقض البيعة، وذكَّرهم بما حدث لأخيه الحسين ولمن معه من أولاده وإخوته وبني عمِّه، وأكَّد لهم أنَّ خروجهم علي يزيد ليس فيه مصلحة. ورفض العرضَ الذي قدَّموه إليه، وهو أن يبايعوه بالخلافة في مقابل تأييدهم، وكان ردُّه: « لا أستحلُّ القتالَ علي ما تريدونني عليه، تابعاً ولا متبوعاً ». وقال: «والله لا خلعتُ مَن بايعتُ، ولا تابعتُ مَن لم يجعل الله له في عنقي بيعة ». وهذا يؤكد رفضَه التامّ لفكرة الخروج علي السلطان ونَقْض البيعة، وأنَّ ما حدث من أهل

المدينة إنما هو فتنة لا ينبغي الانخراطُ فيها بأي حال. كما أنه – كعبد الله بن عمر بن الخطاب – منع أولاده من المشاركة والخروج مع أهل المدينة.

والموقف الذي اتخذه ابن الحنفية من ثورة أهل المدينة، ومن خروج أخيه الحسين قبل ذلك، لعزل يزيد بن معاوية، لاشك أنه كان يَصْدُرُ عن فهمه للنصوص النبوية التي تدعو إلى طاعة الخلفاء والأمراء، وتحضُّ على توقيرهم، وتُحذِّر من الخروج على سلطانهم وإن مَنَعوا الحقوق، وتأمر بالصبر على جَوْرهم واستئثارهم، وتأمر كذلك بوجوب الوفاء ببيعتهم، وملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال. إضافة إلي فهمه للأحاديث الواردة في بيان خطورة الفتن، والتحذير من الاشتراك فيها، والقتال مع أي من أطرافها. والحكمة في ورود النهي عن الخروج علي الأمراء تظهر فيما يتولد – عادة – من وقوع الفوضى، وأعمال العنف والقتل، وإضعاف هيبة الدولة والسلطان، و غياب الأمن والاستقرار. وقد أثبتت أحداث ثورة أهل المدينة أن ما تولَّد عنها من الفساد والشر أعظم مما تولَّد من الخير، وذلك حين اقتحمها جيش الأمويين، بعد انتصاره في معركة الحرَّة، واستُبيحت المدينة ثلاثة أيام ، وقُتل خلقٌ من أشرافها وقرائها ، وانتُهبت أموالٌ كثيرة منها ، ووقع شر عظيم وفساد عريض. وهذا هو الذي كان ابن الحنفية – ومَن وافقه –يتخوف وقوعه، ويحذر منه في حواره مع قادة الثورة.

١٣ – أما موقفه من النزاع الدائر بين ابن الزبير وبني أمية فقد اعتزل كلا الطرفين، واعتبر القتالَ بينهما قتال فتنة، واقتتالاً علي الملك؛ ومن ثَمَّ يجب كفُّ اليد. وكان يقول لأصحابه: « آمركم بتقوى الله وأن تحقنوا دماءكم، وإني معتزلٌ لهذه الفتنة حتى تجتمع الأمة؛ إذ اختلفتْ وتفرَّقتْ ». وعلي الرغم من الضغوط الشديدة التي مارسها عليه ابنُ الزبير، والإغراءات التي قدمها عبد الملك بن مروان، لينال كلٌّ منهما انحيازَ ابن الحنفية إليه – فلم يستطع واحد منهما التأثير عليه، وظل متمسِّكاً وصامداً، حتي انفرد

عبد الملك بالخلافة والمُلك بعد نجاحه في القضاء علي دولة ابن الزبير، فبايعه ابن الحنفية بعد أن احتاط لنفسه ولأتباعه، وأخذ الضمانات التي تُكفِّل سلامته.

١٤- لم يكن موقف ابن الحنفية من الدولة الأُموية موقف المهادنة حينما امتنع من تأييد أخيه الحسين، ومن الانضمام إلي أهل المدينة في ثورتهم علي الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وعند امتناعه من البيعة بالخلافة لابن الزبير في صراعه مع عبد الملك بن مروان. ولم يكن (يُفضِّل اتباعَ سياسة سلبية في التعامل مع الأحداث)، كما يذهب إلي ذلك البعض[١]. ولم يكن (ينقصه القدرة علي المغامرة والثقة بالنفس)، كما يتهمه بذلك البعض الآخر[٢]. ولم يكن الدافع له – كذلك - في تعامله مع تلك الأحداث التي عاصرها هو العصبية المذهبية، أوالحزبية السياسية، أو النزعة العاطفية، إنما كان يتعامل معها بـ «منهج» شرعي، و«رؤية» دينية، مبنية علي فهم وإدراك للنصوص النبوية الواردة في وقوع الفتن والاقتتال الذي يقع بين أفراد الأمة، وكيفية التعامل معه. فقد كان عالماً فقيهاً مجتهداً، وله قدرة عالية علي التمييز والتمحيص للشخصيات والمواقف و الأحداث.

والذي يظهر - بعد التأمُّل والنظر في مواقف ابن الحنفية من أحداث عصره، وما صدر عنه من أقوال في الحكم عليها - أنه متي خفي الحقُّ، وتعثَّرتْ معرفةُ الصواب فإنه يترجَّح آنذاك جانبُ القول باعتزال الفتنة، وكفُّ اليد عن المشاركة في القتال، كما فعل ابن الحنفية - ووافقه في ذلك عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وآخرون من الصحابة والتابعين – في النزاع القائم بين ابن الزبير وعبد الملك. ومتى عُرف الحقُّ، وتبيَّنَ الصوابُ مع أيٍّ من الأطراف المتقاتلة فإنه ينبغي حينئذ المشاركة، لنُصرة الحقِّ

---

(١) د. الخربوطلي: المختار الثقفي مرآة العصر الأموي (ص ٢١٥-٢١٦، ص٢٢٣)، ف. بول (**F.Paul**): دائرة المعرف الإسلامية (ص ٩١٦٢) .

(٢) ف. بول (**F.Paul**): دائرة المعارف الإسلامية (ص ٩١٦٢) .

وأهله، وقتال الباغي، كما فعل ابن الحنفية حين قاتل بجوار أبيه عليٍّ في « الجمَل» و «صِفِّين» و «النَّهروان».

ومن هنا كان ابن الحنفية يشدِّدُ في أمر البيعة بالخلافة، ولا يعطي البيعة إلا لمن اجتمعت عليه الكلمة، ولم يختلف عليه اثنان، وكان يحكم علي القتال الذي يقع بين اثنين – كلاهما يطلب الخلافة لنفسه – بأنه قتال فتنة، وينبغي الاعتزال حينئذ، وتكون القاعدة: « إذا اختلف إمامان، كلٌّ منهما ينازع الآخر في الخلافة، فلا يُبايَعُ لأحدهما حتى يستتب الأمر، ويتغلب أحدهما علي الآخر »، كما حدث بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان. وقد سبق ذكر كلامه لابن الزبير: « إنَّا لا نبايع إلا مَن اجتمعتْ عليه الأَمَّةُ، فإذا اجتمعت عليك الأمة بايعناك، وكنا أُمَّةً من الناس ». وقال في ردِّه علي الحجَّاج بن يوسف الثقفي لَمَّا طالبه بالبيعة لعبد الملك بن مروان:« قد عرفتَ مُقامي بمكة، وشُخُوصي إلي الطائف، وإلي الشام، وكلُّ هذا إباءً منِّي أن أبايعَ ابنَ الزبير، أو عبدَ الملك، حتى يجتمعَ الناسُ علي أحدهما. وأنا رجلٌ ليس عندي خلافٌ. لَمَّا رأيتُ الناسَ اختلفوا اعتزلتُهم حتى يجتمعوا، فأويتُ إلي أعظم بلاد الله حُرْمة، يأمَنُ فيها الطيرُ، فأساء ابن الزبير جواري، فتحوَّلتُ إلي الشام، فكره عبدُ الملك قُرْبي، فتَحوَّلتُ إلي الحرم، فإن يُقتل ابنُ الزبير ويجتمع الناسُ علي عبد الملك أبايعْك».

١٥– لم يكن ابن الحنفية – من بين مُعاصريه من الصحابة والتابعين – هو الوحيد الذي وقف تلك المواقفَ في الأحداث التي عاصرها، فقد شاركه في رأيه ووِجْهته كثيرون، من الصحابة والتابعين، وخصوصاً موقفهم الرافض لخروج الحسين، وثورة أهل المدينة، لعزل يزيد بن معاوية، واعتزال القتال الذي قام بين الزبيريين والأمويين من أجل الانفراد بالخلافة .

١٦– لم يَسْعَ ابن الحنفية إلي طلب الخلافة، وإن كان فيه من الفضائل والكفاءة ما يؤهِّلُه لمثلها. وكان إذا عُرضتْ عليه يرفضها بشدَّة، كما حدث مع قادة ثورة أهل

المدينة (سنة٦٣هـ/ ٦٨٢م)، حينما أرادوا إقناعه بشرعية موقفهم في خروجهم علي يزيد بن معاوية، لعزله من الخلافة، وعرضوا عليه البيعة بالخلافة، فرفض ودعاهم إلي الالتزام ببيعة يزيد. ومن كلماته التي كان يوجهها لأتباعه ولمن حوله في فترة النزاع والاقتتال بين الزبيريين والأمويين : « اصبر، وما صبرك إلا بالله، وما هو بعظيم مَن لا يصبرُ علي ما لا يجدُ من الصبر عليه بُدَّاً، حتى يجعل الله له منه مخرجاً. والله ما أردتُ السيفَ، ولو كنتُ أريدُه ما تعبَّثَ بى[1] ابنُ الزبير، ولو كنتُ أنا وحدي ومعه جموعُه التي معه، ولكنْ - والله - ما أردتُ هذا ..... ».

وكان رحمه الله يُعظِّم من شأن الدماء، ويحذِّرُ من إراقتها في غير وجْه حقٍّ، ويري أنَّ الأمة كلها لو اجتمعت عليه وبايعته بالخلافة، ولم يبق فيها إلا رجل واحد لم يبايع ثُمَّ لا يُتَوَصَّل إلي إتمام الأمر إلا بقتله فإنه لا يرضي بذلك. ويؤكد علي هذا بقوله: « ما يسُرُّني أني قتلتُ حَبَشياً مُجَدَّعاً ثم أجمعُ سلطانَ العرب كلَّه»[2].

١٧- ناقش البحث علاقة ابن الحنفية بالمختار بن أبي عُبيد الثقفي، وتَوصَّل – مستنداً إلي الأدلة التاريخية – إلي عدم صحَّة ادِّعاء المختار أنه مبعوث من جهة ابن الحنفية إلي الكوفة، ليدعو باسمه « إماماً »، وأنه مكلَّفٌ من قبله بالثأر من قَـتَلة الحسين ابن علي، ووَصْفه بالمهديِّ الوَصِيِّ بن الوَصِيِّ. وقد نَفى ابنُ الحنفية عن نفسه ذلك كلَّه، وتبرَّأ من المختار ودعوته.

والحقُّ – الذي أكدته الروايات الصحيحة - أنَّ ابن الحنفية لم يكن « إماماً »؛ أي بالمعني المخصوص عند الشيعة، ولا انتقلت إليه «الإمامة » بوصية من أبيه عليٍّ، أو من أخيه الحسين، كما يدَّعي الشيعة « المختارية - الكيسانية » الذين يعتقدون إمامتَه في حياته وبعد موته، ويزيدون علي ذلك الاعتقاد بأنه لم يَمُتْ ، وإنما هو حيٌّ في جبل

---

(١) ما تعبَّث بي : أي ما اجترأ أن يهدِّدني ويجبرني علي البيعة.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف (٣/ ٤٧٣) المقريزي: المقفَّي (٦/ ٢٨٤) .

« رَضْوَي»، عنده عسلٌ وماءٌ، ويؤمنون برَجْعته إلي الدنيا، وأنه هو« مَهْديُّ » آخر الزمان. وكان ابن الحنفية ينكر علي من يصفه بالمهدي. كما أنه نفي القول بوجود (وَصيَّـة) بالإمامة أو الخلافة من النبي ﷺ لأبيه، أو لأحد من إخوته. ولا يتعارض نَفْيُ « الإمامة » عنه – بمعناها المخصوص عند الشيعة – مع إمامته في الدين والعلم.

* * *

قائمة المصادر والمراجع[1]

أولاً: المصادر:

• الآجُرِّي: محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو القاسم الآجري البغدادي(٣٧٨ هـ/ ٩٨٨م):

١- **الشريعة** – ط: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

• ابن الأثير: محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ابن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):

٢- **الكامل في التاريخ** – ط : دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م .

• أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥ م):

٣- **فضائل الصحابة** – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م، تحقيق د. وصي الله محمد عباس.

٤- **المسند** – ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة- الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

• الأشعري: علي بن إسماعيل، أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠هـ/ ٩٤١م):

٥- **الإبانة عن أصول الديانة** – ط: المدينة المنورة ١٤٠٩هـ تحقيق حماد محمد اللأنصاري.

• ابن أعثم: أحمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي، أبو محمد (نحو ٣١٤هـ/ ٩٢٦م):

٦- **كتاب الفتوح** – ط: حيد آباد الدكن ، الهند.

• البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م):

٧- **الأدب المفرد** – ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

٨- **التاريخ الكبير** – ط: دار الفكر، بيروت، تحقيق : السيد هاشم الندوي .

• البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفراييني (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م):

٩- **الفرق بين الفرق** – ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

• البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري البغدادي (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م):

١٠- **أنساب الأشراف** – ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، تحقيق د. سهيل زكار، د. رياض زركلي.

---

(١) قمت بترتيب القائمة هجائيا، بدءا بالمصادر، بحسب لقب المؤلف وشهرته، مع مراعاة إسقاط(ابن) و (أبو) و (ال)، ثم تأتي المراجع الحديثة علي حسب الاسم الأول والثاني ..

• **البيهقي:** أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦م) :
١١- **السنن الكبرى** – ط: مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
١٢- **شعب الإيمان** – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٠ هـ، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.
• **ابن تغري بردي:** يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري، أبو المحاسن (ت ٤٨٧هـ / ١٤٧٠م) :
١٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (د.ت).
• **ابن تيمية:** تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية الحرَّاني (ت ٧٢٨هـ/ ١٢٣٠م):
١٤- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية – ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة، الطبعة الأول،١٤٠٦هـ ، تحقيق د. محمد رشاد سالم.
١٥- مجموع الفتاوى – ط: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ، تحقيق أنور الباز، وعامر الجزار .
• **الجوزجاني:** أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق الجوزجاني (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م) :
١٦- أحوال الرجال – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، تحقيق: السيد صبحي البدري السامرائي.
• **ابن أبي حاتم:**أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، التميمي الرازي (ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م):
١٧- **الجرح والتعديل**- ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٢٧١ هـ/ ١٩٥٢م.
• **ابن حبان:** محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م) :
١٨- **صحيح ابن حبان** (بترتيب ابن بلبان) – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ/ م١٩٩٣م، تحقيق : شعيب الأرنؤوط.
• **الحاكم النيسابوري:** محمد بن عبدالله، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ/١٠١٤م):
١٩- **المستدرك على الصحيحين** – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .

• **ابن حجر العسقلاني**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):
٣٠- تهذيب التهذيب – ط: دار صادر ، بيروت، لبنان ١٣٢٥هـ .
٣١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ط: دار الريان، القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٣٢- لسان الميزان – ط: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٢م.
• **ابن حجر الهيتمي**: أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي، ابن حجر، السعدي الهيتمي (ت٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م):
٣٣- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م ، تحقيق : عبدالرحمن بن عبدالله التركي، وكامل محمد الخراط.
• **ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م):
٣٤- جمهرة أنساب العرب – ط: دار المعارف، القاهرة، تحقبق ليفي بروفنسال، سلسلة ذخائر العرب (٢) .
• **الخطابي**: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطابي(ت٣٨٨هـ/ ٩٩٨م):
٣٥- العزلة – ط: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، تحقيق ياسين محمد السواف.
• **الخلال**: أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال أبو بكر (ت ٣١١ هـ/ ٩٢٣م) :
٣٦- السنة – ط: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ، تحقيق د. عطية الزهراني .
• **الخطيب البغدادي**: أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي(ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م):
٣٧- تاريخ بغداد – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان(د . ت) .
• **ابن خلدون**: عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م):
٣٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر – ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت١٩٨١م.
٣٩- المقدمة – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بالاشتراك مع دار نهضة مصر للطباعة والنشر، سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.
٣٠- العبر وديوان المبتدأ والخبر – ط: دار الفكر، بيروت، لبنان،الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، تحقيق خليل شحادة.

• **ابن خلكان:** أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):
٣١- وفيات الأعيان - ط: دار صادر ، بيروت ١٩٦٨م- تحقيق إحسان عباس.
• **خليفة بن خياط** : خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، أبو عمرو (ت ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م) :
٣٢- تاريخ خليفة – ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ٩٩٨٥ م، حققه د. أكرم ضياء العمري.
٣٣- الطبقات – ط: مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولي ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري
• **الدار قطني:** علي بن عمر بن أحمد، أبو الحسن الدار قطني البغدادي (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م):
٣٤- فضائل الصحابة – ط: دار ماجد عسيري، المملكة العربية السعودية ١٤٢٢هـ، ضبط أبي مصعب الحلواني.
٣٥- السنن – ط: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني
• **الدارمي:** عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، أبو محمد الدارمي، السمرقندي (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) :
٣٦- السنن – ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، تحقيق: فواز أحمد زمرلى، خالد السبع العلمى .
• **الذهبي:** شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م):
٣٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – (ج٣ – ط: دار الغد العربي، العباسية، القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٩٦م) - وطبعة أخري جاء النص عليها في الحواشي: (دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى. ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى) .
٣٨- سير أعلام النبلاء – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية عشر١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م. تحقيق نخبة من الباحثين بإشراف شعيب الأرناؤوط
٣٩- ميزان الاعتدال في نقد الرجال – ط: دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبى، الطبعة الأولي ١٣٨٢هـ . تحقيق محمد علي البجاوي .
• **الرازي:** محمد بن عمر بن الحسين الرازي، أبو عبد الله (ت٦٠٦ هـ/ ١٢١٠م):

٤٠- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين – ط: دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٢هـ، تحقيق: علي سامي النشار .

• **ابن سعد:** محمد بن سعد بن منيع الزهري ، كاتب الواقدي(ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م):

٤١- الطبقات الكبرى – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م، تحقيق د. علي محمد عمر.

• **السمعاني:** عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، أبو سعد السمعاني المروزي (ت ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧م) :

٤٢- الأنساب – ط: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، دار الجنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي .

• **السيوطي:** جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(٩١١ هـ):

٤٣- **إسعاف المبطأ برجال الموطأ** – ط: دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، تحقيق وتعليق موفق فوزي جبر.

• **الشافعي:** محمد بن إدريس، أبو عبد الله الشافعي (ت ٢٠٤/ ٨١٩م):

٤٤- مسند الشافعي – ط: دار الكتب العلمية ، بيروت.

• **ابن شاكر الكتبي:** محمد بن شاكر بن أحمد، الكتبي، الدمشقي(ت٧٦٤هـ/ ٣١٦٣م):

٤٥- فوات الوفيات – ط: دار صادر – بيروت، تحقيق:إحسان عباس ١٩٧٣– ١٩٧٤م .

• **ابن شبة:** عمر بن شبة النميري البصري (٢٦٢هـ/ ٨٧٦م):

٤٦- تاريخ المدينة – ط: منشورات دار الفكر، مطبعة قدس، قم، إيران ١٤١٠هـ، تحقيق فهيم محمد شلتوت .

• **ابن أبي شيبة:** أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، العبسي الكوفي (٢٣٩هـ/ ٨٥٣م):

٤٧- المصنف في الأحاديث والآثار – ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت .

• **الشيرازي:** أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي(ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م):

٤٨- طبقات الفقهاء – ط: دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى: ١٩٧٠م ، تحقيق إحسان عباس .

• **الصفدي:** صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

٤٩- الوافي بالوفيات - بعناية هلموت ريتر، دار نشر فرانز شتايز، فيسباون ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

• **الطبراني:** سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (ت٣٦٠ هـ/٩٧١م):

٥٠- المعجم الكبير – ط: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي

• **الطبري:** محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م):

٥١- تاريخ الرسل والملوك – ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

• **الطحاوي:** أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك، أبو جعفر الطحاوي(ت٣٢١ هـ / ٩٣٣م) :

٥٢- شرح معاني الآثار – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ تحقيق : محمد زهري النجار.

• **الطيالسي:** سليمان بن داود، أبو داود البصري الطيالسي(ت٢٠٤هـ/ ٨١٩ م) :

٥٣- المسند – ط: دار المعرفة – بيروت .

• **ابن أبي عاصم:** عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني (ت : ٢٨٧/ ٩٠٠ م) :

٥٤- السُّنَّة - ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني .

• **ابن عبد ربه:** أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ، أبو عمر(توفى ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠م):

٥٥- العقد الفريد – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، تحقيق د. عبد المجيد الترحيني.

• **عبد الرزاق الصنعاني:** أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني (ت ٢١١ هـ/ ٨٢٧م):

٥٦- المصنَّف – ط: المكتب الإسلامي، بيروت، تحقيق حبيب الرحمن العظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

• **ابن عبد البر:** أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي(ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م):

٥٧- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد – ط: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، ومحمد عبد الكبير البكري.

• **عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني:**

٥٨- السُّنَّة – ط: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

• **ابن عبد المنعم الحميري:** محمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميري السبتى، أبو عبد الله، المعروف بابن عبد المنعم (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦م) :

٥٩- الروض المعطار في خبر الأقطار – ط: مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت،لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٠م، تحقيق إحسان عباس.

• **العدني** : محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، الدراوردي (٢٤٣هـ/ ٨٥٨ م):

٦٠- الإيمان – ط: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ،تحقيق حمد بن حمدي الجابرى الحربي.

• **ابن عساكر:** أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى، المعروف بابن عساكر (توفى ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م):

٦١- تاريخ مدينة دمشق – ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دراسة وتحقيق: علي شيري.

• **أبو عوانة:** يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد الإسفراييني (٣١٦هـ):

٦٢- مستخرج أبي عوانة – ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي .

• **الفاكهي:** أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس، المكي الفاكهي (٣٥٣ هـ/ ٩٦٤م):

٦٣- أخبار مكة – ط: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ، بتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

• **الفسوي:** أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠ م) :

٦٤- المعرفة والتاريخ– ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١م، تحقيق د. أكرم ضياء العُمَري.

• **ابن قتيبة:** أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري البغدادي (٢٧٦هـ/ ٨٨٩):

٦٥- عيون الأخبار – ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ساسلة الذخائر (رقم ١٠٤)، ٢٠٠٣م، قدم لهد. عبد الحكيم راضي.

• **ابن كثير:** إسماعيل بن عمر بن كثير، القرش الدمشقي، عماد الدين (٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م):

٦٦- البداية والنهاية – ط: دار الغد العربي، القاهرة. الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
• **اللالكائي:** هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى الرازى، أبو القاسم اللالكائى (توفى ٤١٨هـ / ١٠٢٧م):
٦٧- أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة – ط: دار طيبة، الرياض ١٤٠٢م، تحقيق د.أحمد سعد حمدان.
• **ابن ماجه:** محمد بن يزيد، أبو عبد الله الربعي القزويني(ت ٢٧٣ هـ/ ٨٨٧ م) :
٦٨- السنن – ط: دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
• **مالك بن أنس** بن مالك، أبو عبد الله الأصبحي، الحميري (١٧٩هـ / ٧٩٥ م):
٦٩- الموطأ (رواية محمد بن الحسن)- ط: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى١٤١٣ هـ/ ١٩٩١م. تحقيق د. تقي الدين الندوي.
• **المزِّي:** يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، المزي الدمشقي (ت ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١م)
٧٠- تهذيب الكمال في أسماء الرجال – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥م، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف.
• **المسعودي** :علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي البغدادي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م):
٧١- مروج الذهب – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، شرحه وقدم له د. هفيد محمد قميحة.
• **المقدسي:** مطهر بن طاهر المقدسي (ت بعد ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م) ::
٧٢- البدء و التاريخ – ط: باريس (د. ت) .
• **المقدسي:** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء،المقدسي البشاري(المتوفي٣٨٨هـ/ ٩٩٠م):
٧٣- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - نشر من قطعة في كتاب بعنوان: وصف المغرب الإسلامي - نشر وترجمة شارل بلا، الجزائر، المكتبة العربية الفرنسية ١٩٥٠م .
• **المقريزي:** تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):
٧٤- المُقفَّي الكبير – ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، تحقيق محمد اليعلاوي.
• **ابن منظور:** محمد بن مُكرَّم بن على، ابن منظور أبو الفضل، الأنصاري (ت٧١١ هـ/ ١٣١١م):

٧٥- مختصر تاريخ دمشق – ط: دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، تحقيق أحمد راتب حموش، ومحمد ناجي العمر.

• **مؤلف مجهول** (من القرن الثالث الهجري) :

٧٦- أخبار الدولة العباسية – ط: دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، والدكتور عبد الجبار المطلبي .

• **نصر بن مزاحم بن** سيار، أبو الفضل المنقري (٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م) :

٧٧- وقعة صفين – ط: المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

• **أبو نعيم:** أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) :

٧٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ .

• **نعيم بن حماد** بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي، أبوعبد الله (ت ٢٢٨ هـ/ ٨٤٣ م) :

٧٩- الفتن والملاحم– ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان- حققه وقدم له أ.د. سهيل زكار .

• **الواقدي:** أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢ م):

٨٠- المغازي – ط: عالم الكتب، بيروت، تحقيق : مارسدن جونس .

• **ياقوت الحموي:** أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى(٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):

٨١- معجم البلدان – ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

• **أبو يعلى:** أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي (ت ٣٠٧ هـ/ ١٩١٩م):

٨٢- مسند أبي يعلى – ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. تحقيق: حسين سليم أسد.

• **اليعقوبي:** أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب، اليعقوبي البغدادي (ت بعد ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م):

٨٣- تاريخ اليعقوبي – ط: دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م .

ثانيا: المراجع:

• **محسن الأمين :**

٨٤- **أعيان الشيعة** – ط: دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، حققه وأخرجه حسن الأمين.

• **خير الدين الزركلي:**

٨٥- **الأعلام** (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) – ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

• **عبد الشافي محمد عبد اللطيف (دكتور):**

٨٦- العالم الإسلامي في العصر الأموي: دراسة سياسية – ط : دار الاتحاد التعاوني للطباعة، القاهرة، الطبعة الثالثة١٩٩٦م/ ١٤١٧هـ .

• **عبد المالك أحمد رمضاني:**

٨٧- تمييز ذوي الفِطَن بين شَرَف الجهاد وسَرَف الفتن – ط: دار الفرقان للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي ٢٠٠٨م.

• **علي حسني الخربوطلي(دكتور):**

٨٨- المختار الثقفي مرآة العصر الأموي – ط: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، سلسلة أعلام العرب (رقم ١٦) ١٩٦٢م.

• **فلهوزن :**

٨٩- الخوارج والشيعة– ط: وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م. ترجمة د.عبد الرحمن بدوي.

• **محمد حسين الأعلمي:**

٩٠- دائرة المعارف بمقتبس الأثر ومجدد ما دثر – ط: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، طهران، قم، كربلاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١م=١٣٩١هـ .

• **محمد الطيب النجار (دكتور):**

٩١- الدولة الأموية في المشرق- ط: دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، الطبعة الثالثة١٩٨١م/ ١٤٠١هـ .

• **مُلا علي القاري :**

٩٢- شرح مسند أبي حنيفة – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .

الموسوعات العلمية:

٩٣- دائرة المعارف الإسلامية- تحرير: ف. بول (F.Paul)، (ص ٩١٦٢- ٩١٦٤). ترجم المدخل أ. د. حسن حبشي . طبعت الموسوعة برعاية الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى، حاكم إمارة الشارقة، الإمارات .

المراجع الأجنبية:

١- W.Montgomery Wat: Islmic Philsophy and Theolog Edinburgh ١٩٦٢.

٢- The New Encyclopedia Britannica, Chief editors Philip W. Goetz etc., ٣٢ volumes, (١٥th Edition, Chicago, ١٩٨٥) Volume ٨ (Muhammad ibn al - hanafiyah) .